ابراهيم حركات

السياسة والمجتمع في عصر الراشدين

الأهلية للنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina
0130862

ابراهيم حركات

السياسة والمجتمع في عصر الراشدين

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٨٥

بيروت، الحمراء، بناية الدورادو، هاتف ٣٥٤١٥٦ / ٣٥٤١٥٦ ص.ب. ١١٣٥٤٣٣

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩
القسم الأول	
العصر الراشدي سياسياً	
الفصل الأول	
اعادة اقرار الاسلام في جزيرة العرب	١٥
تولية ابو بكر	١٥
توجيه جيش اسامة إلى فلسطين	٢١
ارتداد العرب	٢٣
الفصل الثاني	
مواجهة الفرس وحلفائهم بالعراق،	
ومواجهة البيزنطيين بالشام	٣٥
الفصل الثالث	
اتساع المواجهة ضد البيزنطيين	
والقضاء على الحكم الفارسي	٥١
تولية عمر	٥١

فتح الجزيرة ٦٤
فتح الامبراطورية الساسانية ٦٦
فتح مصر ٩١
قيمة اعمال عمر ٩٧
الفصل الرابع
عصر الطموحات الشخصية وبداية الصراع
الحزبي ١٠٤
الفتوحات والمواجهات العسكرية ١٠٦
الثورة ضد عثمان ١١٦
تولية علي ١٢٤
معاوية يتحدى وعلي يتصلب ١٢٧
عائشة تقود الثورة ضد علي ١٣١
احداث مصر وحرب صفين ١٣٧
ثورة الخوارج وامتداد نفوذ معاوية ١٤٨
نهاية علي ١٥٣
القسم الثاني
انظمة الحكم
الفصل الأول
النظام السياسي ١٦١
الفصل الثاني
النظام القضائي والتشريع ١٧٦
الفصل الثالث
النظام المالي والاقتصادي ١٨٩

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

النظام الاداري والاقليمي ٢٢٠

الفصل الخامس

النظام العسكري............ ٢٤٥

القسم الثالث
المجتمع

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية ٢٩١

مجتمع شبه الجزيرة ٢٩١

المدن والسكان ٢٩٤

المجتمع غير الاسلامي ٣٠١

الامراض والشؤون الصحية ٣٠٦

المرأة وقضايا الاسرة............ ٣٠٨

النشاط المعماري............ ٣١٢

الحياة الدينية ٣١٧

الفصل الثاني

الحياة الفكرية ٣٢٣

مصادر ومراجع ٣٥٥

مُقَـــدّمَـــة

حينما استقر الاتفاق في سقيفة بني ساعدة، على مبايعة أبي بكر الصديق كأول خليفة بعد الرسول (ص) لم يكن الإسـلام قد شق طريقه إلى خارج شبه الجزيرة إلا في التخوم الموالية لها شمالا. فشبه الجزيرة إذاً، مهد الإسلام، وداخل محيطها الجغرافي تحدث الردة التي هزت كيان الدين الجديد هزاً عنيفاً. وداخل هذا المحيط يتم التصحيح والعودة إلى الدين بصدق، وأخيراً منه تتم الانطلاقـة لنشر رسـالة الإسلام عبر أنحاء العالم.

والواقع أنه لا شيء أثر في نفسية الإنسان العربي وفي مستقبل العرب قاطبة، مثل البيئة الجغرافية التي حكمت على هذا المستقبل بعدم الاطمئنان وقِصَرِ الاستقرار. وإن لعقلية الإنسان العربي أيضاً لدوراً لا ينكر في هذا المجال.

وإذا كانت شبه جزيرة العرب مهد الإسلام فهي قبل ذلـك بآلاف السنين مهد للعرب، ومنطلقهم الأصيل إلى العالم كله. وموقعها على الضفة الشرقية للبحر الأحمر، جعلها تطل على القارة الافريقية وتتحكم في مدخل هذا البحر، بينما تطل من جهة الشمال الشرقي على الخليج العربي الفارسي، حيث تتغلب المؤثرات الفارسيـة التي

تركت أثراً عميقاً في سلوك وأوضاع المجتمع العربي بهذه المنطقة. ثم إن موقع شبه الجزيرة تجاه المحيط الهندي، أو بحر الصين (كما كان يدعى) شرقاً، ساعد على نمو مطرد عبر التاريخ في العلاقات التجارية والاقتصادية مع الشعوب الأسيوية.

وتكوّن بلاد العرب هضبة عالية تنخفض تجاه الشرق والغرب. ومن الجهة الغربية تمتد سلسلة جبال السراة من الشمال إلى الجنوب، حيث ترتفع في اليمن إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر، وتحتضن أودية عميقة تعوق المواصلات، كما لا تحتفظ بالماء لشدة انحدارها.

ومن أهم الأقسام الطبيعية لشبه الجزيرة:

١ ــ تهامة، وهي الجزء المنخفض غرب جبال السراة بمحاذاة البحر الأحمر. وأهم مراكزها الحضارية مكة وينبع.

٢ ــ نجد، الواقعة شرقيّ الحجاز، والتي تتميز بارتفاعها. وبجنوبيها يقع الربع الخالي. وقد يصل ارتفاع هذه المنطقة إلى ١٨٠٠م. ويختلف التكوين الجيولوجي للمنطقة من صخور رسوبية ورملية وجيرية وغيرها حسب الأماكن.

٣ ــ الحجاز، وهو يحجز من جهة، بين نجد وتهامة، ومن جهة أخرى بين الشام واليمن. ومن مراكزه المدينة والطائف.

٤ ــ اليمن، ويتميز بكثرة مرتفعاته التي يبلغ متوسط علوها ما بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠م.

٥ ــ الربع الخالي، وهو منطقة صحراوية باتجاه الجنوب، وتكثر بها الكثبان الرملية. ومن المحتمل أنها تغطي مراكز حضارية سحيقة.

٦ ــ بادية الشام، وهي في الشمال الغربي، وتضم بعض الواحات، وهي على العموم صحراء ذات صخور صوانية.

وهناك أجزاء أخرى لها من الوجهة الطبيعية تكوين مقارب لمعظم أجزاء الجزيرة، والذي يتميز بالصبغة الصحراوية تربة وقحولة، مثل مسقط والبحرين.

وأمطار الجزيرة نادرة إلا في اليمن وعمان. وقد ينعم الحجاز بأمطار تساعد على ازدهار الواحات رغم قلة هذه الأمطار.

وتوجد عدة دلائل على اتصال الجزيرة بالقارة الإفريقية جغرافياً واجتماعياً، أكثر مما هو الشأن بالنسبة للقارة الأسيوية، ذلك أن طبيعة التربة والتضاريس والمؤثرات اللغوية القديمة، تتشابه في كل من ساحلي البحر الأحمر. ويدل شكل التضاريس، على أن الطرفين كانا جزءاً واحداً في عهد سحيق، وأن عملية زحزحة القارات قد فصلت بينهما بعد ذلك بواسطة بركان بحري على الأرجح. كذلك تتشابه نباتات الجزيرة مع نباتات إفريقيا أيضاً.

وبصرف النظر عن سائر الحيوانات التي تضمها المنطقة، فإن الخيل والإبل أدت خدمة بالغة الأهمية عبر عصور التاريخ كما تدل على ذلك أشعار الجاهلية وما بعد الجاهلية بزمن طويل.

واعتمدت المنطقة لمدة قرون متطاولة في قوتها ومستورداتها على اليمن والشام، وهما يمثلان في ذات الوقت، وسيطاً تجارياً مع الفرس والروم ومصر وشعوب آسيا. وباستثناء الإبل والتمر وبعض منتجات اليمن الزراعية وغيرها، لم يكن لشبه الجزيرة ما تقدمه لاستهلاك محلي كاف ومتنوع، فضلاً عن إمكانية التسويق إلى الخارج.

تلك بعض الملامح الجغرافية عن شبه جزيرة العرب، الشحيحة التربة والماء، والتي إذا عاشت لأحقاب على سلع الخارج، فقد حظيت بأن تقدم للبشرية آخر الرسالات السماوية، على يد الرسول محمد

عليه السلام. وإن هذه الرسالة لتحتل بدون شك، مقام الشرف الأول، في صف الصادرات الفكرية والتشريعية إلى العالم كافة. وإن عهد الخلفاء الراشدين، الذين عَزَّزوا هذه الرسالة، مع آلاف المؤمنين، بالتضحية بدمائهم ونضالهم، لجدير بالدراسة واستخلاص العبر من مؤثراته ونجاحاته.

القِسْمُ الأوّل

العَصْرُ الراشِديُّ سِيَاسِيًّا

الفصل الأول
إعادة إقرار الإسلام في جزيرة العرب

تولية أبي بكر[1]

ما إن بلغ سكان المدينة نعي الرسول (ص) حتى عمّت الدهشة سائر الأوساط، إذْ لم يصدق الناس موت النبي حتى خطب فيهم أبوبكر يبلغ إليهم صدق النبأ ويذكّرهم بالآية الكريمة: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. . .﴾. ثم يقول: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت». ثم وعظ الحاضرين من غير أن يثير قضية الخلافة. ويظهر أن هذا الخطاب قد ألقاه أبوبكر في المسجد النبوي أو حوله. وكان عمر بن الخطاب ممن لم يصدقوا موت الرسول حتى سمع خطاب أبي بكر وما ذكّر به من آيات حول موت الرسول والثبات على دينه. وأثناء ذلك، وقبل تجهيز جنازة الرسول (ص) كان الأنصار مجتمعين في سقيفة بني ساعدة. وجاء منهم إلى أبي بكر، عاصم بن عدي، أو معن بن عدي، وعُوَيْم بن ساعدة، يخبران أبا بكر بأن الأنصار

(١) انظر: الطبري: تاريخ ٢/١٩٩ ـ ٢٠٤ و٢٠٧ ـ ٢١٠؛ المقدسي: البدء والتاريخ ٥/٦٤؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/١٠؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٢٢٠؛ ابن خلدون: تاريخ ٢/٨٥٣.

يهمون بمبايعة سعد بن عبادة من كبار زعمائهم وهو حينئذ مريض ولا يخفي طموحه إلى الخلافة. وانتقل أبو بكر وعمر فوراً إلى سقيفة بني ساعدة، بينما لزم علي وطلحة والزبير بيت فاطمة. غير أن سعد بن عبادة وهو زعيم الخزرج لم يظهر الدعوة لنفسه مباشرة، بل تولاها عنه الحباب بن المنذر الذي اقترح تقسيم الخلافة بين الأنصار والمهاجرين، أي بترشيح خليفة عن كل فريق. وعندئذ خطب أبو بكر خطبته المعروفة التي أعلن فيها أسبقية المهاجرين إلى الإسلام وامتناع العرب عن الاعتراف بسلطة خلافية لا تنتمي إلى قريش. ثم رشح للخلافة عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح الذي شغل منصب أمين بيت المال في الحكومة النبوية مثلما سيشغله في عهد أبي بكر. فبادر عمر إلى مبايعة أبي بكر وهو يقول: ما كان أحد ليؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله[1] (ص).

وإذا كان الأنصاري حباب بن المنذر قد هدد قبل خطاب أبي بكر باستعمال القوة لتقسيم الخلافة بين الأنصار والمهاجرين، فإن المفاجأة الكبرى التي أنقذت الموقف بعد مبادرة عمر، ولربما سبقتها على بعض الروايات[2]، هي خطاب الزعيم الأوسي بشير بن سعد الذي قال فيه: «يا معشر الأنصار، إنا والله وإن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين الذي ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً. ألا إنّ محمداً (ص) من قريش، وقومه أولى به، وَآيْمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم».

---

(١) ابن عبد ربه: م.م. ص ١١.

(٢) ابن الأثير: م.س. ص ٢٢٣.

وهكذا راجع الأوسيون أنفسهم فخشوا هيمنة الخزرج في حالة ما إذا تولى السلطة أحدهم. وهذا ما جعلهم يبادرون إلى مبايعة أبي بكر، وبذلك أُنقذت الخلافة من بوادر العصبية القبلية الضيقة على الرغم من استئثار قريش بها لفترة طويلة. ذلك أن أبا بكر وعمر، ارتفعا كخليفتين عن هذه الروح البغيضة وسارا على نهج إسلامي وإنساني مثالي، ولربما لو صفا الأمر لعلي لسار في نفس الخط، ولقد سار فيه فعلاً بينما كانت الأحداث تهز من كيان الخلافة هزاً.

ومنذ الآن ستتخلى المدينة عن كل مطالبة خلافية مباشرة، بل إن الذين سيحاولون فيما بعد أن يستغلوا جانبها لصالحهم، هم بالذات، عناصر مكية من كبار المهاجرين. ولما كان سعد بن عبادة قد أيقن أن الأمر قد خرج من يد الأنصار نهائياً، فقد ترك المدينة مغاضباً بعد أن تعرض فيما قيل للاعتداء داخل التجمع الذي شهد أحداث بيعة أبي بكر، فانسحب إلى الشام. ويروي هشام الكلبي أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً يدعو سعداً إلى البيعة، وأنه فوض إليه قتله إن أبى. ويضيف هشام أن سعد بن عبادة رفض بيعة أبي بكر فرماه الرجل بسهم فقتله[1].

وبعد بيعة سقيفة بني ساعدة دعا عمر بن الخطاب إلى اجتماع عام بالمسجد النبوي[2] وخطب في الحاضرين يدعو إلى بيعة أبي بكر بيعة عامة. وهذه أول بادرة في التفريق بين البيعة الخاصة والعامة في الإسلام، وهي اشبه ما تكون بترشيح رؤساء الدول اليوم في مجلس تمثيلي، ثم بطريق استفتاء عام.

---

(١) ابن عبد ربه: م.م. ص ١٣.

(٢) المقدسي: م.م. ص ٦٦.

وتبرز شخصية عمر بن الخطاب كنصير بالغ الأهمية للوحدة الإسلامية ولشخص أبي بكر، منذ أحداث سقيفة بني ساعدة، وبحق كان عمر بن الخطاب، الرجل القوي في حكومة أبي بكر. وقد قام علي بن أبي طالب بدور مشابه في أيام عثمان، بينما فقد هو نفسه شخصية مناصرة مثل شخصية عمر بالنسبة لعهد أبي بكر.

وهكذا كان على أبي بكر أن يضمن بيعة الأمة بالمدينة أولاً، ثم في مجموع شبه جزيرة العرب، من طريق الولاة الذين تركهم الرسول (ص).

وتلكأ علي والعباس وطلحة والزبير وعدد من بني هاشم في البيعة رغبة في أن يصير الأمر لعلي وهو أقرب الناس إلى الرسول نسباً وقرابة وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام، ولكن ما لبثوا أن بايعوا أبا بكر، وإن تأخر علي عن البيعة مدة ستة أشهر فيما قيل. وفي بعض الروايات أن أبا بكر قال له: أَكَرِهْتَ إمارتي؟ فقال: لا، ولكني آليت أن لا أرتدي بعد موت رسول الله (ص) حتى أحفظ القرآن، فعليه حبست نفسي[1]. وإذا صحت هذه الرواية فتكون مجرد تملص ذكي من البيعة المعجلة. ومهما يكن من أمر فإن علياً ولا غيره من كبار الصحابة لم يتخذ موقفاً معادياً من أبي بكر، قد يؤدي إلى تكتلات مناهضة أو متعارضة.

وبعد توليته، قام أبو بكر خطيباً في المسجد النبوي يشرح باقتضاب وروعة بيان، مع قوة عزيمة تغلي إيماناً، خطته ونظرته إلى المسؤولية العليا التي أنيطت به. وقد أصبح خطاب التنصيب تقليداً معمولاً به بعده لدى الخلفاء والولاة. وخطبة تولية أبي بكر معروفة في

---

(١) العقد ٥/١٢.

أكثر من مصدر. وقد ألقاها يوم تجهيز دفن الرسول عليه السلام وبعد دفنه مباشرة يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة[١] للهجرة.

وإذا كان أبو بكر الصديق قد حظي بالخلافة المباشرة للرسول (ص) في غمرة الموقف السلبي الذي وقفه عدد من زعماء مكة وعلى رأسهم أبو سفيان، على الأقل لفترة محدودة[٢] فإنه الرجل الذي ارتبطت حياته الخاصة ونضاله المستميت، بحياة الرسول وكفاحه المثالي، مدة تناهز ثلاثاً وعشرين سنة من الإسلام، وفترة قد تتجاوزها قبل الإسلام، وهذا الشرف الفريد لم يحظ به أي صحابي آخر. فهو يَرْبُ النبي وأحد أقرب المعارف إليه في مهنة التجارة التي زاولها كلاهما قبل الإسلام. ولم يكن أبو بكر في الواقع إلا تاجراً في المجتمع القرشي الذي ينتمي إلى البورجوازية الصغيرة. ولكنه كان بإمكانه أن يعيش راضياً بثروته وتجارته بعيداً عن التضحية التي زج فيها نفسه والتي أدت به في النهاية إلى أن يترك تجارته وماله بمكة ليهاجر فقيراً إلى المدينة مع الرسول. وقد كان أبو بكر، الرجل الوحيد الذي أسلم على يد الرسول قبل أي رجل آخر، والذي لم يستفسر مطلقاً عن ماهية النُّبُوَّة المحمدية وأهدافها مثلما فعل الآخرون وكان من حقهم أن يفعلوا. ولذلك أطلق عليه رفيقه العظيم لقب الصدِّيق فلزمه حياً وميتاً، وسماه عبد الله وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة[٣].

---

(١) تحدثت المصادر السابق ذكرها، وغيرها عن أواخر أيام الرسول وموته ودفنه. راجع على الخصوص: ابن هشام: سيرة ٢/٢١٢ ـ ٢٣٦.

(٢) العقد ٥/٩ ـ ١٠؛ الكامل ٢/٢٢٤.

(٣) المقدسي: م.م. ص ٧٦.

ويوصف أبو بكر في الرواية الإسلامية، وفي غيبة أي رسم تصويري ـ وهو محرم في الإسلام لضرورة دينية مؤقتة، بأنه كان أبيض نحيف الجسم، خفيف العارضين، أجنأ، معروق الوجه، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع، ممحوض الفخذين، أقنى، يخضب بالحناء والكتم، جميلاً فارع القامة.

وهذه الصفات كافية لأن تقدم إلينا صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح عن شخصيته، بالإضافة إلى ممارساته ومواقفه التاريخية؛ فهو متزن الشخصية ذو ثقة بنفسه لا ينفعل إلا نادراً ولا يلجأ إلى الهجوم الشخصي ولا يستبد بآرائه ويحرص بصورة متناهية في الدقة على احترام تعاليم الرسول وسنته. وتتسم مواقفه السياسية بالحكمة وجودة الرأي وحسن الاستشارة، ويحرص على أن يقدم أحسن مثال عما يجب أن يكون عليه رئيس دولة شرفته الأمة بثقتها واتخذ من الإسلام دستوراً لها.

ولا جدال أن لشخصية أبي بكر وسيرته تأثيراً لا يمكن إغفاله، في خلفه ومساعده عمر، وإن كان لهذا الخلف جوانب غير قليلة من الشخصية المتميزة. وينبغي أن نلاحظ على سبيل المقارنة أن عثمان بن عفان لم يقم بأي دور يذكر في أحداث بيعة أبي بكر، على الرغم من حضوره دفن الرسول ونزوله إلى قبره. وهو على أي حال من أوائل المبايعين لأبي بكر.

توجيه جيش أسامة إلى فلسطين(١)

كان الرسول عليه السلام قد هيأ جيشاً لقتال الروم داخل فلسطين، وبالذات في المنطقة التي شهدت معركة مؤتة. وكان من تعليمات الرسول لهذا الجيش القيام بشن غارات على أرض البلقاء وإحراق مزارعها وسبي نسائها وذراريها. وكان الجيش يضم فئة من الأنصار والمهاجرين يقودهم شاب دون العشرين هو أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في مؤتة كما قتل عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب، وكلهم حمل راية القيادة في هذه الحملة. لكن جيش أسامة لم يتمكن من القيام بمهمته نظراً لوفاة الرسول أثناء استعداد الحملة للتحرك. وكان أول عمل عسكري باشره أبو بكر كخليفة، هو إعادة حشد جيش أسامة في مكان يدعى الجُرُف بعيداً عن المدينة بخمسة كيلومترات، باتجاه الشام. وقد تضايق الأنصار والمهاجرون من أن يقودهم شاب حدث، وعبروا عن رغبتهم في استبداله بقائد محنك، وكلفوا عمر بن الخطاب بإبلاغ رغبتهم هذه إلى الخليفة. غير أن أبا بكر رفض استبداله، وكان من رأي الجماعة أن تؤخر المواجهة ضد البيزنطيين حتى لا يفاجأ المسلمون في المدينة بهجوم العناصر المرتدة. وكل ما فعل أبو بكر أن عرض على أسامة استبقاء عمر بالمدينة، وقال: لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله، ولا أردُّ قضاءً قضى به رسول الله. وكان هذا أول ما ظهر من صرامة أبي بكر، حيث تجب الصرامة؛ لأنه أراد أن يظهر أن الإسلام يحتفظ بقوته النوعية والعددية حتى مع الصدمة التي حلت بموت الرسول. ثم هناك

---

(١) الطبري: تاريخ ٢/٢١١ ـ ٢١٣؛ ابن هشام: ٢١٢/٤؛ المقدسي: البدء والتاريخ ١٥٢/٥؛ ابن الأثير: الكامل ٢٢٦/٢؛ ابن خلدون: تاريخ ٨٥٦/٢؛ دحلان: الفتوحات الاسلامية ٣/١ ـ ٥.

تعليمات عليا من القائد الأعلى السابق، فيجب أن تنفذ، خصوصاً وهو صاحب رسالة ودعوة شاملة. وشيع أبو بكر أسامة وهو ماش، ورفض أن يركب أو أن ينزل أسامة عن فرسه وقال: ما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له. وأوصى أبو بكر الجيش بتجنب الغدر والتمثيل بالجثث وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، كما أوصاهم بعدم التعرض للرهبان المسالمين في معابدهم(١). ولم تكن هذه الحملة تتجاوز ثلاثة آلاف محارب، وقامت بغارات خاطفة أُتيح فيها لأسامة أن يقتص من قتلة أبيه. واستمرت غيبتها عن العاصمة حوالي شهر ونصف بعد وفاة الرسول (ص). وكان لهذه الحملة تأثير نفساني إيجابي على العرب، بالرغم من أحداث الردة الخطيرة. ومهما يكن من أمر، فإن قلة عدد هذا الجيش تنبىء عن التراجع البالغ الخطورة، والذي وقع في صفوف الإسلام بموت الرسول. أما أسامة نفسه، فسيلتحق بخالد بن الوليد في حروب الردة، وسيقوم في عهد أبي بكر بدور طلائعي بعد عودته من فلسطين.

وقد التزم أبو بكر ومستشاروه جانب الحذر والحيطة خلال الفترة التي استغرقتها حملة أسامة ورجوعه، فلم يغامر بحشد احتياطه الهزيل لمواجهة القبائل التي ارتدت في كل مكان عبر جزيرة العرب. والحق أن الاضطرابات لم تبدأ بموت الرسول عليه السلام، بل بدأت في أخريات حياته، وكانت أسبابها الظاهرة ما كان من ادعاء بعض الكهان وأشباههم للنبوّة. ولكن الأسباب الخفية كانت أهم من ذلك كما سيتضح.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٢٧.

فشت ظاهرة التنبؤ في أواخر حياة الرسول كما مر، ثم استفحلت بموته مباشرة. والذين تنبأوا في العهد النبوي، هم: مسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، والأسود العنسي. وتبع هؤلاء في عهد أبي بكر كل من سجاح بنت الحارث، ومالك بن نويرة.

١ ـ ظهر مسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة التي عدها بعضهم[١] داخلة في منطقة نجد، واسمه مسيلمة بن حبيب، وكان من وجوه قومه بني حنيفة. وكان فيما قيل يطوف بالأسواق ويتعلم فنون الشعوذة وأشياء من التنجيم ثم يموه على قومه بما تعلمه فيرون له بذلك خوارق لبساطة عقولهم. فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، قدم وفد بني حنيفة وبرفقتهم مسيلمة على الرسول (ص) فدخلوا في الإسلام، وكان من شدة ثقة مسيلمة بنفسه وجرأته أن طلب من النبي أن يجعل له الأمر بعده، وكان في يد النبي عسيب نخل، فرد عليه: لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك. ثم أصحب النبي وفد بني حنيفة رجلاً اسمه الرجال بن عنفوة لتفقيه بني حنيفة في شؤون الدين. ولكن مسيلمة ما لبث أن نادى بنفسه نبياً وأحدث قرآناً تافهاً، وتابعه ابن عنفوة هذا حتى كان أخطر من مسيلمة في دعايته. وكان بنو حنيفة في عدد كبير لا يقل عن أربعين ألفاً[٢]. وقد تأخر قتال مسيلمة في عهد أبي بكر لهذا السبب، ولانشغال الجيش بحروب الردة. وقد لقي المسلمون عناء شديداً من حرب مسيلمة. وأدار عمليات الزحف ضد بني حنيفة، خالد بن الوليد بمساعدة عدد من

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، لفظ «اليمامة».

(٢) الكامل ٢/٢٤٤.

قادة الأنصار والمهاجرين. وتكشفت المعارك عن مقتل أعداد كبيرة من الجانبين. وتقدر الرواية الإسلامية قتلى بني حنيفة بما لا يقل عن عشرين ألفاً، وهو عدد لا يمكن تصوره باعتبار أن عدد المحاربين المسلمين لم يكن يتجاوز بضعة آلاف والأسلحة متكافئة. غير أن الذي لا يمكن دحضه أن الفريق الإسلامي كان يعتبر مسألة القضاء على مسيلمة وأنصاره قضية مصير بالنسبة للإسلام المهدد، ولذلك احتمل الجيش الآسلامي تضحيات بشرية تقدر بعدة مئات بينها العديد من القراء الذين أسهموا في هذه المعارك، وكان مقتلهم باعثاً إلى قيام أبي بكر بعملية جمع القرآن. وتعطي الرواية الإسلام تفاصيل وافية عن هذه المواجهة المصيرية لا غناء في تكرارها هنا. وكان من التعاليم التي جاء بها مسيلمة أن حط عن أتباعه الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا. وتعتبر ثورة مسيلمة الانحرافية أول بادرة تمهيدية لارتداد العرب. وقد حصلت في حياة الرسول نفسه. وعلى كل، فإن إسلام بني حنيفة لم يتم عملياً إلا بعد وفاة الرسول (ص) ومعارك اليمامة التي لم تستمر في الواقع سوى ما دون اليوم، وشملت الميدان المكشوف وجملة من الحصون التي التجأ إليها أنصار مسيلمة. وكان مقتل مسيلمة على يد وحشي الذي سبق أن قتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد، وكان وحشي حينذاك مشركاً. ووقعت أحداث اليمامة هذه على الأرجح، في أواخر السنة الحادية عشرة[1]. وتجاوز قتلى المسلمين فيها ألفاً ومائتين. وكان مسيلمة قد هزم المسلمين في لقاء أولي بقيادة عكرمة بن أبي جهل، قبل أن يتولى الحملة ضد بني حنيفة خالد بن الوليد.

---

(١) انظر بشأن مسيلمة: الطبري: تاريخ ٣/٢٤٤؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٢٤٣؛ ابن خلدون: تاريخ ٢/٨٧٦؛ دحلان: الفتوحات الإسلامية ١/١٣؛ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، مادة «حنيفة»؛ ياقوت: معجم البلدان، مادة «اليمامة».

٢ ـ الأسـود العنسي واسمـه عيهلة بن كعب. والعنسي (بسكون النون) نسبة إلى عنس من بطون مَذْحج (بفتح الميم وكسر الحاء) وهي من القبائل الكبرى باليمن. وكان كاهناً يعتم بخمار رقيق ويركب حماراً اشتهر به. وكثيراً ما يظهر قادة ثورة أو حركة مناهضة في الإسلام بشكل مماثل أي بحمار يركبونه تميزاً. وتنبأ الأسود في السنة العاشرة، وزعم أنه يتلقى الوحي من ملكين اسمهما سحيق وشقيق، وكان لا يغتسل كما كان لا يصلي ويتعاطى الخمـر ويحلها لأتبـاعه. ويبدو أن الأسود هذا تمكن في وقت قصير من بسط نفوذه على مجموع اليمن وسائر المناطق الواقعة على المحيط الهنـدي من شبه جـزيرة العرب. وكل ذلك حدث في الشهور الأخيرة من حياة الرسول (ص). ووجه النبي تعليماته إلى حضرموت (التي تزوج منها معاذ بن جبل) لكي يتولى الولاة الموجودون بها محاربة الأسود أو اغتياله. وهكذا تولى فيروز الديلمي بن باذان (العامل الفارسي السابق الذي أسلم على يد الرسول واحتفظ إلى موته بحكم اليمن) تدبير مؤامرة مع زوجة باذان التي اضحت زوجاً للأسود بعد موت زوجها السابق، لقتل العنسي، ونجحت المؤامرة التي ترويها المصادر في شكل مثير. وعندما ورد البشير على المدينة بنبأ تصفية الأسود العنسي كان الرسول قد التحق بجوار الله بعد أن أخبر هو نفسه بمقتل الأسود. وكانت هذه أول بشرى فيما قيل، يتلقاها أبو بكر الخليفة[1]. وكانت كندة أيضاً من القبائل التي تابعت الأسود بسبب خطأ ارتكبه عـامل الصـدقة في وسم إحـدى الدواب من غير مبرر. وهكذا يكون الجزء الأكبر من شبه جـزيرة

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/٢٢٠؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٢٢٧، ٢٣٠؛ المقدسي: البدء والتاريخ ٥/١٥٤ ـ ١٥٥؛ ابن منظور: لسان العرب، مادة «ذحج»؛ ابن خلدون: تاريخ ٢/٨٦٠ ـ ٨٦٢؛ كحالة: معجم قبائل العرب، مادة «عنس» و«مذحج».

العرب قد أعلن تملصه من الإسلام بشكل أو بآخر منذ أواخر عهد الرسول، وابتداء من السنة التاسعة.

٣ ــ طليحة بن خويلد الأسدي[1] نسبة إلى قبيلة أسد (بن خزيمة) الضاربة شمال شرقي شبه جزيرة العرب. وهي من القبائل ذات البأس في الحروب مثل حنيفة ومذحج وغيرها. وكان طليحة كاهناً، فتنبأ في أواخر أيام الرسول وادعى أن جبريل ينزل عليه بالوحي، وفي رواية ذا النون. وبعد أن تمكن ضرار بن الأزور عامل الرسول من إخضاع أغلبية بني أسد، عجز عن قتل طليحة. واثناء ذلك توفي الرسول فاستفحل أمر طليحة واستعاد أنصاره. وشمل حزبه طيىء وهوازن وغطفان فضلاً عن أسد. ثم عرض على أبي بكر أن يرفع الزكاة عن أنصاره فرفض، ووجه إليه خالد بن الوليد في كتيبة فيها عدي بن حاتم الذي سرعان ما ضمن حياد قومه ثم عودتهم إلى الصف الإسلامي مؤمنين ومحاربين. وبعد مواجهة أولية ضد طلائع أنصار طليحة قتل حبال أخوه كما قتل من الجانب الإسلامي عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم الأنصاري بتدبير من طليحة. واخيراً تم اللقاء العام ببزاخة (بضم الباء) وهي ماء لبني أسد، وكان بعض أنصار طليحة يحثونه على الاستنجاد بجبريل، فلما تبين ضعفه انسحب مع امرأته فاراً إلى الشام إلى أن عاد إلى الإسلام بعد وفاة أبي بكر، وبايع عمر بن الخطاب ثم أسهم في حروب الجيش الإسلامي ضد الفرس إلى أن استشهد في معركة نهاوند سنة ١٨. وسرعان ما عادت أسد إلى الإسلام بعد فرار طليحة، ولم يُسْبَ من نسائهم وذراريهم

(١) الطبري: تاريخ ٣/٢٢٧؛ ابن الأثير: م.م. ص ٢٣٩؛ المقدسي. م.م. ص ١٥٧؛ ابن خلدون: م.م. ص ٨٦٩؛ ياقوت: معجم البلدان، مادة «بزاخة»؛ دحلان: م.م. ص ٨؛ كحالة: م.م. مادة «أسد».

أحد، وقد كانوا لاجئين إلى حصون بني أسد خلال المواجهة التي كانت حول بزاخة في السنة ١١هـ. وقد شملت منطقة تأثير طليحة أيام تَنَبُّئه جزءاً كبيراً من الشمال الشرقي لجزيرة العرب.

٤ ــ سجاج بنت الحارث التميمية[١]. كانت مضارب تميم بجوار قبائل غطفان وقرب منطقة البحرين. وقد وفد منهم على النبي في السنة التاسعة، وبينهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب، وكلهم من زعماء تميم التي تنتمي إليها سجاح. وكان أخوالها من تغلب. وكل من بني تميم وتغلب من أهم القبائل وأشدها شوكة. وكانت سجاح على دين النصرانية، بل قيل كانت لها قدم راسخة في اللاهوت المسيحي تنبأت بعد وفاة الرسول وأحدثت أسجاعاً توهم أتباعها بأنها من الوحي. واستغلت فرصة ارتداد من ارتد من تميم. كما ناصرها قسم من بني تغلب، واستعدت لغزو المدينة. وكان مسيلمة الكذاب في هذه الأثناء قد برز كمتنبىء في بني حنيفة، فتحالفا وتزوجا حيث تصبغ الرواية العربية على زواجهما روحاً أدبية طريفة. وكانت سجاح تهم بغزو اليمامة بعد أن صدها مستشاروها عن غزو المدينة، فتحول غزو اليمامة إلى زواج من متنبئها وبالتالي إلى غزو عاطفي لمنافسها. كذلك تضيف نفس القصة أن مسيلمة أصدقها ترك صلاتي الفجر والعشاء، وأذنت هي بدورها للمرأة في زوجين مقابل أربع نساء للرجل[١]! وصالحها مسيلمة على نصف غلات اليمامة.

٥ ــ كذلك ادعاها مالك بن نويرة، وهو عامل صدقة سابق عيّنه الرسول. وقام بجمع الصدقات من بني تميم، ثم توفي الرسول فرد

---

(١) المقدسي: م.م. ص ١٦٥.

مالك إلى تميم ما جمع منهم. وبعد انصراف سجاح بما حصلت عليه من أموال اليمامة توجهت إلى الجزيرة عند أخوالها من تغلب، ثم لا يعرف مصيرها بعد ذلك، ويقال إنّها عادت إلى الإسلام وتأخرت إلى عهد معاوية. وبمجرد انصرافها من اليمامة هاجمت قوات خالد بن الوليد جيوش مسيلمة. أما مالك بن نويرة الذي ندم على تصرفه فقد أعلن توبته ولكن خالد بن الوليد عجل بقتله حيث تضطرب الروايات بشأن سبب إعدامه، فقيل إن خالداً طمع في زوجته التي كانت فائقة الجمال، كما قيل إن خالداً لاحظه يتحدث باستمرار عن الرسول بقوله: صاحبكم، ولا يسميه أو يعطيه صفة الرسول، وقيل أيضاً إن سوء تأويل في بعض تعليمات خالد بسبب اختلاف في اللهجة أدى إلى إعدام مالك بن نويرة. وقد أدى هذا التصرف إلى استياء عمر بن الخطاب الذي ألح على أبي بكر في الاقتصاص من خالد ثم في عزله، فأجابه بحزم: ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين، فارفع لسانك عن خالد. وقد اعتذر خالد عن تصرفه إزاء مالك، وقبل الخليفة عذره، وتزوج خالد زوجة مالك، وهذا الذي أثار شك بعض المؤرخين في تعجل قتل مالك(١).

والحق أن ظهور حركة أدعياء التنبؤ زعزع من كيان المجتمع الإسلامي منذ أن ظهر أول هؤلاء الأدعياء وهو مسيلمة الكذاب في السنة التاسعة. وقد شغل الرسول بمواجهة الجهات الخاضعة للحكم البيزنطي في تخوم شبه الجزيرة كما شغل في نفس الوقت بأحداث اليمن واستقبال الوفود الداخلة في الإسلام. ونلاحظ أن ثلاثة من المتنبئين ظهروا في مناطق قريبة من المدينة شمالاً وشرقاً. ولهذه المناطق تعامل

---

(١) المقدسي: ٥/١٥٩ ـ ١٦٠.

اقتصادي واجتماعي مع الفرس والروم ولا سيما مع العرب الخاضعين لسلطتهم المباشرة. فهوازن وأسد وغطفان مثلاً، كانت تعادي النبي ولم تدخل في الإسلام إلا بعد فتح مكة، وكنا نجدها باستمرار في صف قريش قبل إسلامها، وسجاح تنتصر بتغلب، وهم نصارى. ولا شك أن بقاء قريش على الإسلام بعد وفاة الرسول جعل من هؤلاء المتنبئين بديلا لقيادة الصراع ضد الاسلام. أما ثورة مذحج التي قادها الأسود العنسي فهي أقرب إلى بعث جديد للملكية الحميرية منها إلى مجرد حركة عقائدية. واليمن عزَّ عليها أن تطأطىء رأسها لقريش، وهو ما لاحظناه في موقف الأنصار أيضاً بعد وفاة الرسول وهم يمنيو الأصل. وأخيراً فهناك سبب بالغ الأهمية لا للانتصار العابر لحركة المتنبئين فحسب، بل ولاندلاع الردة بصفة عامة والتي رافقت في الغالب حركة التنبّؤ بصفة مباشرة. وهذا السبب هو استثقال قبائل البدو على الخصوص للصلاة، وجل القبائل للزكاة أيضاً. ومن الواضح أن زعماء القبائل وملاك الدواب الوفيرة هم الذين تضايقوا قبل غيرهم من فريضة الزكاة على ضآلة مبالغها، فدفعوا بالجماهير الفقيرة إلى تلبية نداء المتنبئين والمتمردين وهماً منهم أنهم يحفظون بذلك مصالحهم.

ومهما يكن من شيء، فإن وفاة الرسول عليه السلام عقبها ارتداد يكاد يشمل جميع العرب حتى لم يبق من المراكز التي احتفظت بإسلامها جملة سوى مكة ومنطقة ثقيف. ويبدو أن إخراج الأنصار من الخلافة شجع معظمهم على الارتداد أيضاً، أو الوقوف موقف التربص، بالرغم من مبايعتهم أبا بكر. أما قريش، فتتفق الروايات على أن الفضل في ثباتها على الإسلام يرجع إلى سهيل بن عمرو العامري الذي خطب في قريش خطبة شبيهة بخطبة أبي بكر في المدينة. ومما قال فيها: يا أهل مكة، لا تكونوا آخر من أسلم، وأول من أرتد، وتلا آيات من القرآن، وذكرهم بحديث نبوي يقول: «قولوا

معي لا إله إلا الله تَدِنْ لكم العرب، وتؤدِ إليكم العجم الجزية؛ والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله» فمن بين مستهزىء ومصدق، فكان ما رأيتم، فوالله ليكوننّ الباقي.

وفي ثقيف ألقى ابن العاص خطبة مماثلة، فكان لها ما كان لخطبة سهيل من وقع إيجابي. وقد تنبأ الرسول بموقف سهيل هذا في مكة.

أما ظروف حرب الردة، فمنشؤها امتناع القسم الأكبر من العرب، من أداء الزكاة وقد قبلوا الصلاة. فقرر أبو بكر قتال المرتدين، وكان رده على من قال له: كيف تقاتل الناس وهم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ هو قوله: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله (ص) لقاتلتهم عليه. وجادله في المسألة عمر وأبو عبيدة وآخرون، وقال له عمر: تألَّف الناس، وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش. فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك! أجبَّار في الجاهلية وخَوَّار في الإسلام؟! قد انقطع الوحي، وتم الدين. أينقص وأنا حي؟! والله لأجاهدنهم مهما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالا.

ويبدو أن أبا بكر اعتبر قضية الزكاة مصيرية وأن امتناع العرب عن أدائها والتسامح إزاءهم بشأنها سيفتح باباً للاستخفاف بالمسؤولية القاعدية ومسؤولية الدولة، كما سيضعف من كيان المجتمع الذي بني على التضامن والعدل الاجتماعي، وبالتالي سيحطم منذ البداية ركناً أساسياً من الإسلام قد يؤدي إلى هدم سائر الأركان. على أن جيوباً إسلامية ضعيفة العدد بقيت قائمة أو مشردة وسط عدد من القبائل المرتدة. ولذلك قرر أبو بكر أن يستعين بهذه الجيوب على ضرب المناطق المرتدة. وانتظر أبو بكر رجوع أسامة بن زيد من غاراته

بالبلقاء فخلفه على المدينة ليستريح بجيشه ويكون درءاً لها. وكانت مجموعات من عبس وذبيان قد نزلت بالأبرق شمال المدينة[1]، ومجموعات أخرى من القبيلتين وهما تجاوران المدينة شمالاً وشرقاً، قد نزلت مع طائفة من أسد وكنانة بذي القصة الواقعة في طريق الأبرق (أبرق الربذة) على نحو ٤٠ كلم من المدينة[2]. وبعد استراحة جيش أسامة خرج أبو بكر باتجاه ذي القصة حيث كانت هذه الجموع تهم بالزحف على المدينة للقضاء على الصحابة والإسلام. وما كاد أبو بكر يغادر المدينة حتى كرت فئات من هؤلاء المرتدين على المدينة لمهاجمتها وكان أبو بكر قد اتخذ الاحتياطات لمواجهتها، ثم هاجم الجموع المذكورة في ذي القصة بعد إنقاذ المدينة، وأحرز المسلمون هناك انتصاراً كان له وقع معنوي بالغ في الظروف الصعبة التي يجتازونها. وفي ذي القصة بالذات، تولى أبو بكر مهمة توزيع الجيوش والقيادات التي ستنبث في شبه الجزيرة لمحاربة المرتدين في وقت واحد حتى لا تترك لهم فرصة التضامن وتفاجئهم في وقت أمنوا جانب الزحف الإسلامي، وهكذا عقد أحد عشر لواءً لإحدى عشرة فرقة:

١ ــ خالد بن الوليد لمواجهة طليحة المتنبىء في أسد، ومالك بن نويرة في تميم.

٢ ــ عكرمة بن أبي جهل لمواجهة بني حنيفة ومتنبئهم مسيلمة.

٣ ــ شرحبيل بن حسنة لمساعدة عكرمة ثم للتصدي لقضاعة في الشمال الغربي.

---

(١) أبرق الربذة (بفتح الراءين) مكان تابع لأرض ذبيان وقد حوله أبو بكر مربضاً للخيل (ياقوت، مادة «أبرق الربذة».

(٢) انظر مادة «قصة» في معجم ياقوت.

٤ ــ المهاجر بن أبي أمية لمواجهة الأسود العنسي باليمن ومساعدة بعض العمال هناك على ان يتوجه بعد ذلك إلى كندة حضرموت.

٥ ــ خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

٦ ــ عمرو بن العاص إلى قضاعة مع الاستعانة بشرحبيل.

٧ ــ حذيفة بن محصن لدبا (بفتح الدال) وهي سوق بعمان (بضم العين)[1]. ويظهر أن عكرمة قد كلف بمهمة مماثلة في نفس المنطقة وسيعينه أبو بكر والياً عليها.

٨ ــ عرفجة بن هرثمة إلى مهرة، وهي بين حضرموت وعمان.

٩ ــ معن بن حاجز (أو طريفة بن حاجز) إلى سليم وهوازن وهم يجاورون المدينة شرقاً وجنوباً.

١٠ ــ سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

١١ ــ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

وبتتبع هذه السلسلة من التعيينات والمناطق يتضح أنه تم عملياً، تطويق جزيرة العرب بالجيوش من جميع أطرافها. ومع قلة أعداد الجند، فإن الجيوب الإسلامية الباقية ساندتها في عين المكان. ويكفي أن تتسامع القبائل بانتصارات أولية للمسلمين لتحدث الصدمة النفسية مفعولها في الآخرين الذين ليست لهم عقيدة تجابه عقيدة الإسلام، ولا قوة منظمة كتنظيمه.

---

(١) ن.م. مادة «دباء».

وزود أبو بكر كل القواد المذكورين بعهد من نص واحد يتضمن حدود مهمتهم وما على الأطراف المعادية من التزامات[1]، كما بعث بكتاب إلى جماهير العرب مسلمين وغيرهم، يذكرهم بمهمة القواد المذكورين[2].

وقد وفق خالد في إخضاع بني أسد وأهل اليمامة حيث كان عكرمة هو الذي كلف ببني حيفة، وأخضع المرتدين من تميم وقتل مالك بن نويرة، بينما كلف عكرمة بالالتحاق بحذيفة وهرثمة في عمان ومهرة على أن يتولى التنسيق بينهما[3]. وكان القضاء على حركة الأسود من عمل فيروز الديلمي عامل صنعاء. أما المهاجر فتولى قتال المرتدين بين نجران وأقصى اليمن. ثم توجه إلى حضرموت لقتال كندة التي توجه إليها عكرمة أيضاً. وبتعاون الجيشين اللذين يقودهما المهاجر وعكرمة تمت هزيمة كندة ورجوعها إلى الإسلام[4].

وأدى العلاء الحضرمي مهمته في إرجاع البحرين إلى الإسلام بعد جهود مضنية[5]، بينما تولى خالد بن الوليد تعقب الثوار من هوازن وغطفان وسليم وطيىء وأسد إلى أن قضى على مقاومتهم[6]. وكذلك قام سائر القواد بما عهد إليهم من مهمة محاربة المرتدين واستخلاص الزكاة حتى تم إخضاع سائر شبه الجزيرة مع نهاية السنة

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ٨٦٧/١.
(٢) ن.م. ص ٨٦٨.
(٣) ن.م. ص ٨٨٦.
(٤) الكامل ٢٥٩/٢.
(٥) ن.م. ص ٢٥٢.
(٦) ابن خلدون: ٨٧٢/٢.

الحادية عشرة، أي بعد صراع استمر حوالي عشرة أشهر. وبذلك تكون سياسة أبي بكر القائمة على الضرب السريع واستغلال الجيوب الموالية وتحقيق التكاثف بين الجيوش في منتهى الفعالية والحكمة، خصوصاً وأن هناك أجهزة إدارية وسياسية كانت قائمة في الأقاليم من أيام الرسول، ولو استمع أبو بكر إلى رأي مستشاريه في التريث والتربص لأتاح للأعداء فرصة الانقضاض الساحق على ما بقي من معاقل الإسلام.

الفصل الثاني
مواجهة الفرس وحلفائهم بالعراق
ومواجهة البيزنطيين بالشام

مواجهة الفرس

لم تكن الحالة في الإمبراطورية الفارسية بأحسن منها في بلاد العرب، وإن كانت مشكلات المجتمعين مختلفة. ذلك أن الساسانيين بعد أن ردهم هرقل على أعقابهم من مصر، ووقف على أبواب عاصمتهم المدائن حيث تم قتل كسرى الثاني بيد ابنه قبّاذ بعد سنوات قليلة من الهجرة إلى المدينة[1]، بدأوا يشهدون أحداثاً دامية داخل الدولة والعرش إلى حين بدأ الزحف الإسلامي على أطراف الإمبراطورية. وكمظهر للانهيار السياسي الذي وصل إليه الساسانيون قبل التدخل الإسلامي، يكفي أن يشار هنا إلى أن عشرة ملوك تعاقبوا على الحكم في ظرف **٢٣** عاماً تقريباً منذ البعثة النبوية، وقد قتلوا كلهم ما عدا واحداً لقي مصرعه في طاعون جارف[2]، وشارك في تردي الأوضاع وحبك المؤامرات رجال الدين والنبلاء وكبار موظفي البلاط

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٠٧.

(٢) ابن خلدون: م.م. ص ٣٦٧ ــ ٣٧٠.

وبعض أفراد الأسرة الساسانية. وفي الوقت الذي تولى فيه يزدجرد الثالث آخر الساسانيين (٦٣٢ ـ ٦٥١م) في أواخر أيام الرسول (ص) كانت الأوضاع كلها تنذر بنهاية الحكم الساساني. وكل ذلك إلى جانب التمزق الاجتماعي الناشىء عن وجود مؤثرات ونزعات دينية أو مذهبية بينها ما يحبذ الانحلال كالمذهب المزدكي، وهناك النصرانية والمجوسية والزرادشية وغيرها مما لا يسمح بتناسق عقائدي. وحقاً إن الأوضاع الداخلية كانت تسير لصالح العرب، ولكنهم سيلاقون على أية حال مقاومة طويلة الأمد تناهز عشرين سنة تنتهي بمقتل يزدجرد ودخول بقايا الإمبراطورية الفارسية في الحكم الإسلامي. لكن الحضارة والمؤثرات الساسانية، ستقدم للشعب العربي أجمل هدية يقدمها شعب مغلوب إلى شعب غالب. وستستفيد شعوب الإمبراطورية الساسانية السابقة بدورها من مؤثرات الإسلام وعبقريته الحضارية.

ويظهر أن تفكير العرب في فتح العراق كمنطلق لفتح باقي الإمبراطورية الفارسية يرجع إضافة إلى الظروف الداخلية لهذه الإمبراطورية، إلى ما يلي:

١ ـ وجود أغلبية من العنصر العربي بالمنطقة بدأت تستثقل الحكم الساساني حتى إن عرب العراق كانوا يعانون من قهر القائد هرمز ويكرهونه[1].

٢ ـ تمكين الخزينة الإسلامية من موارد جديدة بالإضافة إلى استغلال الحماس الديني الذي استعاده الصف الإسلامي على إثر انتصارات المسلمين في حروب الردة، وبالتالي فإن تعزيز الجيش الإسلامي بالمزيد من العناصر التي رجعت إلى الإسلام ثم قيامه

(١) ابن خلدون: تاريخ ٢/٨٨٨.

بعمليات الجهاد في العراق سيمكنه من غنائم تزيد من تحمسه لتحرير العراق وغزو سائر الإمبراطورية الفارسية، وبالتالي فإن في كل هذا كسباً للإسلام مادياً ومعنوياً.

٣ ـ وجود قوات محاربة باليمامة بقيادة عسكري ذي كفاءة عليا هو خالد بن الوليد الذي وفق ايما توفيق في ردع حركة الردة، وكان قريباً من مشارف العراق.

وهكذا فإن طلائع الجيش الإسلامي تحركت مباشرة من اليمامة. وقيل إن خالد بن الوليد انتقل إلى المدينة، ومن هناك كلف بنقل الحرب إلى العراق، وكان ذلك في أول شهر من السنة ١٢ للهجرة[1]. على أن هذه الحملة سبقت بغارات تولاها المثنى بن حارثة الشيباني برغبة منه وبإذن من الخليفة، ثم أمره أبو بكر أن ينضم بأنصاره إلى خالد بن الوليد وكتب إلى زعماء آخرين من التخوم الشمالية بنفس الغرض فتكاملت أعدادهم ثمانية آلاف فارس ومع خالد عشرة آلاف فارس. وكان المثنى في مقدمة الجيش واحتفظ خالد بالقوى الاحتياطية، ثم اتجهوا عبر منطقة الكويت الحالية باتجاه الأبلة قرب البصرة. غير أن الروايات تختلف بعد ذلك حول المراكز التي مر بها[2] وواجهته بالمقاومة أو بطلب الصلح. وعلى كل، فقد كانت وجهته هي الحيرة التي كانت عاصمة اللخميين التابعين للفرس. وتواعد خالد مع المثنى ومع عدي بن حاتم الذي كان يقود كتيبة أخرى على اللقاء في الحفير. وأثناء ذلك سقطت بضعة مراكز في أيدي المسلمين: بانقيا

---

(١) ابن الأثير:الكامل ٢٦١/٢؛ الطبري: ٢/٤ ـ ٣.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣٧؛ ابن الأثير: ٢٦١/٢؛ ابن خلدون: ٨٨٧/٢.

وهي على ضفة الفرات، وباروسيها وأليس (بضم ثم بفتح اللام المشدّدة) على الفرات والتي قال عنها ياقوت إنها في أول أرض العراق من ناحية البادية[1]، والأبلة (بضم الهمزة والباء وفتح اللام المشدّدة) وهي من المراكز الغنية اقتصادياً قرب البصرة. وقد تم فتح هذه المراكز بيد قواد تابعين لخالد، وكان الفتح صلحاً على مبالغ معينة[2]. وكان الإمبراطور أردشير يتلقى أنباء الزحف العربي، والحفير يومئذ مركز عسكري بالغ الأهمية يراقب تحركات العرب جنوبي العراق، ولذلك قرر مواجهة الجيش الإسلامي بجيش قوي بقيادة هرمز الذي كان يتولى في نفس الوقت قيادة الأسطول الفارسي في الخليج والقوات البرية على الحدود الجنوبية. وقد اقترن الجند الفارسي بالسلاسل تجنباً للفرار. ووقعت مبارزة بين خالد وهرمز أدت إلى مقتل هذا الأخير واستيلاء خالد على سلبه. وسميت الوقعة بذات السلاسل. ولذلك كانت الخسائر البشرية كثيرة في صفوف الفرس الذين تعقبت فرق من المسلمين فلولهم، وحصل هؤلاء على غنائم هامة حيث أرسلت أخماسها إلى الخليفة. وكانت المواجهة حتى الآن مقصورة على الجيش، لأن المسلمين وجهت إليهم تعليمات خلافية بعدم التعرض للفلاحين[3] الذين أذعنوا للجزية حفاظاً على أراضيهم. وتتابعت الفتوح والمعارك بعد ذات السلاسل:

١ ـ وقعة الثني (بتشديد الياء) وهو كل نهر عند العرب. وسببها تجمع إمدادات للفرس وجموع من عرب تغلب وبني بجير بمكان شرقي

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، مادة «أليس».

(٢) انظر: البلاذري: م.م. ؛ وقيل إن الأبلة لم تفتح في هذه المعارك، بل تأخر فتحها إلى عهد عمر.

(٣) ابن الأثير: ٢/٢٦٣ ؛ الطبري: ٤/٧.

الرصافة يدعى بالثني[1]. وهاجمهم الجيش الإسلامي بقيادة خالد، فقتل منهم أعداداً عظيمة قيل بلغت ثلاثين ألفاً وسبى أسرهم، وكان بينهم أبو الحسن البصري الذي سيصبح له كبير شأن في عالم الفكر.

٢ ــ وقعة الولجة (بفتح اللام) وهي مركز بضواحي الحيرة تجمعت فيه إمدادات من الفرس وجموع من العرب؛ وبعد قتال عنيف بالمكان بدأت جموع الفرس تنسحب، فوجدت كميناً نصب في كل من الجهتين اللتين يمكن الانسحاب منهما. وأفلت القائد زغار الفارسي ولكنه مات عطشاً في البادية. كذلك سبيت ذراري المقاتلة، وصولح الفلاحون على الجزية بعد ما تكبده الفرس من خسائر.

٣ ــ وقعة أُليس على الفرات، وقد سبقت الإشارة إلى افتتاح أليس صلحاً. وسببها أن نصارى العرب من بكر والذين وقع القتل فيهم خلال وقعة الولجة استنجدوا بالفرس للأخذ بالثأر، ووضعوا أنفسهم رهن إشارة القائد الفارسي جاذويه جابان في انتظار إمدادات من أردشير الذي كان مريضاً فلم يمدهم بشيء. فهاجمهم خالد حول نهر الفرات وكانوا يستعدون لتناول طعامهم فأصاب منهم حتى بلغت قتلاهم آلافاً ترفعها الرواية الإسلامية إلى سبعين ألفاً[2]، وجرت دماؤهم غزيرة فسمي المكان بنهر الدم، وغنم المسلمون غنائم عظيمة. ثم وجه خالد بخبر الفتح وبالأخماس إلى أبي بكر الذي قال عندئذ: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد.

٤ ــ فتح الحيرة. بعد أن أتم خالد تصفية المقاومة بأليس، خرب

(١) ياقوت: مادة «الثني».
(٢) الكامل ٢/٢٦٥؛ ابن خلدون: ٢/٨٩٠.

هذا المركز واستولى على أموال سكانه، ووضعها مع الجند في سفن باتجاه الحيرة مروراً بأمغيشيا التي حصلوا فيها على أموال عظيمة. وقام مرزبان الحيرة بقطع الماء عن السفن حتى وقفت على الأرض الجافة، بينما حشد الفرس جيشهم عند الغَرِيَّيْن، وهما بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة[1] لهما قصة أدبية معروفة. ثم استخدم خالد الخيل لمواجهة المقاومة، وبدأ افتتاح ضواحي الحيرة حصناً حصناً وداراً داراً إلى أن أذعن حكامها العرب بقيادة إياس بن قبيصة وحماتهم الفرس لطلب الصلح الذي تم في ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة. وقد أعيد افتتاح الحيرة مرتين أخريين بعد وفاة أبي بكر[2]. أما مبلغ الجزية فقدر بمائة أو مائتين وتسعين ألف دينار[3]. وتوارد الدهاقين وهم كبار الملاك، من ضواحي الحيرة وما وراءها شمالاً يطلبون الدخول في طاعة الجيش الفاتح، فازدادت ثروات الخزينة الإسلامية أضعافاً مضاعفة، وكتب خالد إلى بلاط الفرس وأمرائهم يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو إلى تحمل مسؤوليات الحرب. وكان البلاط الفارسي يعيش أزمة خطيرة بموت أردشير وعدم وجود مرشح من أسرته.

٥ ـ فتح الأنبار، وهي مدينة على شاطئ الفرات غربي بغداد[4]، وقد كان هذا المركز مخزناً للحبوب والتبن. وحاصرته مقدمة الجيش التي كان على رأسها الأقرع بن حابس، ثم رشق المسلمون القوات المحاصرة حتى فقأوا ألف عين كما قالوا. وتمكنوا من اجتياز

---

(١) انظر تعليق الكامل: ص ٢٦٥.

(٢) ن.م. ص ٢٦٧؛ وانظر بشأن فتح الحيرة: الطبري: تاريخ ٤/١٥ ـ ١٧.

(٣) م.م. ابن خلدون: ٢/٨٩٢؛ وانظر دحلان: الفتوح الإسلامية ١/٢٢.

(٤) ياقوت: مادة «أنبار»، وتوجد الأنبار أيضاً بإيران. أما أنبار العراق المقصودة هنا فقد اتخذها العباسيون عاصمة قبل بناء بغداد، وقد بقيت بعض آثارها.

الخندق الذي ملأوه بإبل نحروها لهذا الغرض، وبذلك تم لهم الاستيلاء على الأنبار التي عين لإدارتها الزبرقان بن بدر.

٦ ــ فتح عين التمر، وهي قرية من الأنبار غربي الكوفة[1]، وتتوفر على تمر كثير يصدر إلى خارج العراق. وفيها تجمع الفرس بقيادة مهران بن بهرام، والعرب النصارى بقيادة عقة بن أبي عقة، وبينهم تغلب وإياد والنمر[2]. وقد انهزمت هذه الجموع من غير قتال بعد أن أسر خالد زعيمها عقة ثم قتله، كما قتل كل الذين تحصنوا في حصن عين التمر. وسبى غلماناً وجدهم في الكنيسة يتعلمون الإنجيل، ومنهم سيرين أبو محمد بن سيرين العالم المعروف.

٧ ــ وقعة دومة الجندل وهي مركز وقرى في تخوم الشام تجاه المدينة وتقطنها تنوخ وغسان وغيرها. وكانت قد صالحت المسلمين في عهد الرسول ثم نقض أكيدر الصلح وهم بقتال القائد المراقب للمنطقة عياض بن غنم، فاستنجد بخالد الذي قتل أكيدر ثم افتتح الحصن وسبى ذريته[3]. وافتتاح دومة الجندل ذكر هنا كمجرد عملية تولاها خالد أثناء فتح العراق، وإلا فهو تابع للشام.

وبينما كان خالد بن الوليد يستقرّ بدومة الجندل، حاول الفرس بالتعاون مع العرب الموالين لهم أن يهاجموا الحيرة، ولكن الحامية المحلية ردتهم على أعقابهم، بينما حضر خالد للقائهم بالحصيد فهزمهم شر هزيمة بمساعدة قواد آخرين كالقعقاع بن عمرو وغيره. وتابع خالد تعقب نصارى العرب وجيوش الفرس حتى الرصافة التي كانت تسمى

---

(١) ن.م. مادة «عين التمر».

(٢) ابن خلدون: ٢/٨٩٤؛ ابن الأثير: ٢/٢٦٩؛ دحلان: ١/٢١، ٢٢.

(٣) الكامل ٢/٢٧٠؛ ابن خلدون: ٢/٨٩٥؛ ياقوت: مادة «دومة الجندل».

الرضاب آنئذ[١]. ومنها اتجه إلى الفِراض (بكسر الفاء) وهي فيما بين البصرة واليمامة من ديار بكر[٢]، حيث تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات، فاحتشدت جيوش الفرس والروم والعرب النصارى متضامنة، فهزمهم الجيش الإسلامي هزيمة منكرة. وفي أواخر ذي العقدة من السنة الثانية عشرة توجه خالد خفية من مسالك غير مطروقة إلى مكة لأداء شعائر الحج ولم يخبر بذلك أبا بكر حتى قضى حجه، فعاقبه شبه عقاب بنقله إلى الشام. وقبل نقله هذا قام خالد بغارات متعددة على السواد حتى يعمل على ضرب المراكز الاقتصادية التي يتحالف فيها الفرس ونصارى العرب.

مواجهة البيزنطيين وحلفائهم بالشام

حقق الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦٠١ ـ ٦٤١م) انتصارات ساحقة على الفرس في مصر وحتى داخل الإمبراطورية الفارسية، غير أنه فوجىء بأحداث الزحف العربي على الشام في أواخر خلافة أبي بكر. ويعزو «أوستروجورسكي»[٣] انهيار الحكم البيزنطي بالشام والمقاطعات الشرقية من الإمبراطورية، إلى إهمال القيام بتجهيزات دفاعية ملائمة، وإلى تضعضع الإدارة نتيجة ضغط كبار الملاكين الذين سهلوا دخول الغزاة العرب على الأخص إلى مصر، بينما يعزو (دولاندولان) هذا الانهيار إلى حتمية القدر لدى هؤلاء الفاتحين، والتي تمكنهم من تحدي الأخطار. لأن كل حادث يحدث إنما هو بارادة الله[٤].

---

(١) ياقوت: مادة «الرضاب».

(٢) ن.م. مادة «الفراض».

(٣) G. Ostrogorsky, *Histoire de l'Etat Byzantin*, p. 140.

(٤) De l'Andelyn, *Histoire universelle*, p. 228.

والحق أن لكل من هذه العوامل أثره في تسهيل افتتاح الشام، ولكنها مجتمعة غير كافية، لأن هناك التنظيم العسكري المتقن الذي وفق إليه العرب، والتحرك السريع للجيوش العربية، والضرب في واجهات متقاربة في وقت واحد. والروح الدينية التي تحمس هذه الجيوش للجهاد، وانتهاء المحاربين العرب إلى مجتمع البدو في أغلبيتهم الساحقة، وهم قوم محاربون بطبعهم، واستخدام القواد عناصر من الفريق المغلوب لتتعاون معه على كشف أخبار العدو وتحركاته. وأخيراً، فهناك ميل من أغلب عرب الشام إلى استقبال الغزاة من إخوانهم بقلب مفتوح، أو إلى عدم الاستماتة في قتالهم بإصرار؛ ذلك أن اليعاقبة وهم نصارى الشام يختلفون عن البيزنطيين الكاثوليك في كونهم يقولون بالطبيعة الواحدة، وهذا أدى إلى اضطهادهم باستمرار من لدن الكنيسة الرومانية والحكام البيزنطيين. وأخيراً، هناك موقف العناصر اليهودية التي تعادي الحاكم الروماني بطبيعتها والتي تعيش تحت قهره، فرأت في قدوم الفاتحين العرب مخلصاً لها من كربتها مثلما حدث في أكثر من جهة فتحها جيش إسلامي أو حكمها مسلمون.

والواقع أن عرب شبه الجزيرة، سواء أدخلوا العراق أم الشام، فهم يدخلون ديارهم، حتى وإن وجدوا مقاومة يتولاها إخوانهم ضدهم، لأن هذه المقاومة حدثت من قبل داخل شبه الجزيرة، بل حدثت ضد شخص محمد الرسول في عقر داره، ولذلك لا عجب أن تنهار المقاومة في الشام بسرعة مثلما انهارت في العراق بسرعة، وهذا بالرغم مما كلفت العرب من جهود.

وقد عرفنا أن التحرك العربي إلى الشام بدأ من عهد الرسول لأنها أقرب إلى المدينة، وحماية تخومها دون حماية تخوم العراق التي كان الفرس يراقبونها براً وبحراً. غير أن وفاة الرسول (ص) أوقفت

عمليات التدخل الإسلامي بالشام مثلما أوقف هذا التدخل عمليات فتح الشطر الجنوبي من العراق. حتى إذا حلت السنة الثالثة عشرة للهجرة بعد مضي زمن على تصفية أمر الردة والتقدم داخل الجبهة العراقية استعد الجيش الإسلامي للزحف على الشام. وكان أبو بكر قد تهيأ لحرب الشام منذ بدأ الزحف على العراق، فاستنفر سكان الطائف ومكة واليمن ونجد والحجاز عامة للجهاد[1] وعين على الجيش خالد بن سعيد بن العاص، ولكن هذا الجيش لم يقم بمهمته في الوقت المذكور لأسباب قيل إنها تتعلق بموقف خالد هذا من بيعة أبي بكر[2]. وفي صفر من سنة ١٣ أعيد تنظيم الجيش وقيادته، حيث وزعها بين ثلاثة قادة، أحدهم خالد بن سعيد، ثم شُرَحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص[3]. وعسكر الجيش بالجرف على أميال من المدينة، ثم تحركت الفرق تباعاً وتلاحقت بها أخرى بقيادة أمراء آخرين منهم يزيد بن سفيان، كما كلف أبو عبيدة بن الجراح في البداية بالقيادة العامة، ولكنه اعتذر عن تحملها مكتفياً بمهمة الإرشاد الديني للجيش[4]، ثم أسندت القيادة العامة إلى يزيد بن أبي سفيان في النهاية[5] بعد أن تولاها لفترة محدودة خالد بن سعيد[6]. على أن أبا عبيدة سيساهم في العمل العسكري المباشر بالشام في هذه المرحلة.

ويظهر أن الاصطدام بالروم حدث في جهات متفرقة في وقت

(١) انظر خطاب أبي بكر إلى الشعب العربي في الفتوحات الإسلامية ١/٣٦.
(٢) الكامل ٢٧٥؛ ابن خلدون: ٢/٨٩٧.
(٣) البلاذري: فتوح، ص ١٤٩.
(٤) دحلان: الفتوحات ١/٣٦؛ البلاذري: فتوح، ص ١٤٩.
(٥) البلاذري: ص ١٥٠.
(٦) الكامل ٢/٢١٦.

متقارب، لأن الجيش الإسلامي تورع فرقاً مع معرفته للميدان. ومن المواجهات الأولى تصدي خالد بن سعيد لجموع العرب الموالين للروم كتنوخ ولخم وغسان وكلب والضاربين في تخوم الشام، فانهزموا أمامه من غير قتال، فاحتل مواقعهم. كما وقعت مواجهة بين جيش يزيد والروم بإحدى قرى غزة ثم بالعربة من أرض فلسطين حيث أحرز الجيش الإسلامي انتصارات أولية. وأخيراً غامر خالد بن سعيد بالتوغل تجاه دمشق فطوقته معسكرات الروم وسدت الطريق دونه. ولولا عكرمة بن أبي جهل وجيشه الذي حمى ظهر خالد بن سعيد لوقع في قبضة الروم الذين قتلوا ابناً له. وهكذا لم ير بداً من اللحاق بالمدينة مستأذناً الخليفة.

أما هرقل، فلم يبق مكتوف الأيدي بل قوى أجهزته الدفاعية في كل من دمشق وحمص وغيرهما، ونزل هو نفسه بحمص، مشيراً على كبار المسؤولين في بلاطه أن يقبلوا الصلح مع العرب حتى لا يتورطوا في حرب خاسرة، إذ لا شك وصلتهم أنباء انتصارات العرب في العراق. غير أن المسؤولين رفضوا النصيحة، فلم يسعه إلا مسايرتهم. وأثناء هذه الأحداث تقوت حشود العرب بإمدادات إضافية، وعندئذ، أسندت مسؤولية التنسيق إلى أبي عبيدة بن الجراح الذي كان موضع ثقة أبي بكر، على غرار خالد في العراق. وفي الوقت الذي تجاوزت فيه قوات العرب عشرين ألفاً، حشد هرقل جيوشاً ضخمة تقدرها الرواية العربية بما لا يقل عن مائتي ألف[1]. وتفرق الجيش العربي أربع فرق، إحداها بقيادة أبي عبيدة في الجابية جنوب دمشق، والثانية بقيادة يزيد في البلقاء، والثالثة بقيادة شرحبيل في الأردن، وقيل في

(١) الكامل ٢٧٨/٢؛ وعند ابن خلدون: ٢٤٠ ألفا، والمقدسي: ١٨٤/٥: ٤٠٠ ألف؛ والطبري: ٣١/٤: ١٥٠ ألفاً.

بصرى من سوريا، والرابعة في العربة شرق فلسطين. أما الروم فحاول هرقل توزيعهم حسب المعسكرات العربية[1]، فواجهت هذه المعسكرات قوات ضخمة لا يمكن أن تصمد لها طويلاً. فأشار عمرو بن العاص عليهم بتجميع قواتهم، ثم كاتبوا أبا بكر يصفون وضعية الجيش العربي ويطلبون المدد. فأمدهم أبو بكر بقوات إضافية، وعين عليهم خالد بن الوليد الذي وجهه من العراق، وكتب إليه أبو بكر خطاباً بهذا الشأن، وأمره بحشد مجموع القوات الموجودة في الجبهة الشامية باليرموك[2]. غير أن خالداً لم ير من اللائق أن يضع نفسه فوق مستوى أبي عبيدة الذي يحظى باحترام كبير في المجتمع الإسلامي. فكتب إليه من الشام يضع نفسه تحت إمرته وينوِّه بفضله. بينما كتب أبو بكر إلى أبي عبيدة يطلب إليه احترام تعليمات خالد لما له من تجربة عسكرية[3]. وهكذا توجه خالد من العراق يقود جيشاً يقدر بستة آلاف إلى عشرة آلاف. وبلغ مجموع الجيش الإسلامي في أعلى التقديرات ٤٦ ألفاً، وجيش الروم ٢٤٠ ألفاً[4]. وتخلف بالعراق من الجيش الإسلامي قدر ما رافق خالداً إلى الشام، وتولى جيش العراق المثنى بن حارثة خلفاً لخالد. ووجد خالد كل قائد يواجه المعارك لحسابه دون تساند ولا تنسيق. فلما احتشدت الفرق باليرموك والتحق بها خالد، وجه خطاباً حماسياً يدعو فيه إلى التآزر والتساند[3]، ثم

(١) ن.م. وص.

(٢) ن.م. وص؛ دحلان: الفتوحات ١/ ٣٩.

(٣) دحلان: الفتوحات ١/ ٣٩.

(٤) ابن خلدون: ٢/ ٩٠٠ ـ ٩٠١؛ ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٧٩، و ٢٨١؛ البلاذري: فتوح ١٨٤.

(٥) ابن الأثير: ص ٢٨٢؛ ياقوت: معجم، مادة «اليرموك».

أشار على القواد أن يتولى كل منهم القيادة العامة يوماً وأن يتولاها هو لليوم الأول، وبذلك هدهد من نفوسهم حمية الرئاسة وشرف التفوق، وغض النظر عن تطبيق تعليمات الخليفة بشكل صارم حفظاً لوحدة التحرك والمواجهة.

وقام خالد بإعادة تعبئة الجيش حول ضفة اليرموك وهو نهر من روافد الاردن في اتجاه دمشق شمالاً وبصرى شرقاً، فوزع الجند كراديس أي فرقاً تناهز كل منها ١٢٠٠ محارب، وبلغ مجموع الكراديس حوالي الأربعين. ثم خص كل قائد من القواد الأربعة بقيادة جناح من الجيش وفي القلب أبو عبيدة[١]. وكما تولى القسس والرهبان تحميس الروم الذين تعبأوا بالطريقة نفسها، عين لهذه المهمة في الجيش الإسلامي مرشد ديني يدعى القاص، وكان أبا سفيان بن حرب الذي أدى مهمته هذه خير أداء[٢]. وما كادت المعركة تنشب حتى فوجىء الجيش بقدوم البريد أي موظف الاستخبارات من المدينة يسر إلى خالد وأبي عبيدة وفاة أبي بكر وقيام عمر خليفة وعزله لخالد على أن يتولى مكانه أبو عبيدة ويضع خالد نفسه رهن إشارته. غير أن خالداً احتفظ بسر الخبر وواصل قيادة الجيش في انتظار تحقيق نتيجة إيجابية. وقد كان تعليقه على قرار عزله قوله: أنا لا أقاتل من أجل عمر. وهناك رواية شاذة ساقها الطبري تفيد أن خالداً واصل مهمة القيادة العامة حتى فتح دمشق، فأعلن أبو عبيدة عزله[٣].

وكانت مبادرة الهجوم من الجيش الإسلامي بأمر من خالد إلى

---

(١) ابن الأثير: ص ٢٨٢؛ والطبري: ٣٣/٤ يذكر توزيعاً أدق.

(٢) ابن خلدون: ٩٠١/٢.

(٣) الطبري: ٥٥/٤.

عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو،وهما قائدا مجنبتي القلب[1] أي جناحيه.

وتتحدث الرواية الإسلامية[2] هنا عن خروج جورج أحد قواد البيزنطيين من كتيبته حيث طلب خروج خالد إليه، ثم استفسره عن سر نجاحه في المعارك، وعن عروض الإسلام لمن يحاربونه، حتى إذا اقتنع من خالد بما يرضيه عن هذا الدين، دخل في الإسلام في غمرة الاندهاش التي عمت الفريقين.

وساهم في الصف الإسلامي جبلة بن الأيهم، الأمير الغساني قبل ارتداده[3]: بل قبل إسلامه مباشرة. وقد تظاهر بالتعاون مع الأنصار تعصباً، ولكن يبدو أنه لم يكن يرى أن المعركة ستنتهي لصالح الروم. كذلك ساهم في الفريق الإسلامي نساء الجند، ومن بينهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان[4] الذي فقد عينه في هذه المعركة كما قتل القائد جورج. وفي آخر النهار هاجم خالد مع فريق من جيشه قلب الروم، فاضطربت صفوفهم وتراجع فرسانهم تاركين الرجالة مخذولين وجلهم في الخندق الذي أعدوه مقدماً، وبذلك أتيح للجيش الإسلامي أن يهاجم عدواً نحر نفسه بنفسه. وتختلف هنا تفاصيل هزيمة الروم في الرواية العربية وهي تبدو أقرب إلى المنطق، من تفسير بروكلمان[5] الذي عزا الهزيمة إلى الأرمن الحاقدين على الجيش البيزنطي وكانوا كما قال يؤلفون نصفه في معركة اليرموك. وإذا

---

(١) ابن الأثير: ص٢٨٢؛ الطبري: ٤/٣٤.

(٢) الكامل ٢/٢٨٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٥.

(٤) البلاذري: ن.م. ص ١٨٤؛ وابن الأثير: الكامل ٢/٢٨٤.

(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١١٣.

أخذنا بهذا التفسير، فيجب أن نقيم له الاعتبار نفسه فيما سبق وبقي من هزائم الروم، وذلك يجافي منطق الأحداث. وكانت قيادة الجيش البيزنطي للبطريق تيودور، وهو أخو هرقل، وتسميه المصادر العربية تدارق. أما هرقل فكان يقيم في هذه الأثناء بأنطاكية يتتبع الأحداث، حتى إذا بلغته أنباء هزيمة جيشه انسحب إلى القسطنطينية(١).

وتضطرب الروايات حول أحداث اليرموك، والصحيح أنها كانت سنة ١٣ هجرية وقبل فتح دمشق في جميع الأحوال(٢).

وفاة أبي بكر

كانت وفاة أبي بكر على إثر مرض لم يبلغ به أكثر من أيام معدودة لا تعدو الاسبوعين(٣)، أصابته خلالها حمى يحتمل أن تكون كالتي أصابت الرسول ﷺ. ذلك أن أبا بكر، قد تناول على بعض الروايات طعاماً مسموماً يسري مفعوله ببطء، ولمدة شهور، وأن عملية الاغتيال هذه قام بها بعض اليهود في هذه المرة أيضاً(٤). والرواية نفسها تؤكد أن اكتشاف التسمم ثبت على يد الطبيب الحرث بن كلدة(٥) الذي تناول من الطعام ذاته مع أبي بكر ولقي المصير نفسه.

وأحدثت وفاة أبي بكر حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية. فقد كان هذا الرجل متزن الشخصية إلى درجة نادرة بين الزعماء العرب. والحق أن صحبته الطويلة للرسول قبل البعثة وبعدها جعلت منه

---

(١) البلاذري: م.س. ص ١٨٦؛ المقدسي: البدء والتاريخ ١٨٥/٥.
(٢) انظر مزيداً من تفاصيل اليرموك في الطبري: ٣١/٤ ـ ٤٠.
(٣) ابن عبد ربه: العقد ١٥/٥؛ المقدسي: م.س. ص ١٦٧.
(٤) العقد ١٥/٥؛ وراجع أحداث وفاة أبي بكر في الصفحات الموالية من المصدر نفسه.
(٥) الطبري. ٤٦/٤.

سياسياً بعيد النظر، وقائداً محنكاً وإنساناً عميق الثقة بـالله خدومـاً للمجتمع الذي أسند إليه رعايته. ويندر جداً في التاريخ العالمي كله أن يحقق قائد أمة ما حققه أبو بكر في مدة سنتين وبضعة أشهر هي كل الفترة التي قضاها خليفة، فقد استعاد الإسلام وحدته في جزيرة العرب، بل وجوده كله تقريباً، وتخطى الزحف الإسلامي حدود هذه البلاد إلى أجزاء شاسعة من العراق والشام، وبدأت تظهر كفاءات إدارية وعسكرية يتقوى مردودها مع الأيام بحسب ما يسند إليها من مهمات. وضبطت الشؤون الاقتصادية ضبطاً محكمًا بالرغم من بساطة الوسائل وبعد المسافة بين العاصمة وأطراف الخلافة. وأهم من هذا كله، أن أبا بكر وضع بين يدي خلفه، كل الضمانات لإنجاح مهمته: الاستقرار السياسي، والنظام الشوري، والتعامل مع القاعدة رأساً أو عن طريق من يصلحون لتمثيلها، وكل ذلك حسب شريعة القرآن وسنة الرسول. وأخيراً، فقد ترك أبو بكر إطارات أمينة في مختلف المجالات. وكل هذا سيعطي نفساً نقياً لعمر الذي سيضيف إليه من قوة شخصيته ومهارته وصلابته في الحق، ما سيحقق للإسلام مفاخر تاريخية رائعة.

وكما كان الشأن بالنسبة للرسول ﷺ، فإن أبا بكـر لم يخلف وراءه مـالاً يستحق الذكر، وكان يتعيش مما فرض له في بيت المال من قبل ممثلي الأمة[1]، وترك عليه ديوناً أوصى أن تُؤَدّى من بيع أرض له. وقد رثاه علي بن أبي طالب رثاء بليغاً أورده ابن عبد ربه في «العقد الفريد»[2].

---

(١) الكامل ٢/٢٩١؛ الطبري: ٤/٥٤.

(٢) ابن عبد ربه: العقد ٥/١٧. وانظر في الطبري ٤/٤٧ ــ ٥٤ ما يتعلق بتجهيز جنازة أبي بكر ونبذة عن سيرته ومساعديه.

الفصل الثالث
اتساع المواجهة ضد البيزنطيين، والقضاء على الحكم الفارسي

تولية عمر

أراد أبو بكر الصديق وهو في مرضه، أن يجنب الأمة الإسلامية وقوع خلاف خطير بشأن الخلافة، كالذي حدث بعد موت الرسول (ص). وهكذا استفاد أبو بكر وجماعة الصحابة، من تجربة الأحداث التي وقعت في سقيفة بني ساعدة، ولعله استجاب أيضاً، لضغط أسرته التي كانت تعرف أكثر من غيرها مدى حرص هذا الرجل الذي صاحب الرسول كل شبابه وكهولته، على مصالح الإسلام ومجتمعه. وكانت عائشة أشدهم جرأة عليه وأكثرهم به رفقاً، فخاطبته في مبدأ الاستخلاف[1] بطريقة غير مباشرة على الأقل. فكان أن استدعى على التوالي كلاً من عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، فاستشارهما في ترشيح عمر، ورأى الأول أن في عمر غلظة قد تؤدي إلى مجافاة الشعب له، وقال عثمان إن سريرته خير من علانيته، فعمل أبو بكر برأي عثمان[2]، ورشّح عمر، وكتب بذلك عهداً ليُتلى في المسجد

(١) ابن عبد ربه: العقد ١٧/٥ ــ ١٨.
(٢) الكامل ٢٩٢/٢؛ الطبري: ٥١/٤.

النبوي بالمدينة(١) حيث توجد دار أبي بكر بجواره. وجاء في العهد حسب رواية ابن عبد ربه(٢) قوله: «هذا عهد أبي بكر بن أبي قحافة، عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب، أمَّرت عليكم عمر بن الخطاب، فإن عدل واتقى، فذلك ظني به، ورجائي فيه، وإن بدل وغير، فالخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله».

وكتب العهد عثمان ثم قرأه على أبي بكر(٣). واستدعى عمر قبل استشارة عموم الصحابة، فأبدى عمر تنصله من تحمل مسؤولية الخلافة(٤)، ولكن أبا بكر تهدده واستدعى بسيفه لأجل ذلك كأنه يؤكد له أن تحمل المسؤولية عند الضرورة يصبح واجباً وأن التنصل منه خيانة تستوجب أقسى العقوبات. وإثر ذلك قُرىء العهد بالمسجد بحضور عمر، وأطل أبو بكر من فراشه يستفسر الحاضرين هل قبلوا عمر، فأجاب الجميع بالموافقة.

ويظهر أن بعض كبار المهاجرين خاصة، لم يكونوا راضين عن خلافة عمر، ومنهم عبد الرحمن بن عوف كما تقدم، وطلحة الذي عاتب أبا بكر على ترشيحه حتى أسمعه أبو بكر ما لا يرضيه(٥). وقال أبو بكر لعبد الرحمن(٦): «ما لقيت منكم يا معشر المهاجرين، أشد عليّ

(١) العقد ١٨/٥.
(٢) م.س. ويختلف هذا النص من مرجع لآخر؛ انظر مثلاً، ابن خلدون: ٩٠٣/٢.
(٣) الكامل ٢٩٢/٢.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٣٤٩/٩.
(٥) ن.م. ص ٣٥٠.
(٦) ابن عبد ربه: العقد ١٩/٥.

من وجعي، إني ولَّيت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم وَرِم من ذلك أنفه، يريد أن يكون له الأمر من دونه».

وهذا يخالف كلام الماوردي الذي يقول إنّ استخلاف أبي بكر كان باتفاق الصحابة من غير نكير، وإنّه كان إجماعاً[1]، اللهمّ إلا إذا كان يقصد أنه بعد مبايعة عمر، لم تنشأ معارضة ضده، وهذا صحيح.

وبعد قبول ترشيح عمر في جمع شعبي كما سبق، وجه أبو بكر إليه نصائح حول اتباع الحق والعدل[2]. وكان لهذه النصائح تأثير عميق على سلوك عمر كخليفة، حتى لقد جسم فكرة الحق والعدل في أسمى صور تطبيقها وبالتالي في تاريخ الإسلام على العموم.

وأحدثت وفاة أبي بكر بعد قليل من الأيام صدمة كالتي أحدثها موت الرسول (ص)[3] وكان له من العمر ثلاث وستون سنة. وكان علي بن أبي طالب من أشد الصحابة تأثراً لموته، حتى أبنه بكلام مؤثر[4]، ورثاه شعراء من بينهم حسّان بن ثابت[5].

وتلقى عمر بيعة السكان تباعاً وبصورة تلقائية، حيث لم يحتج إلى استخدام الضغط بشأنها.

وعرف عمر بن الخطاب وهو شاب الرسول (ص) قبل بعثته، فهما مكّيّان معاً، ولعمر اتصال بشجرة نسب الرسول في أحد أجداده

---

(١) حسب القلقشندي: م.س. ص ٣٥٠.
(٢) الكامل ن.م. وص.
(٣) العقد ١٧/٥.
(٤) ن.م. وص.
(٥) المقدسي: البدء والتاريخ ١٦٧/٥.

البعيدين. وأسلم فيها قيل وهو ابن خمس وعشرين سنة في العام السادس من النبوّة[1]. وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي. وسبقته أخته فاطمة إلى الإسلام وكانت مع جماعة تقرأ القرآن في بيت الخباب بن الأرتّ فسمع عمر صوت القرآن ثم اطلع على صحيفة كتب فيها جزء منه، فمال قلبه إلى الإسلام[2]، وكان من العرب المستنيرين، ثم اعتنق الإسلام على يد الرسول (ص). وسأله عن عدد المسلمين فقال: أربعون. فقال عمر: والله لا نعبد الله بعده سراً. ويصف عبد الله بن مسعود[3] إسلام عمر بأنه كان فتحاً «وأن هجرته كانت نصراً، وأن خلافته كانت رحمة»، ويقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر.

ووصف عمر بأنه كان أبيض مشرباً بحمرةٍ، آدم، حسن الخدين والأنف والعينين، غليظ القدمين والكفين، مجدول اللحم، ضخم الكراديس، طويلاً، أصلع، أعسر يسر[4]، وتولى الخلافة قبل انصرام جمادى الآخرة بثمانية أيام، من سنة ١٣ هـ.

فتح الشام

يختلف عمر عن أبي بكر، في أنه أشد احتياطاً من سلفه فيما يرجع إلى التوسع في الفتوح، لأنه كان يردّ وأكثر من مرة أنه حريص على عدم تشتيت الجيوش العربية في الأمصار، ولا سيما التي تنفصل ببحر أو ماء عن جزيرة العرب، ومع ذلك، فإن عمر لم يتردد في

---

(١) ن.م. ص ٨٨.
(٢) ن.م. ص ٨٩.
(٣) ن.م. ص ٩٠.
(٤) ن.م. وص؛ العقد ٥/ ٢٠.

مواصلة خطة سلفه في متابعة فتح الشام والعراق والجهات التابعة والامبراطوريتين الكبيرين، بل إن عهد عمر، بالنظر لطوله نسبيّاً، تميز بتحقيق إنجازات ذات أهمية مصيرية.

وهكذا تابعت فرق الجيش العربي نشاطها العسكري في الشام، على الرغم من أن الدارس لهذه الفترة يفتقد الضبط الزمني لبعض أحداثها. ففي جنوبي فلسطين، شهدت أجنادين (بكسر الدال وفتحها)، وهي بين الرملة وبين جبرين، إحدى المعارك الضارية بين الجيشين البيزنطي والإسلامي. وكان عمرو بن العاص الذي يقيم بالعربات في فلسطين[1]، ينتظر الإمدادات ليواجه الروم الذين احتشدت منهم قوات ضخمة تقدر بتسعين ألفاً إلى مائة ألف[2]، بقيادة أَرْطَبُون[3] الذي كان يعمل بتوجيه تيودور أخي هرقل. وكان احتشاد هذا الجحفل بأجنادين. أما الإمدادات الإسلامية فاشترك فيها عدد من القادة كخالد بن الوليد[4]، وعمرو بن سعيد بن العاص. وهاجم الجيش الإسلامي طلائع الروم بأجنادين، والتي أحدث انهزامها تراجعاً مثيراً لسائر الكتائب البيزنطية التي التجأت إلى عدة مدن كدمشق وحمص وإيلياء وقيسارية[5]. ولجأ أرطبون إلى بيت المقدس. أما تيودور، فقيل إنه قتل بأجنادين أو باليرموك[6]. وهذه المعركة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٨٦.
(٢) البلاذري: فتوح ١٥٦، دحلان: الفتوحات ١/٤٥.
(٣) الكامل، ص ٣٤٧.
(٤) البلاذري: ص ١٥٦.
(٥) دحلان: م.س. ص ٤٥.
(٦) ن.م. وص؛ وانظر بروكلمان: تاريخ ١/١١٢؛ وحتي: لبنان في التاريخ، ص ٢٩١.

الحاسمة التي مزقت شمل الجيش البيزنطي أتاحت لخالد بن الوليد أن يطارد فلول المنهزمين في انتظار تعليمات الخليفة عمر إلى أبي عبيدة بشأن افتتاح دمشق. وهذا الذي يجعلنا نميل إلى أن معركة أجنادين حدثت أيام عمر بن الخطاب وبعد اليرموك، لأن نتائجها ارتبطت مباشرة بفتح دمشق. ويبدو أن عدد الجيش الإسلامي في أجنادين لم يكن يتجاوز عشرين ألفاً في المتوسط[١].

وإذا كنا لا نعرف تاريخاً مضبوطاً لمعركة أجنادين التي تتردد الأقوال حولها بين سنة ١٣ وسنة ١٥، كما تضطرب حتى حول تفاصيلها، فإن أحداث فتح دمشق بدأت في أواخر سنة ١٣، وانتهت خلال سنة ١٤، نظراً للحصار الطويل الذي ضربه المسلمون حولها، ولذلك يلاحظ اضطراب المؤرخين في تحديد تاريخ فتح دمشق (سنة ١٣ أو ١٤ هـ).

إن نتائج معركة اليرموك ومعركة أجنادين لم تحطم عزيمة الروم وتصميمهم على الدفاع عن المراكز الكبرى. فقد احتشدت كتائب منهم بفحل[٢] للدفاع عن الاردن، وأخرى وجهت كنجدات إلى دمشق، فوردت تعليمات عمر إلى أبي عبيدة كما تقدم، بالزحف على دمشق أولاً، ثم على فحل ثانياً[٣]، ورأى أبو عبيدة أن ينفذ تعليمات الخليفة حتى النهاية، فبعث بكتيبة من الفرسان تحاصر فحل[٤]، على رأسها مجموعة من الصحابة. وأخرى تعسكر بين حمص ودمشق حتى

---

(١) انظر حتي: م.س. ص ٢٩١.
(٢) مكان بقرب دمشق، وفحل: بكسر فسكون.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٩٤.
(٤) ن.م. وص.

تمنع إمدادات الروم القادمة من حمص إلى عاصمة الشام، وثالثة بين دمشق وفلسطين لتصد الامدادات البيزنطية من هذه المنطقة[1].

وتولى خالد بن الوليد عملية الهجوم على الغوطة[2] أهم ضواحي دمشق، وهي غنية بجنائنها، فاستولى عليها وعلى كنائسها عنوة، ثم توزعت قيادة الفرق المحاصرة لدمشق: خالد من جهة إحدى الكنائس، وعمرو بن العاص على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، وأبو عبيدة على باب الجابية، ويزيد بن ابي سفيان على باب كيسان، وأبو الدرداء عويمر الخزرجي بمعسكر برزة[3]. وهكذا تم تطويق المدينة كلياً، وعلى رأسها البطريق نسطاس. ووفق الجيش المعسكر بين دمشق وحمص بقيادة ذي الكلاع الحميري إلى منع وصول إمدادات هرقل من حمص إلى دمشق[4]، فازداد تطويق دمشق قوة. وتمكن خالد بن الوليد مع جماعة من جيشه من تسلق السور ومهاجمة المدافعين عن أحد الأبواب[5]، ثم افتتح الباب فدخل عدد كبير من الجيش. وقام بدور مماثل أبو عبيدة بن الجراح، الذي فتح باب الجابية[6].

ثم تتابع اقتحام المدينة من مختلف أبوابها، غير أن خالداً بناء على عهد قديم كان قد أعطاه لبطريقها، اعتبر دخول المسلمين إلى دمشق صلحاً، وكتب بذلك عهداً يؤمن السكان على أنفسهم

---

(١) ن.م. وص.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ١٦٥.

(٣) ن.م. وص.

(٤) ابن خلدون: ٢/٩٠٥.

(٥) الكامل، ن. ص.

(٦) البلاذري: فتوح، ص ١٦٦.

وكنائسهم وأموالهم، وذلك مقابل التزام هؤلاء بأداء الجزية[1]. وقد أمضى أبو عبيدة هذا الصلح تقديراً منه لشخصية خالد، وقال لمن عارض هذه المبادرة: إنه يجيز على المسلمين أدناهم[2]. وهو هنا يعطي للقاعدة حقها المطلق في المسؤولية. وكان الفتح حسب بعض الروايات في رجب سنة[3] ١٤ هـ. وأجري مجرى الصلح ما فتح عنوة. ويحمل عهد خالد تاريخ سنة ١٥، وهو في الحقيقة مجرد تجديد للعهد السابق[4] طالب به الأسقف نسطاس، وتولى يزيد بن أبي سفيان قيادة الحامية الإسلامية بدمشق[5].

ثم توجهت قوات المسلمين بقيادة شرحبيل بن حسنة إلى فحل (بكسر فسكون) وكان الروم قد فجروا المياه حولها فأحدثت من الأوحال ما تعذر معه تحركهم بينما كانوا يقصدون إلى منع القوات المهاجمة من الوصول إليهم. ثم ارتكبوا خطأ ثانياً بمحاولة مباغتة المسلمين قبل الوصول ، وكانوا في حالة تعبئة مستمرة. فردَّهم المسلمون على أعقابهم حتى تراجعوا نحو الوحل أو تشردوا، وبذلك كانت الهزيمة على الروم، بالرغم من قتال عنيف واجهوا به المهاجمين[6] طيلة يوم وليلتين.

أما يزيد بن أبي سفيان فما لبث أن توجه نحو سواحل لبنان

---

(١) ن.م. وص.

(٢) ن.م. ص ٦٧.

(٣) ابن خلدون: ٢/٩٠٥؛ البلاذري: ١٦٨.

(٤) البلاذري: ١٦٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٩٥.

(٦) ن.م. وص؛ ابن خلدون: ص ٩٠٥.

حيث تولى أخوه قيادة المقدمة[١]، ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، على أن الروم استرجعوا بعض المراكز الساحلية في أواخر عهد عمر، ثم أجلاهم عنها معاوية عامل الشام أيام عثمان. وتابع أبو عبيدة فتح الشام بعد الاستيلاء على دمشق، فتوجه بجيش على مقدمته خالد وملحان الطائي[٢] لفتح حمص، فاعترضهم الروم بقيادة تيودور في مرج الروم[٣]، ولكن لم ينشب بينهم قتال، ثم انسحب الروم ليلاً باتجاه دمشق، وعندئذ تصدى لهم جيش يزيد، ثم طوقهم خالد من الخلف فلم ينجُ منهم إلا القليل، وأفلت منهم البعض إلى حمص. وحاول هرقل أن يستقدم نجدات لإنقاذ حمص من السقوط، فتواردت جيوش الروم من مراكز الجزيرة، مما مكّن سعد بن أبي وقاص أمير جيوش العراق أن يضع يده على بعض هذه المراكز[٤]، وسرعان ما تراجعت النجدات البيزنطية عن حمص. ثم تولى المسلمون حصار حمص الذي دام فترة طويلة من الشتاء، وكان فصلاً قارساً تأذى له الفريقان خصوصاً سكان حمص[٥] الذين يئسوا من المدد فنزعوا للصلح على ما صولح عليه أهل دمشق[٦]، وكان جيش أبي عبيدة قد استولى على بعلبك في طريقه إلى حمص بنفس الطريقة أيضاً. وأسند تدبير حمص إلى عبادة بن الصامت، ثم استولى على حماة والمعرة كذلك[٧]

---

(١) ابن الأثير: ن.م. ص ٢٩٦.
(٢) البلاذري: ص ١٧٨.
(٣) ابن خلدون: ٢/ ٩٤٤؛ ويقال إنّ ثيودور قتل هنا (الكامل ٢/ ٣٤١).
(٤) الكامل ٣٤٢/٢؛ ابن خلدون: ٢/ ٩٤٤.
(٥) الكامل، ن. ص.
(٦) ن. ص؛ ابن خلدون: ن.ص. بلاذري: فتوح ١٧٩.
(٧) ابن خلدون: ص ٩٤٥.

وشيزر. وزحف نحو اللاذقية وسلمية ففتحها عنوة[1]. وكان فتح اللاذقية وجبلة على يد عبادة بن الصامت[2] الذي فتح حصن طرطوس أيضاً، وحوله بنى معاوية فيما بعد مدينة طرسوس[3].

وتتابعت الفتوح بالشام بسرعة بعد الاستيلاء على هذه المراكز وإخضاعها للنظام الإسلامي فيما يخص الخراج وشروط الصلح والمعاملة:

١ ـ فتحت قِنَّسْرين وهي مركز عسكري وعمراني كبير بقيادة خالد بن الوليد وقد واجه الروم جيشه في الطريق، يقودهم ميناس. وبعد قتال عنيف هزم فيه الروم وصرع قائدهم المذكور[4] حوصرت قنسرين ثم فتحت عنوة وخربت مبانيها[5] وانتقض أهلها بعد ذلك فأعيد فتحها[6]. وكان ذلك سنة ١٥.

ولأول مرة تتولى مجموعة من كبار القادة محاولة غزو الروم في عقر دارهم بآسيا الصغرى حيث تابع خالد زحفه باتجاه القسطنطينية من جهة قنسرين، وانطلق عياض بن غنم من الشام أيضاً، وتوجه عبد الله بن المعتمر من الموصل، وعمر بن مالك من قرقيسيا[7]. وهذا ما جعل هرقل يلتحق بالقسطنطينية على الفور. ويظهر أن هذه المغامرة

---

(١) البلادري: فتوح ١٨١، الكامل ٢/٣٤٢؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٥.
(٢) البلاذري: ص ١٨٣.
(٣) دحلان: الفتوحات ١/٥٢.
(٤) الكامل ٢/٣٤٣؛ ابن خلدون ٢/٩٤٥.
(٥) ابن خلدون: ٢/٩٤٥.
(٦) ن. ص.
(٧) الكامل ٢/٣٤٣، ابن خلدون ٢/٩٤٥.

العربية تمَّ العدول عن متابعتها. وقد كانت بقايا الجيش الرومي لا تزال بعدد من مراكز الشام. وليس من شك في أن المبادرة تمت من لدن خالد بن الوليد الذي هو كأي قائد عسكري ذي طموح عال يفضل ضرب العدو في عقر داره. وقد رد إليه عمر اعتباره بعد استيلائه على قنسرين وقيامه بهذه الخطوة الجريئة[1]. وقد برهن عمر بهذا الموقف عن مراجعة سامية المقصد، لمواقفه السابقة تجاه خالد.

٢ ــ فتحت حلب بإشراف أبي عبيدة وقيادة عياض بن غنم الفهري، وكان فتحها صلحاً، وأمن أهلها على أموالهم وأسرهم وكنائسهم[2]. وكان فتحها سنة ٦٣٧/١٥.

٣ ــ فتحت انطاكية وهي مدينة عظيمة الأهمية في التاريخين المسيحي والإسلامي، وتتبع الآن لتركيا حيث تقع فيما وراء الحدود السورية من الشمال الغربي. وكان فتحها على يد أبي عبيدة صلحاً ثم على يد قائديه عياض وحبيب بن مسلمة بعد انتقاض أهلها، وأُقِرُّوا على الصلح الأول، ثم أمر الخليفة عمر بترتيب حامية ترابط[3] بها لأهميتها الستراتيجية والتاريخية. وأقطع الحامية أراضي زراعية على الساحل[4].

٤ ــ فتحت قورس وهي مركز دفاعي أمامي لأنطاكية، ومنبج الواقعة بقرب حلب شمالاً ومراكز أخرى في أقصى الشام مع تزويد كل ثغر رئيسي بحامية مرابطة وسلاح كاف[5]. وشارك في قيادة

---

(١) الكامل، ص ٣٤٤؛ ابن خلدون: ن. ص.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ١٩٩؛ الكامل ٢/٣٤٤؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٦.

(٣) البلاذري: ص ٢٠٠؛ الكامل ٢/٣٤٤؛ ابن خلدون: ن.م. وص.

(٤) البلاذري: ص ٢٠٢.

(٥) ن.م. ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥؛ الكامل، ص ٣٤٥؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٧.

الجيوش الفاتحة عياض المذكور وسلمان بن ربيعة الباهلي وآخرون[1]. ولم يكتف أبو عبيدة بهذه الفتوح في أقصى الشام، بل بعث بجيوش تقوم بغارات داخل تركيا أي معقل الروم[2].

٥ ـ فتحت قيسارية من أرض فلسطين بعد حصار طويل استمات الروم خلاله وقتلت أعداد كبيرة منهم[3] تبالغ الرواية العربية في تقديرها، وكان الفتح على يد معاوية بن أبي سفيان وبعد أخذ إذن الخليفة، ولكن لم يحدد تاريخ فتحها إذ ربما راوحها المسلمون بالحصار أمداً بعد آخر[4].

٦ ـ افتتحت بيسان من فلسطين على يد عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة سنة ١٥، وصولح أهل الاردن على يدهما أيضاً[5].

٧ ـ تولى عمر بن العاص سنة ١٦ أو ١٥ حصار إيلياء (بيت المقدس) بأمر من أبي عبيدة. وحاول القائد البيزنطي أرطيون حمايتها داخلياً، ثم بشحن معسكرات الرملة حولها بالجند والسلاح[8]، بينما

---

(١) الكامل، ص ٣٤٥؛ ابن خلدون: ن.م. وص.

(٢) الكامل ٣٤٦؛ ابن خلدون ٢/٩٤٧.

(٣) الكامل ٢/٣٤٦؛ ابن خلدون: ن. ص.

(٤) انظر مادة «قيسارية»، ياقوت: معجم البلدان؛ والبلاذري: فتوح، ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٥) الكامل ٢/٣٤٦؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٨.

(٦) البلاذري: ١٨٩.

(٧) الكامل ٢/٣٤٧؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٩؛ وفي ياقوت (مادة «بيت المقدس»): كان عهد الصلح الذي كتبه عمر سنة ١٧ هـ.

(٨) ن.م. وص.

قام أبو عبيدة بتعزيز القوات الموجودة بكل من قيسارية والرملة منعاً لكل تحرك من سكانها[1]. فلم ير أرطيون بداً من مصالحة العرب واشترط حضور عمر بن الخطاب[2]، بالنظر لما للقدس من أهمية دينية بالغة، وتواعد عمر على اللقاء مع القادة العرب في الجابية قرب دمشق، ولما لاحظ أبا عبيدة وخالداً ويزيد قد ارتدوا لباس النعمة وبخهم وقذفهم بالحجارة غضباً، فاعتذروا بأن ذلك مما غنموه ولم يشتروه[3]. ولما دخل عمر إلى بيت المقدس أجرى الصلح مع أهلها كتابة، بينما هرب أرطيون إلى مصر[4] أنفةً من الاستسلام وأداء الجزية. وتميز دخول عمر إلى بيت المقدس بكل إمارات البساطة والخشوع الديني إظهاراً لفضل الله على المسلمين وتكريماً لقدسية المكان. وكان الذي تولى مفاوضات الصلح عن سكان بيت المقدس البطريق سفرونيوس (Sophronius).

وفي السنة ١٧ هـ قام أهل الجزيرة (ما بين النهرين) بدعوة هرقل إلى محاصرة القوات الإسلامية بحمص حيث يقيم أبو عبيدة، وتعهدوا بمساندة النجدات البيزنطية إذا بعثها. وبعد أن استشار أبو عبيدة خالد بن الوليد الذي قدم لهذا الغرض من قنسرين، أشار بمواجهة القوات المنتظرة مباشرة، وأشار القادة الآخرون بالقتال تحصيناً، ثم كوتب عمر في المقالة، فأنجدهم بقوات كبيرة من فرسان العراق حيث يتولى القيادة العامة هناك سعد بن أبي وقاص، وقد وجه هذه النجدات بقيادة القعقاع بن عمرو. ثم وجه كتائب إلى أهم مراكز الجزيرة

---

(١) ن.م. وص.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ١٨٩؛ الكامل: ن. ص؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٩.

(٣) انظر المراجع المذكورة.

(٤) ابن خلدون: ن. ج وص؛ والمصادر العربية تسميه أرطبون.

لإيقاف كل زحف ممكن من جهتها. وتحرك عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة حيث توقف بالجابية لإغاثة حمص. وقد فوجىء الروم بهذا الزحف الإسلامي المضاد من العراق والشام ومركز الخلافة، فتخلى أهل الجزيرة عن هرقل، وحاولوا الرجوع إلى مراكزهم فشردتهم القوات الإسلامية على الرغم من تأخر وصول القعقاع مع احتياطيّه[1].

وهكذا كلف فتح الشام جهوداً غير هينة وذهب ضحيتها عدد وفير من الجيش الإسلامي. كما أن الفتح كلف الطرفين المتحاربين أزيد من أربع سنوات متوالية من الصراع العسكري. ومع ذلك فلم تكن فترة طويلة بالقياس إلى عدم التكافؤ العسكري للفريقين. وفي كثير من الأحيان كان العنصر العربي المسيحي يوالي الطرف البيزنطي لأسباب دينية وسياسية واجتماعية. ولكن هذا العنصر سيضع ثقته مع الأيام في حسن الرعاية الإسلامية والتعايش مع الإدارة الجديدة.

فتح الجزيرة

كانت هذه المنطقة تابعة للحكم البيزنطي. وقد رأى الخليفة أن افتتاحها ضروري بعد أن تهيأت لمواجهة الفاتحين، انتصاراً لهرقل. غير أن عمليات الفتح التي تمت خلال السنة ١٨ هـ لم تكن على يد أبي عبيدة ولا بمساعدة خالد بن الوليد[2]. ذلك أن خالد بن الوليد تم إقصاؤه بصفة نهائية عن العمل العسكري وولاية قنسرين منذ سنة ١٧، وكان عمر يتتبع أخباره وتصرفاته، فبلغه أنه اغتسل بمادة يدخل

---

(١) ابن الأثير: ٣٧١/٢؛ ابن خلدون: ٩٥٢/٢؛ زيني دحلان: الفتوحات ٥٩/١.

(٢) ابن الأثير: ٣٧٣/٢؛ والطبري: ١٩٦/٤ يتردّد في تحديد تاريخ الفتح بين ١٧ و١٩هـ.

الخمر في تركيبها، ثم علم أنه تصرف في إعطاء شطر من أموال الغنائم لبعض كبار الصحابة، فأمر أبا عبيدة بمحاسبته علناً، ثم استقدمه إلى المدينة فجدد محاسبته حتى وجد عنده مالاً إضافياً لم يستطع تبرير مصادره. ثم كتب إلى الأمصار يقول[1]: إني لم أعزل خالداً عن سخط ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعَرَضِ فتنة[2]. غير أنه ما لبث أن عوضه عما صادره منه.

وأما أبو عبيدة فيظهر أنه شرع في العمل لفتح الجزيرة، ولكن ما لبث أن توفي سنة ١٨ في طاعون عمواس[3]، بعد أن استخلف عياض بن غنم وأسند إليه عمر فتح الجزيرة والإشراف عليها وعلى حمص وقنسرين، وعين على ولاية الشام يزيد بن أبي سفيان[4]. وتمكن عياض ومساعدوه من افتتاح مراكز الجزيرة تباعاً وجلها فتحت صلحاً، كالرَّقة والرُّها ونصيبين. وتقدم عهود الصلح الموجزة التي احتفظت بعض المصادر بنصوصها فكرة جيدة عن تحديد مدى العلاقات بين الفاتحين والمراكز المفتوحة[5]. وحاول عياض أن يمد فتوحه إلى أرمينية، فتمكن من اقتحام أطرافها ثم عاد إلى حمص[6] حيث توفي سنة ٢٠ هـ. وكانت مجموعات من تغلب وسائر إياد قد حاولت أثناء افتتاح الجزيرة أن تلتجىء إلى آسيا الصغرى، ولكن عمر طلب من هرقل

---

(١) الطبري: ٢٠٦/٤؛ ابن الأثير: ٣٧٥/٢؛ ابن خلدون: ٩٥٧/٢.
(٢) الطبري: ن.م. ص ٢٠٥.
(٣) البلاذري: فتوح، ص ٢٣٧؛ الطبري، ص ٢٠١.
(٤) ن.م. ص ٢٣٦.
(٥) البلاذري: ص ٢٣٨ ــ ٢٤٠.
(٦) ن.م. ص ٢٤٢.

إعادة اللاجئين، فأعادهم دون أن يرغمهم على الإسلام[١]، ولكنه أضعف عليهم أموال الصدقة التي يؤديها المسلمون على الأرض والماشية[٢].

فتح الامبراطورية الساسانية

تركنا الأحداث في العراق تسير في جملتها لصالح العرب، ورأينا كيف وفق هؤلاء في زحزحة النفوذ الفارسي عن جنوب العراق في أيام أبي بكر. وراودت فكرة افتتاح الامبراطورية الساسانية قائداً عربياً طموحاً، هو المثنى بن حارثة الذي كان مطلعاً على ما يجري في البلاط الفارسي المهزوز، إلى أن كانت خلافة عمر، فكتب إليه كما يقول الفخري[٣] «يخبره باضطراب أمور الفرس وبجلوس يزدجرد بن شهريار على سرير الملك، وبصغر سنه». وهذا يعني جيداً أن البلاط الفارسي لم يجد مرشحاً ذا حنكة وكفاءة ليوليه غير هذا الشاب الحدث، الذي لا يمكن أن يقوم بعمل كبير لتصحيح الأوضاع الداخلية فضلاً عن مواجهة الجيش العربي، وكل هذا بعد توالي ثلاثة ملوك اثنان منهم امرأتان، وكلهم حكموا وقتاً قصيراً ومن غير فائدة[٤] أيام أبي بكر.

وقد عرفنا في عرض الحديث عن المواجهات الأولى بين الفرس والمسلمين في عهد أبي بكر أن هذه المواجهات بدأت على شكل غارات تولى قيادتها في أوائل خلافته، المثنى بن حارثة الشيباني الذي ما لبث أن عمل مساعداً لخالد بن الوليد في عهد هذا الخليفة، من أجل إقرار السلطة

---

(١) الطبري: ١٩٨/٤.

(٢) البلاذري: ص ٢٥١.

(٣) تاريخ الدول الإسلامية، لابن طباطبا، ص ٧٨.

(٤) ابن خلدون: ٩٠٨/٢ ـ ٩٠٩.

الإسلامية جنوب العراق لا سيما بالحيرة. وعندما تلقى خالد الأمر من أبي بكر بالالتحاق بالشام واستخلاف المثنى بالعراق كان عليه أن يعود إلى هذه المنطقة بعد إنهاء فتح الشام. ولّما استقر المثنى بالحيرة التي دخلت تحت النفوذ الإسلامي، حاول الفرس بقيادة هرمز أن يستعيدوها، لكن الجيش الإسلامي ردهم على أعقابهم وطارد فلولهم حتى اقتربوا من المدائن. واحتاج المثنى بعد هذا إلى إمدادات فأبطأت عليه، ثم توجه إلى المدينة مستخبراً، فوجد أبا بكر في حالة احتضار[1]، وهذا ما جعل عمر بن الخطاب ينفذُ على الفور بعد توليته، وصية سلفه بشأن إمداد المثنى[2]. ولما كانت عملية الجهاد في هذه الظروف تطوعية لأنها ليست دفاعاً عن مهد الإسلام ولا عن أرض إسلامية بل هي مواجهة لدولة قوية تقيم سلطتها على أرض عربية وتهدد مستقبل الإسلام على أية حال، فان الخليفة الجديد حاول في جمع للمؤمنين أن يشجع في خطاب حماسي ومؤثر[3]، جميع الحاضرين، لمواجهة الفرس بالحصول على الغنائم وتحقيق مزيد من الانتصارات للإسلام. بل إنه اشتغل أيام البيعة الثلاثة لانتداب المتطوعة. فكان أولهم في نهاية الأمر، أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي، ثم سعد بن عبيدة الأنصاري وسليط بن قيس، وتتابع المتطوعة بعدهم، فتولى إمرتهم أبو عبيد المذكور[4].

ويوضح الطبري[5] مدى المهابة التي كانت للفرس في نفوس

---

(١) ن.م. ص٩٠٧.

(٢) الطبري: ٤/٦١ و٦٣؛ ابن خلدون: ن.م. وص.

(٣) المقدسي: البدء والتاريخ ٦/١٦٩؛ الطبري: ن.م. وص.

(٤) المصادر المذكورة، بنفس الصفحات؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٢٩٧.

(٥) الطبري: ن.م. وص.

العرب بقوله: «وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم».

ولما كان المثنى بن حارثة وهو قائد كفؤ أحق من غيره بقيادة الجيش الغازي بالعراق لسبقه، ولأنه هو الذي حمّس كلاً من أبي بكر وعمر لغزو فارس، فإن المفروض أن تسند إليه هذه القيادة في أيام عمر، لكن الخليفة أسندها إلى أحد المتطوعة الجدد، فإن المثنى من أقرباء خالد بن الوليد، وهناك من غير شك رغبة مكينة من عمر في أن تكون مسؤولية القيادة لصحابي أسلم في عهد الرسول[1] (ص)، وله مكانة بين قومه، وقد عرف باتزانه وعدم تعجله في اتخاذ القرارات[2]، ولذلك أمر الخليفة المثنى باستقباله، «والسمع والطاعة له»[3]. وهذا تأكيد مبكر من عمر للمثنى بأنه لن يطمع في قيادة جبهة واسعة إن كان هذا الطموح يداعبه. وعلى كل، فسيظل المثنى قائداً بارزاً في الجبهة الفارسية، وقد قام بأعمال موفّقة في فتوح العراق لقيت تنويه الخليفة عمر نفسه، وعند عودة المثنى إلى الحيرة التحق به أبو عبيد بعد شهر[4]. وفي هذه الأثناء تولى القيادة العامة رستم على الجيش الفارسي بطلب من بوران بنت كسرى، فعمل على إثارة الفرس الخاضعين للسلطة العربية في منطقة السواد[5]، وانتدب كلاً من جابان ومردانشاه لمواجهة العرب في النمارق على مقربة من

---

(١) زيني دحلان: الفتوحات ١/٨٧.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٥٠؛ الطبري: م.س؛ ابن الأثير: م.س. ص ٢٩٨.

(٣) البلادري: ن.م. وص.

(٤) الطبري: ٤/٦٣؛ ابن الأثير: ن.م. وص.

(٥) ن.م. والصفحتين.

الكوفة[1]، حيث هزم الفرس وقتل جابان، وأسر مردانشاه ثم أطلق سراحه. ثم دارت معركة أخرى بالسقاطية من كورة كسكر بين البصرة والكوفة، فهزم الجيش الفارسي بقيادة الجالينوس. وقد أتاحت هذه الانتصارات استيلاء الجيش العربي على مراكز هامة من كسكر.

وما لبثت الحرب أن اتخذت صورة مواجهة ضارية في سلسلة من الوقائع التي يطبعُها التاريخ الإسلامي بالطابع الملحمي حيث يزكيه الأدب في ذلك أيضاً، وتوالت الملاحم والفتوحات كما يأتي:

١ ـ وقعة الجسر (بكسر الجيم) بقرب الحيرة

سميت أيضاً بيوم قس الناطف وببعض أسماء أخرى، وكانت رداً على الهزائم السابقة التي حلت بالفرس، حيث تولى قيادة الجيش الفارسي القائد المسن بهمن جادويه، وكان بالمكان جسر على الفرات فعسكر كل من الفريقين بإحدى العدوتين، ثم هم أبو عبيد بإعطاء الأمر لجيشه بالعبور، فنصحه مساعدوه بالبقاء حيث هو بانتظار أن يعبر الفرس، لكنه رفض، ثم عبر إلى العدوة المقابلة وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، لكن أبا عبيد قتل، ثم عمد رجل من ثقيف إلى قطع الجسر، حتى لا يتراجع الجيش الإسلامي. ولكن كثيراً منهم تراجعوا فغرقت مئات وقتلت مئات فكانوا حوالي أربعة آلاف قتيل وجريح. وكان همّ أبي عبيد أن يغامر من أجل الاستشهاد دون اعتبار للخطر الشامل. وهرب ألفان وبقي المثنى في قلة وقد جرح هو نفسه[2].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، مادة «النمارق».

(٢) انظر بشأن هذه الوقعة: البلاذري: فتوح ٣٥١؛ الطبري: ٦٧/٤ ـ ٧٠؛ ابن الأثير: ٣٠١/٢؛ المقدسي: البدء والتاريخ ١٦٩/٦؛ ياقوت: معجم البلدان، مادة «الجسر»؛ ابن خلدون: ٩١١/٢ ـ ٩١٣.

وكان قتل أبي عبيد على يد فيل صحبه الجيش الفارسي، وقتل تحت أقدامه عدد من حملة الراية في الجيش العربي.

أما الفارون وجلهم من المدينة، فقد استقبلهم المهاجرون والأنصار جزعين، غير أن عمر واساهم بعبارات تنم عن العطف والرحمة.

وكانت وقعة الجسر في آخر رمضان من السنة ١٣ (١). وعند الذهبي أنها كانت في السنة ١٤. وقال إنها كانت على مرحلتين من الكوفة في نجران(٢)، وهي غير نجران اليمن.

ولم تكد فلول المسلمين تتراجع إلى المدينة حتى انتدب الخليفة متطوعة جدداً للقتال مع المثنى، وكان فيهم بجيلة وغيرهم. كما انتدب جموعاً من المرتدين السابقين، بينما التحق بالمثنى متطوعون من نصارى عرب النمر بقيادة أنس بن هلال، وإنما فعلوا ذلك مساعدة لإخوانهم المحاربين(٣). وأقنع الخليفة جموعاً من الأزد بالالتحاق بالجيش المحارب بالعراق عوض الشام، وكانوا نحو سبعمائة(٤).

وحسب البلاذري(٥) فإن عمر تريث سنة قبل أن يدعو العرب إلى متابعة القتال ضد الفرس بعد هزيمة الجسر. وهكذا بعث رستم بالقائد مهران الهمداني ليتصدى لجموع العرب عند البويب(٦)، وهو

---

(١) الطبري: ٦٧/٤؛ وابن الأثير: ن.م. وص.

(٢) الذهبي: العبر ١٧/١.

(٣) الكامل ٣٠٣/٢؛ ابن خلدون: ٩١٢/٢.

(٤) الطبري: ٧٢/٤؛ البلاذري: ص ٣٥٣.

(٥) فتوح البلدان، ص ٣٥٣.

(٦) وليس العذيب كما عند ابن خلدون نسخة لبنان ٩١٢/٢؛ والوقعة المقصودة أيام عمر وليس في عهد أبي بكر كما في ياقوت (لفظ «البويب»).

نهر صغير من روافد الفرات على مقربة من الكوفة. ومرة أخرى تحدث المعركة حول جسر لكن الفرس هم الذين يجتازون إلى جهة العرب. وكانت الخطة التي سلكها المثنى هذه المرة بعد تنظيم صارم لصفوف جيشه، أن هاجم بنفسه القائد مهران حيث زحزحه عن مركزه كما تقول الرواية العربية(١)، وهاجمت المجنبتان، ميمنة وميسرة الفرس، وتكفَّل المثنى وفيلقه بمهاجمة القلب، ثم منع جموع المتراجعين من الفرس من استخدام الجسر وقتلت أعداد كبيرة من هؤلاء، قيل أنها بلغت مائة ألف، وإن كان هذا العدد لا يمكن قبوله لضخامته ولأنه يقتضي أن المعركة كانت في ميدان مغلق وأنه لا يوجد مسلحون من الفرس يقاومون. ومهما يكن من أمر فإن وقع الهزيمة كان شديداً على الطرف الفارسي. غير أن العرب نفدت مؤونتهم، فأغاروا على سوق الخنافس بقرب الأنبار. وهي سوق يتجمع فيها تجار المدائن والسواد، ثم أغاروا على سوق بغداد حيث حصلوا على ما يكفي لمؤونتهم، فضلاً عن أموال قيمة. وحسب الطبري فإن أحداث البويب والخنافس وسوق بغداد قد وقعت في السنة ١٣، وعند البلاذري وآخرين أنها حدثت في السنة ١٤(٢).

وإثر هذه الوقائع، أصبح الجزء الجنوبي الواقع بين دجلة والفرات، وبين سوق بغداد والبصرة تحت مراقبة الجيش العربي، بينما كان النزاع على السلطة بين رستم والفيرزان يشغل البلاط والشعب الفارسي. غير أن تحول الأحداث لصالح العرب جعل أمراء الفرس

---

(١) ابن خلدون: ٢/٩١٣.

(٢) انظر بشأن هذه الأحداث: الطبري: ٤/٧١ـ٨١؛ الكامل ٢/٣٠٣ـ٣٠٧؛ البلاذري: ٣٥٣ـ٣٥٦؛ ابن خلدون: ٢/٩١٢ـ٩١٤.

وقادتهم يعملون قبل كل شيء على محاولة تسوية مشكلة العرش قبل التحرك لمواجهة حاسمة مع العرب، وهكذا تم الاتفاق على ترشيح يزدجر بن شهريار بن كسرى، وهو أمير مغمور من الأسرة المالكة، ولم يكن عمره يتجاوز العشرين أو قريباً منها. وكان ترشيحه بإيعاز من بوران عمته. وكان من أعماله الأولى أن وزع حاميات قوية لاستعادة المراكز التي أخذها العرب، وللمرابطة بها. وشجع ذلك أهل السواد على نقض عهودهم والتعامل مع الجيش الفارسي. وبعد أن كاتب المثنى عمر بهذه الأحداث تلقى منه أمراً بسحب جميع القوات والعناصر المدنية الإسلامية إلى أقصى جنوب العراق جهة البصرة. وكانت هذه مفاجأة للقوات العربية وللمثنى لم يكن بدّ من تقبلها في انتظار ما سيقرره الخليفة، والحق أن عمر كان يهيىء بدوره لمواجهة بالغة العنف ضد الفرس، وذات تأثير حاسم في الأحداث بعدها.

٢ ـ موقعة القادسية

هذه بالذات هي المواجهة التي كان على الطرفين أن يخوضاها كل لغاية محددة، فالفرس يدافعون عن امبراطوريتهم، والعرب يدافعون عن مصيرهم العقائدي، وعن أرض يشغل العرب القسم الأكبر منها أصلاً، والمقصود هنا أرض العراق.

وهكذا تم احتشاد جموع كبيرة من العرب على ثلاثة أميال من المدينة باتجاه العراق في منطقة تدعى (صرار)(١) حيث توجد نقطة ماء(٢). وبعد استشارة جماعية قام بها الخليفة بشأن الزحف نحو العراق، كانت رغبة القاعدة أن يرافق الخليفة الجيش الزاحف، ثم

(١) بكسر الصاد.
(٢) الطبري: ٨٣/٤.

اختص بالرأي صحابة النبي وقادة العرب، فكان رأيهم أن يقيم ويبعث على رأس الجيش صحابياً، فإن وفق في الفتح فذاك، وإلا انتدب قائد آخر مع إمدادات[1]. وكانت هذه الأحداث فيما يبدو في أول سنة ١٤ هـ وبعد أن تولى عمر رئاسة الحج وأمر العمال أن يمدوه بكل ما يمكن من السلاح والمقاتلين، ثم استشار الحاضرين كما تقدم، وخطب فيهم خطبة أبان فيها عن قراره بالبقاء بالعاصمة تبعاً لرأي القادة والصحابة[2]، وإن كان فيهم من حبذ شخوصه إلى العراق. ولكنه عندما استمع إلى رأي عبد الرحمن بن عوف الذي خوفه من عواقب هزيمة السلمين في حال مقتل خليفتهم في الحرب حيث يؤدي ذلك إلى نكسة محتملة للإسلام كله، آثر عندئذ انتداب صحابي كبير هو سعد بن أبي وقاص لقيادة الجيش عموماً، وكان من قبل على صدقات هوزان. ثم وجه إليه تعليماته ونصائحه بشأن معاملة الجيش وعدم اعتبار نفسه مختصاً بالفضل عليهم، وأمره بالتزام الصبر والثبات ليكون قدوة لغيره.

ولم يصحب سعداً إلا حوالي أربعة آلاف مقاتل، منهم ثلاثة آلاف من أهل اليمن والباقي من سائر أنحاء بلاد العرب[4]. وقد تحرك الجيش بعد أن استمع إلى خطاب توجيهي من الخليفة[5]. ثم اتجه نحو زرود من أرض العراق، وبدأت الفرق التابعة للمثنى

---

(١) ن.م. وص. وابن الأثير ٢/٣٠٩.
(٢) ن.م. والصفحتين؛ ابن خلدون: ٢/٩١٦.
(٣) الطبري: ٤/٨٤ــ٨٥؛ ابن خلدون: ٢/٩١٧.
(٤) الطبري: ص ٨٥؛ ابن خلدون: ن.م. وص.
(٥) الطبري: ٤/٨٥ــ٨٦.

بالتحرك وتبلغ ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف مقاتل[1]. غير أن المثنى مات من جراحة انتفضت عليه. وكان من رأيه أن يحارب العرب الفرس فيما بين القادسية والعذيب[2]، وجاءت توجيهات الخليفة إلى سعد بمثل[3] ذلك، كما أمره بترك كتائب تحافظ على خطوط الرجعة عند الحاجة، خصوصاً قرب خليج البصرة الذي كان العرب يعدونه منفذاً للهند. ونفذ سعد تعليمات الخليفة أيضاً، بشأن توزيع الكتائب والمقدمة والساقة والمجنبات والطلائع والعرافات. وكانت عمليات هذه التعبئة بشَرَاف. وتجاوز مجموع الجيش ثلاثين ألفاً حسب الطبري، وابن الأثير، ولم يكن عشرة آلاف كما عند البلاذري[4]، لأن خطورة المواجهة وتحديد أعداد النجدات وتسمية مصادرها عند الطبري وابن الأثير وغيرهما تؤكد ارتفاع عدد الجيش الإسلامي نسبياً، والذي كان ضمنه نجدة هامة بعثها أبو عبيدة من الشام وكانوا ستة آلاف محارب عراقي. والحق أن المواجهة الجديدة أسهم فيها عدد كبير من خيرة قادة العرب وشبابهم، وكان بينهم ٩٩ ممن شهدوا بدراً وعديدون ممن شهدوا غزوات الرسول.

وتحرك الجيش من شراف[5] (بفتح الشين) باتجاه العذيب قرب الكوفة. وقد تطلبت كل هذه التحركات والإجراءات شهوراً كان القائد العام سعد بن أبي وقاص يتلقى خلالها تعليمات عمر ويرد عليها.

---

(١) الطبري: ٨٦/٤؛ وابن خلدون: ن. م. وص.
(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٥٦.
(٣) الطبري: ٨٧/٤.
(٤) البلاذري: فتوح، ص ٣٥٧.
(٥) ابن الأثير: ٣١٣/٢، وليس من سيراف كما عند ابن خلدون، وهو تصحيف مطبعي أو من المحقق.

أما الفرس فقد عبأوا قواهم بقيادة رستم قرب الحميرة، وكانوا قد استردوا كل ما استولى عليه العرب تقريباً. غير أن هؤلاء في زحفهم نحو العذيب قاموا بغارات على السواد[1] شبيهة بالغارات التي قام بها المثنى من قبل. وكان القائد عتبة بن غزوان قد قام بإنشاء أول مدينة عربية خارج شبه الجزيرة، وهي البصرة[2] التي ستقوم منذ الآن بدور بالغ الأهمية على الصعيد العربي والدولي. وهذا يعني جيداً أن الفرس لم يجرأوا على زحزحة العرب من مواقعهم حول البصرة وبمكانها، وأن العرب عرفوا كيف يتحكمون في هذا الوقت المبكر في منفذ مائي ذي موقع استراتيجي فريد في المنطقة. وقام سعد بتوجيه فرقة تخريبية نحو الحيرة بقيادة عبد الله بن بكير الليثي. فقطعوا جسراً باتجاهها، ثم نصبوا كميناً لموكب عرس صادف أن كان موكب أميرة من الأسرة المالكة[3]، فاستولوا عليه وعلى ما فيه من أموال، ثم استاقوا النساء حيث خصصت فرقة من الجيش لحمايتهن. وكان من رأي رستم أن لا يجابه العرب لأول وهلة في حرب عامة، بل يوجه إليهم فرق مصادمة في حروب استنزافية متوالية، ولكن يزدجرد لم يرض إلا بمواجهة عامة[4]. وذلك ما جعل رستم يتوجه نحو الحيرة في جيوش تنوف عن ستين ألفاً[2] حيث منع كل إمدادات من المؤن عن الجيش الإسلامي الذي كان مع تلقيه المؤن من المدينة يضطر لكثرته وطول ملازمته للمكان إلى المزيد، فيلجأ إلى الغارات على المراعي والقرى

---

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ٦/١٧١.

(٢) ن.م. ص ١٧٠.

(٣) الطبري: ٤/٩١؛ ابن الأثير: ٢/٣١٣.

(٤) ابن خلدون: ٢/٩١٩؛ ابن الأثير: ٢/٣١٤ ـ ٣١٥.

(٥) المقدسي: ٥/١٧١.

للاستيلاء على الدواب. وبذلك تمكن العرب من الصمود فترة طويلة لمجابهة الفرس، ثم عسكر سعد بالقادسية مدة شهرين ينتظر هجوماً من الفـرس[١]، بينما عسكـر هؤلاء بسابـاط القريبـة من المدائن، استعداداً للدفاع. وتنفيذاً لتعليمات الخليفة عمر، وجه سعد بن أبي وقاص وفداً إلى يزدجرد من طريق رستم ليعرض عليه مطالب الجيش الإسلامي المعتادة، والتي هي الخيار بين الإسلام والجزية والحرب، فرد عليهم بأن قدم إليهم وعاء تراب. وتضفي الرواية العربية صبغة أدبية حماسية عـلى أقوال أعضـاء الوفـد وردودهم على يـزدجرد بـواسطة الترجمان[٢].

أما القادسية التي نزل بها الجيش الإسلامي فقيل نسبت إلى قصر يدعى القديس (بضم ففتح)[٣] وهي منطقة شاسعة على مقربة من الكوفة[٤]. وقد أحدث توغل العرب إلى هذه المنطقة القريبة نسبياً من المدائن اضطراباً شديداً في الأوساط الفارسية، لا سيما الفلاحين الذين تعرضت مواشيهم وزروعهم للنهب وقاموا بضغط متواصل على البلاط حتى يعمل على رد المهاجمين.

وهكذا نظم رستم جيشه بشكل يتقارب مع التنظيم العربي، أو لعل العكس أصح، لأن حروب العرب في الجاهلية كانت كلها تقريباً على طريقة الكر والفر، ومن غير أي تنظيم محكم. فكان على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وعلى ميمنته الهرمزان، وعلى ميسرته

---

(١) ابن الأثير: ص ٣١٤.
(٢) الطبري: ٤/٩٣ ـ ٩٦؛ المقدسي: م.م. ص ١٧٢ ـ ١٧٣؛ البلاذري: ٣٥٨ ـ ٣٥٩؛ ابن الأثير: ٢/٣١٤ ـ ٣١٦.
(٣) ياقوت: معجم: (القاديسة، وقديس).
(٤) ن.م.

مهران بن بهرام، وعلى ساقته البيرزان[1]. وأحضر أكثر من ثلاثين فيلاً. وكان مجموع جيشه لا يقل عن مائة وعشرين ألفاً مع أعداد كبيرة من الخدم والأتباع[2].

ومرة أخرى يقف كل من الجيشين على ضفة نهر، وكان هذه المرة نهر العتيق، فطلب رستم مبعوثاً يفاوضه فوجه إليه ربعي بن عامر[3]، وقيل إن الجيش الفارسي اختطف جندياً عربياً ثم قدمه إلى رستم، فجرى حوار بينهما بشأن الإسلام ودعوته[4]، وقيل إنه استقبل على التوالي مجموعة من الجند والقادة بعث بهم إليه سعد بن أبي وقاص، وأنه مال إلى الصلح وكان يتوقع هزيمة الفرس. وعندما خلا بأركان حربه ومستشاريه رفضوا كل مصالحة وأصروا على الحرب.

ثم عبر الفرس قنطرة العتيق، وتركهم العرب يعبرون، لأنهم استفادوا من تجربة وقعة الجسر التي كانت عملية انتحارية بالنسبة إليهم، ولم يستطع سعد أن يساهم بنفسه في المعركة، لأنه كان مصاباً بدماميل تمنعه من التحرك على الفرس، فاعتذر إلى الجيش، وكان يراقب ويوجه العمليات بنفسه، ووكل القيادة المباشرة إلى خالد بن عرفطة[5]، وكانت تعليمات سعد توجه كتابة في عين المكان[6].

واستعان سعد بالتشجيع الروحي والديني للمقاتلين، فأحضر

---

(١) الطبري: ٤/٩٧، ٩٨؛ وانظر أيضاً: ص ١٠٤.
(٢) ن.م. ص ٩٨.
(٣) ابن خلدون: ٢/٩٧٤.
(٤) الطبري: ٤/٩٩، ١٠٥ ــ ١١٣.
(٥) المقدسي: البدء ٥/١٧٤؛ الطبري: ٤/١١٤.
(٦) الطبري: ٤/١١٣.

مجموعة من القراء والشعراء لهذه الغاية. وكان لقراءة سورة الأنفال التي تتعلق بالجهاد تأثير بليغ على معنويات الجيش، حيث هشت قلوب الناس وعرفوا السكينة مع قراءتها كما تقول الرواية العربية[1]. وتولى خالد بن عرفطة، إلقاء خطاب حماسي في جموع الجيش المحيطة به، وفعل القادة المساعدون مثله، كلٌّ في فرقه[2]، ثم تلقى الجيش أمر سعد بالتكبير أربع مرات بعد أن يكبر هو ، وفي الرابعة تتم دعوة الجيش الفارسي إلى المبارزة كمقدمة للصدام العام. وبعد مبارزات محدودة أسر خلالها أمير فارسي، هاجمت الفيلة صفوف بَجِيلة وأسد، فعمل المسلمون على قطع أذنابها وإسقاط توابيتها وراكبيها، غير أنها سطت على نحو خمسمائة من أسد، وانتهت المعركة في منتصف الليل، وسمي هذا اليوم يوم أرمات. وتولت النساء معالجة الجرحى ودفن الموتى، بينما قدمت نجدات من الشام في صباح اليوم التالي وجهها أبو عبيدة ابن الجراح بقيادة القعقاع بن عمرو. وتم نقل الشهداء إلى العذيب[3]. وكان القعقاع إنما دخل بطليعة من عشرة جنود، ثم تلاحق به باقي جيشه، وقد طلب البراز لرفع معنويات جيش العراق[4]، ثم حمل بأصحابه على قطعة من الجيش الفارسي وتكررت حملاته كلما تلاحقت به كتائبه. وبفضل نجدة القعقاع تمكن العرب من تحقيق نصر إيجابي في هذا اليوم الثاني من القتال الذي سمي يوم الأغواث، حيث أغيث فيه المسلمون بعد ما لقوه في اليوم السابق. ثم حاول المسلمون في اليوم الثالث أن يهاجموا قلب الفرس، وكانوا قد

---

(١) ابن الأثير: ٢/٣٢٥؛ ابن خلدون: ٢/٩٢٩؛ الطبري: ٤/١١٦.
(٢) الطبري: ٤/١١٤ ـ ١١٦.
(٣) ن.م. ص ١٢٠.
(٤) تذكر بعض الروايات أنه قتل الفيرزان في مبارزة فردية، والحقيقة أن الفيرزان سيظهر في معارك أخرى كما سيأتي.

جددوا توابيت الفيلة، وحاولوا إرهاب خيل المسلمين بها. ولما كانوا يطلقون الفيلة واحداً واحداً فإنها لم تؤثر بشيء، في صفوف العرب. وهكذا مر اليوم الثالث الذي سمي يوم عماس دون تحقيق نصر لأحد الجانبين. وقد قتل من الجانب الفارسي عشرة آلاف حسب تقدير الرواية العربية.

وفي اليوم الرابع عمد القعقاع من غير إذن سعد إلى مهاجمة مؤخرة الجيش الفارسي فتلاحقت به أسد وبجيلة وكان القتال في أول هذا اليوم ليلاً حيث سمي ليلة الهرير، لأن الجيش كان لا يتبادل كلاماً وإنما يحدث صوتاً كالهرير. وسميت الموقعة أيضاً بليلة القادسية، وأصر القعقاع على متابعة القتال بعدطلوع الصبح، ثم قصد فريق نحو رستم الذي تمكن أحدهم من الوصول إليه فألقاه عن ظهر دابته وحاول أن يلقي بنفسه في العتيق لكنه أمسك به ثم قتله، وأعلن عن قتله كما أخذ سلبه. وكان مقتل رستم بداية النهاية بالنسبة للجيش الفارسي الذي حاول أن يعبر العتيق. ولكن ثلاثين ألفاً كانوا مسلسلين لم يستطيعوا النجاة فلم يفلت منهم أحد. وحصل المسلمون على الراية الكبرى للجيش الفارسي، وقيل إن ما حصل عليه المسلمون من الغنائم في هذه الموقعة «لم يجمع قبله ولا بعده مثله»(١). وكان من المنهزمين الذين تتبعهم المسلمون، الجالينوس الذي قتله زهرة بن حَيويّة قائد المقدمة(٢). وتمكن الهرمزان من الإفلات.

ومن الطريف أن عدداً من الديلم ورؤساء المسالح من الفرس

---

(١) ابن الأثير: ٣٣٧/٢؛ الطبري: ١٣٣/٤.

(٢) ابن خلدون: ٩٣٤/٢؛ الطبري: ١٣٤/٤؛ وابن خلدون: يذكر زهرة بن حيوة.

قاتلوا إلى جانب المسلمين؛ ولما شاهدوا مصرع رستم وهو أعظم قادة الفرس وأعقلهم توقعوا مصرع الامبراطورية الفارسية فأعلنوا إسلامهم[1]. ثم كتب سعد إلى عمر بالفتح واستأذنه في متابعة القتال فأمره بالتوقف حيث هو، وبارتياد مكان يصلح تجمعاً سكنياً جديداً متقدماً، فاهتدى إلى مكان الكوفة[2].

على أنه لا يمكن الجزم بتاريخ نهائي لمعارك القادسية التي يبدو من ربطها بالبدء في تخطيط الكوفة أنها حدثت على الأصح في أعقاب سنة ١٦، بينما تم تخطيط الكوفة سنة ١٧. أما الأحداث السابقة لموقعة القادسية، فقد مرت في تحركات بطيئة واحتشادات وغارات استغرقت شهوراً طويلة كما سبق.

٣ ـ فتح المدائن

استغل الجيش الإسلامي فرصة الانحدار الذي حل بالفرس، فزحف باتجاه المدائن يقيم عليها حصاراً شديداً وهي يومئذ عاصمة الامبراطورية الفارسية. وكانت المدائن مجموعة مدن بناها الأباطرة السابقون بالتعاقب[3].

وكان على مقدمة الجيش العربي زهرة بن حوية[4] يساعده قائدان آخران. وفي الطريق اعترضتهم قوات فارسية فهزموها وطاردوها حتى بابل، ثم واصل الجيش الإسلامي زحفه حتى بلغ أبواب بهرسير، وهي إحدى التجمعات الحضرية الكبرى التي تكوّن المدائن. وأثناء

---

(١) الطبري: ٤/١٣٤.
(٢) ن.م. ص ١٤١ ـ ١٤٢
(٣) ياقوت: معجم (مادة «المدائن»).
(٤) ابن خلدون: ٢/٩٣٥.

ذلك أعلن سكان غربي دجلة إذعانهم للجزية[1]. وأعطى يزدجرد الأمر بقطع الجسور القريبة[2]، وبتعبئة السفن لاستعمالها للانسحاب[3]. لكن الجيش الإسلامي استولى عليها واستعملها لعبوره. ثم نصبت المجانيق وهي عشرون، والعرّادات والدبابات[4]، وحاصر المسلمون العاصمة عدة أشهر (ما بين ٧ و ٩)، وفي النهاية انسحب يزدجرد بأمواله وكنوزه إلى حلوان. وقد ضاق السكان بالحصار حتى اضطروا إلى أكل القطط والكلاب[5]. والتحق جلهم بحلوان بعد انسحاب يزدجرد وتركوا أموالاً وأغناماً ومؤونة كثيرة كانت في قصور الملك والأمراء، وبذلك تمكن الجيش الإسلامي من دخول عاصمة شبه خالية إلى أن تراجع إليها السكان على أداء الجزية. واتخذ إيوان كسرى مصلى من غير أن تحطم تماثيله[6]. وبينما تم تقسيم الأنفال في عين المكان، وجهت بعض الأشياء الثمينة الخاصة بكسرى كتاجه وحليه وسيوفه إلى الخليفة ليتولى النظر فيها، وبينها ما هو لغيره من الملوك والأمراء. وقيل إن الذين استفادوا من الفيء كانوا ستين ألفاً[7]. أما الفلاحون فقد صولحوا على الخراج حتى يضمن ولاؤهم وثقتهم في السلطة الجديدة، ولمواصلة استغلال الأرض التي أصبحت تحت مراقبة هذه السلطة.

---

(١) ابن الأثير: ٣٥٥.

(٢) المقدسي: البدء ١٧٧/٥.

(٣) ن.م. وص؛ البلاذري: فتوح ٣٦٧.

(٤) ابن الأثير: ٣٥٥/٢؛ الطبري: ١٦٩/٤.

(٥) ابن الأثير: أعلاه.

(٦) ن م.؛ الطبري: ١٧٤/٤ و١٧٧.

(٧) الطبري: ن. ص.

ويعد التخلي عن المدائن من لدن يزدجرد وأنصاره عملاً استلامياً على الرغم من صمودهم لحصار متوسط المدة وكان فتح المدائن سنة ١٦ هـ.

٤ ـ فتح جلولاء وحلوان

حاول يزدجرد أن يعمل على إعداد حزام دفاعي قوي بينه وبين الجيش الفاتح، فترك بجلولاء وهي بين المدائن وحلوان جيشاً كبيراً بقيادة خورزاذ(١). وتحصن الفريق بجلولاء، وخندقوا ما حولها كعادتهم في الدفاع عن المدن، بينما انتقل يزدجرد إلى حلوان ينتظر تطور الأحداث. وبعث سعد جيشاً لمهاجمة جلولاء من اثني عشر ألف مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة حسب تعليمات الخليفة(٢) الذي أوصى بأن يكون على مقدمته القعقاع بن عمرو. وحوصر الفرس ثمانين يوماً، ثم حاول القعقاع مهاجمة المدافعين عن الخندق وكان مملوءاً حسكاً غير أن عاصفة مصحوبة بظلمة حالكة ساعدت المسلمين على زحزحة المدافعين من الفرس، ثم تساقطت أعداد من فرسانهم وخيولهم في الخندق، وعندئذ اشتبك الفريقان بالسلاح الأبيض إلى أن انحطت مقاومة الفرس حيث قتلت آلاف عديدة منهم(٣). ولم تجد الإمدادات المتوالية التي تواردت عليهم من جهات مختلفة، لأن سعداً كان يوجه النجدات بدوره من المدائن إلى هاشم.

ووردت تعليمات الخليفة بإرسال القعقاع إلى حلوان وبقاء هاشم

---

(١) المقدسي: البدء ١٧٩/٥.
(٢) ابن الأثير: ٣٦٣/٢.
(٣) انظر التفاصيل في الطبري: ١٧٩/٤؛ ابن الأثير: ٣٦١/٢؛ المقدسي: ١٧٨؛ البلاذري: ٣٦٨؛ ابن خلدون: ٩٤٠/٢.

بجلولاء لحمايتها[1]. وكان فتح جلولاء في ذي القعدة من سنة[2] ١٦ هـ. ولما تقدم جيش القعقاع إلى حلوان لمهاجمتها واجهه الفرس بظاهرها بينما التحق يزدجرد بالري. وأصاب الوهن قائد الحامية الفارسية فانسحب[3]. وهكذا تم فتح حلوان بسهولة، وحصل الفاتحون على غنائم وأموال عظيمة. وعندما قدمت أخماسها إلى الخليفة قرر توزيعها على الفور، وقال والانفعال يهزه حتى البكاء: «والله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضْوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم!». وكذلك صمم عمر على ترك أراضي السواد بيد الفلاحين وأن لا توزع على الفاتحين، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص قائلاً: «إنك إن قسمتها بيد من حضر، لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء»[4]. على أن هذا القرار لم يشمل كل الأراضي المفتوحة لكثرتها.

وخلال انشغال العرب بمحاصرة المدائن تمكنوا من فتح تكريت، وهي مركز تابع للسلطة البيزنطية، ويقع قرب بغداد في طريق الموصل. وحوصرت تكريت مدة أربعين يوماً بقيادة عبد الله بن المعتم[5] (بفتح التاء وتشديد الميم). وكان جيش المسلمين يتكون من خمسة آلاف محارب، غير أن العرب النصارى الذين كانوا مقيمين بالمنطقة هيأوا لفتح المدينة بالتعاون مع المسلمين، كما أعلنوا إسلامهم

(١) الطبري: ٤/١٨٥.
(٢) البلاذري: ص ٣٧٠؛ ابن الأثير: ٣٦٣.
(٣) ن.م.
(٤) البلاذري: ص ٣٧١؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٢.
(٥) الطبري: ٤/١٨٦؛ ونسب فتح تكريت أيضاً إلى عبد الله بن فرقد، وهو فتح ثان كما يظهر من كلام البلاذري: ص ٤٦٦. وانظر بشأن تكريت أيضاً: ياقوت: معجم (مادة «تكريت»).

تلقائياً بعد أن دعاهم الجيش الإسلامي لذلك[1]. وهكذا اقتحم المسلمون تكريت فبادر أهلها لمصالحة الفاتحين[2]، وكان ذلك خلال سنة ١٦ هـ.

٥ ــ فتح الأهواز

وهي منطقة غنية بمنتجاتها خصوصاً السكر والتمر[3]، ومركزها خوزستان، وهي شاسعة تشتمل على عدة كور بين البصرة ومنطقة فارس كما ذكر ياقوت. وكانت أول محاولة لفتحها في أواخر سنة ١٥ أو في بداية ١٦ هـ حيث استولى عتبة بن غزوان عامل البصرة على سوق الأهواز وهي من مدن المنطقة فصالحه أهلها ثم نقضوا عهدهم إلى أن تولى أبو موسى الأشعري فتحها[4] سنة ١٧ هـ. وكان فتحها كما يقول البلاذري رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً، لأنها منطقة غنية جداً بأنهارها الدافقة. ويروي ابن الأثير والطبري روايات مختلفة في فتحها حيث ينسبانه إلى عتبة. وكان الدفاع عن المنطقة قد تولاه الهرمزان منذ أن انسحب من القادسية. وقد أسره العرب بعد مطاردة طويلة[5] ثم بعث به إلى عمر بن الخطاب، فأعلن إسلامه. ومن القادة الذين ساهموا من العرب في فتح الأهواز: النعمان بن مقرن (وعلى يده استسلم الهرمزان في قلعة تستر)، وسهل بن عدي، وعرفجة بن هرثمة وغيرهم.

---

(١) ن.م.وص؛ الكامل ٢/٣٦٥.
(٢) ن.م.س.
(٣) ياقوت: معجم. مادة «أهواز». وأصل الكلمة عربي وهو «أحواز» فحرفها الفرس.
(٤) البلاذري: ص ٥٣١؛ الذهبي: العبر ١، ص ٢١.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٨٣؛ البلاذري: ص ٥٣٦؛ ابن خلدون: ٢/٩٦٥؛ الطبري: ٤/٢١٦.

وخلال سنة ١٧ حاول العلاء بن الحضرمي عامل البحرين غزو فارس دون أن يتلقى إذن الخليفة، وإنما لمنافسة كانت بينه وبين سعد بن أبي وقاص. حتى إذا نزلت جيوشه بشاطىء اصطخر وجدت مقاومة شديدة من الفرس الذين استولوا على سفن الغزاة[1]، بالرغم من الشجاعة التي أبداها هؤلاء حتى قتل عدد من قادتهم وبعضهم من أصل فارسي عريق كالخُليد بن المنذر بن ساوى. ثم سد الفرس على الغزاة كل المسالك براً وبحراً وأثارت هذه المغامرة غضب الخليفة الذي أنجد العلاء بقوة ضخمة من اثني عشر ألف راكب (على البغال) بقيادة عتبة بن غزوان وأصدر الأمر فوراً إلى العلاء بالالتحاق بسعد ردعاً له، وكان العلاء يفوقه فضلاً، غير أنه توفي في الطريق. وكانت هذه الأحداث قبل فتح الأهواز، وبفضل النجدة المذكورة تمكن الجيش المطوّق من الخلاص.

وكانت أمنية عمر أن تتوقف الفتوح بفارس حيث وصلت في هذه السنة، اكتفاء بالسواد واتقاء لهجوم مضاد وكاسح من الفرس، ولكن على الخصوص من أجل التفرغ للعمل المدني وإصلاح ما أفسدته الحروب في المناطق المفتوحة. كذلك انشغل العرب بفتح مصر سنة ٢٠، ومنْ ثَمَّ، ففيما بين فتح الأهواز إلى نهاية سنة ٢٠ تتوقف المواجهات الحاسمة بين الفرس والعرب.

٦ ــ معركة نهاوند سنة ٢١ هـ

وجد يزدجرد وأنصاره أن الامبراطورية الساسانية في طريق الانهيار النهائي بعد الانتصارات الكبرى التي حققها العرب، والتي أدت بهم إلى أن يقيموا حكمًا مباشراً في المناطق التي استولوا عليها.

---

(١) الطبري: ٤/٢١٢ ــ ٢١٣.

وهكذا قرر يزدجرد وأنصاره أن يتهيأوا لحرب يخوضونها ضد العرب في عقر دارهم[1]، فاحتشدت حوله قوات من الراي وقومس وأصبهان وهمذان والماهين (بفتح الهاء[2]) وسائر المناطق الموالية له فيما بين الباب والسند وخراسان وحتى حلوان[3] الواقعة تحت الحكم العربي. وكان هذا خطأً فادحاً في الوقت الذي لم يحرر فيه يزدجرد المراكز المتقدمة جنوب العراق، والتي تتمركز فيها قوات كبيرة من العرب. وكان احتشاد القوات الفارسية في نهاوند (بكسر النون الأولى) الواقعة في الطريق بين أصبهان وهمذان، والتي كانت مستغلاتها الزراعية ذات أهمية[4]. وتولى القيادة العامة الفيرزان. وقدرت القوات المحتشدة بمائة وخمسين ألف مقاتل[5]. أما القيادة المباشرة فتولاها مردانشاه[6].

ووافت الخليفة عمر أخبار تجمع هذا الجحفل وما تخفيه نوايا يزدجرد، فجمع الناس للشورى كالعادة، واستقر رأي الأغلبية من كبار الصحابة على أن يقيم الخليفة بالمدينة وينـدب عاملي الكوفة والبصرة إلى حشد جيوش كافية لمجابهة الفرس قبل تحركهم من نهاوند[7]. وكان من رأي علي بن أبي طالب الحفاظ على جيوش اليمن والشام وبقايا القوات العربية بشبه الجزيرة حتى لا يتحرك الأحباش

---

(١) المقدسي: البدء ١٨٠/٥.

(٢) البلاذري: ص ٤٢٤.

(٣) ابن خلدون: ٩٧٣/٢؛ والطبري: ٢٣٦/٤.

(٤) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٧.

(٥) الطبري: ٢٣٧/٤؛ ابن خلدون: ٩٧٣/٢. وهناك تقديرات أخرى في باقي المصادر.

(٦) البلاذري: ص ٤٢٤، المقدسي: ١٨١/٥.

(٧) الطبري: ٢٣٧/٤ ـ ٢٣٨.

باتجاه اليمن، والروم باتجاه الشام. ثم يتعرض مهد الإسلام نفسه للخطر في حال خروج الخليفة منه(١).

وهكذا قرر عمر إسناد قيادة الجيش الإسلامي المحارب بنهاوند إلى النعمان بن مقرن وكان قائد حامية الكوفة(٢)، وقيل كان في هذا الوقت حاكماً لكسكر(٣). فتولى قيادة الجبهة الجديدة بحزم، واستعان بهيئة أركان حرب من القادة البارزين كطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب وحذيفة بن اليمان والقعقاع بن عمرو، ثم قسم فرق الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة واحتياطياً ومجردة. وقرر أن يمارس عملية الهجوم بنفسه وعين مقدماً ثلاثة من حملة الراية يخلف كل منهم الآخر كلما استشهد واحد بعد موته هو، وعمد الفرس بدورهم إلى تقييد أنفسهم مجموعات من سبعة جنود إلى عشرة، كل مجموعة في مسلسلة مشتركة حتى لا يفروا، ويثبتوا للقتال. وكان نزول الحشود العربية على نحو فرسخين من نهاوند(٤). وتولت فرق منها قطع الإمدادات الواردة من بعض المراكز على الفرس. ومع أن الاستعداد كان تاماً للحرب من الطرف الإسلامي في صباح يوم الجمعة والفرس قد بدأوا يرمون الجند المهاجم، فإن النعمان صمم على تأخير المناجزة إلى ما بعد الظهر اقتداء بعمل الرسول في هذا المجال. ثم نشب القتال بعد أن أعطى النعمان الإشارة بذلك(٥)، ولكن فرسه زلق في الدماء فصرع، ثم حمل وكتم موته إلى ما بعد نهاية المعركة، كما حمل الراية مكانه نعيم بن مقرن.

---

(١) ن.م. ص ٢٣٨.
(٢) ابن خلدون: ٩٧٤/٢.
(٣) الطبري: ن.م. وص.
(٤) المقدسي: البدء ١٨١/٥.
(٥) الطبري: ٢٤٢/٤.

واستمر القتال حتى أظلم الليل فتراجع الفرس في فوضى شاملة وقد تساقط كثير منهم في خنادقهم. وقتل مردانشاه[١]، وكان أميراً على نهاوند، أما الفيرزان فتمكن من اللحاق بهمذان فتعقبه القعقاع حتى قتله[٢]. على أن تفاصيل المعركة تختلف من مصدر إلى مصدر ولكن الأحداث الرئيسية وبدايتها ونهايتها لا تختلف.

وسمى العرب هذه المعركة الحاسمة بفتح الفتوح[٣]، لأن الفرس بالرغم من مواصلة مقاومتهم للعرب في مناطق أخرى لم يعد بإمكانهم التصدي لهم بنفس القوة. وكان من بين قتلى العرب في نهاوند: عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد وآخرون. أما دور سعد بن أبي وقاص في الفتوح الفارسية فقد توقف قبل سنوات، لأن عمر بن الخطاب كان من مخططاته السياسية تغيير القيادات العسكرية تجنباً لكل روح دكتاتورية محتملة وتوخياً للتجديد في التكتيك والاستراتيجية العسكرية. بل ان سعد بن أبي وقاص احتفظ فقط بإدارة المناطق التي افتتحها إلى سنة ٢١، حيث تم عزله بطلب من أهل الكوفة[٤].

وقد غير عمر بن الخطاب السياسة التي كان يتبعها حتى موقعة

---

(١) المقدسي: ن.م. وص.

(٢) الطبري: ٤/٢٤٣.

(٣) البلاذري: ص ٤٢٨؛ المقدسي: ن.م. وص. وأطلقت التسمية على وقعة جلولاء أيضاً كما عند الذهبي: عبر ١/٢١؛ ويذكر الذهبي أن فتح نهاوند صلحاً تم سنة ٢٢. وهذا لا يتعارض مع تاريخ المعركة التي سبقت فتح نهاوند. على أن روايات أخرى تجعل فتح نهاوند متأخراً عن سنة ٢٢. (البلاذري: ص ٤٣٣).

(٤) الذهبي: ن.م. ص ٢٥.

نهاوند سنة ٢١، والتي كانت لا تسمح بتخطي المناطق التي حددها للفتوح مقدماً داخل الامبراطورية الساسانية، وهي لا تتجاوز ما بين دجلة والفرات في تراب العراق إلا ما ندر. وبعد معارك نهاوند وتفادياً لمواجهة كبرى جديدة يحشد فيها الفريقان نخبة أنصارهما وتستنزف فيها قوى الجيش الإسلامي، فقد أذن عمر لعاملي الكوفة والبصرة بالتوغل في أراضي الفرس الحقيقية (إيران وما والاها شرقاً وشمالاً) وكان لا يسمح بذلك من قبل حتى يضع حداً لتدفق الجيوش الفارسية على العراق، ويقضي على مقاومتها في عين المكان، كما بعث عدة قواد إضافيين، وتوزعت الجيوش على مناطق الامبراطورية الساسانية التي لم تفتح خارج التراب العراقي. وهكذا فتح على التوالي، ومع تحفظ في تحديد بعض التواريخ لاختلافها بين الرواة:

١ ــ أصبهان سنة ٢١ على يد عمار بن ياسر عامل الكوفة(٢)، وقيل على يد غيره.

٢ ــ أذربيجان سنة ٢٢ هـ على يد المغيرة بن شعبه عامل الكوفة بعد عمار بن ياسر وكان فتحها صلحاً(٣). ونسب فتحها إلى قادة آخرين كبكير بن عبد الله وهاشم بن عتبة لأن محاولة فتحها قبل هذه الفترة لم تنجح.

٣ ــ همذان على يد حذيفة بن اليمان الذي فتح في نفس السنة

---

(١) الطبري: ٢٤٦/٤.

(٢) انظر بشأن فتح أصبهان: البلاذري: فتوح، ص ٤٣٦؛ والطبري: ٢٤٧/٤؛ والمقدسي: البدء ١٨٠/٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨/٣.

(٣) انظر بشأن أذربيجان: اليعقوبي: البلدان، ص ٣٦؛ البلاذري: ص ٤٥٥؛ الطبري: ٢٥٠/٤ و٢٥٥؛ المقدسي: ١٨٣/٥؛ ابن الأثير: الكامل ١٣/٣؛ ياقوت (أذربيجان)؛ الذهبي: عبر ٢٦/١؛ ابن خلدون: ٩٨١/٢.

أيضاً الدينَورَ. ونسب فتح همذان إلى غيره أيضاً[1]، كما اختلف الرواة في تاريخ الفتح من سنة ٢١ إلى ٢٤.

٤ ــ الري على يد نعيم بن مقرن حسب الطبري. وقومس على يد سويد بن مقرن. وحيث إنه ينقل وثيقتين إحداهما عهد صلح باسم الأول والثانية عهد صلح باسم الثاني فروايته أرجح. وكانت الري منطقة زراعية شاسعة كما تنتج مقادير كبيرة من الفواكه. وحسب اليعقوبي فإن قومس تأخر فتحها إلى عهد عثمان[2]. وحسب غيره كان فتح الري وقومس سنة ٢٢.

٥ ــ فتحت جرجان على يد سويد بن مقرن. وحسب عهد صلح لأهلها من هذا القائد كان الفتح سنة ١٨، بينما يضيف الطبري فتحها في أحداث سنة ٢٢، ثم هناك رواية تؤخر فتحها النهائي إلى سنة ٣٠، عهد عثمان. وساق الرواية الطبري[3] أيضاً.

وكذلك امتدت الفتوح إلى أجزاء أخرى من الامبراطورية الساسانية كخراسان واصطخر وسجستان وكابل وفارس وكرمان[4]، غير

---

(١) انظر: البلاذري: ص ٤٣٣؛ الكامل ٣/٧ و ١٠؛ ابن خلدون: ٢/٩٧٩؛ الذهبي: ١/٢٦؛ ياقوت (مادة «همذان»).

(٢) انظر: الطبري: ٤/٢٥٣؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٣٩ ــ ٤٠؛ البلاذري: ص ٤٤٣؛ الكامل ٣/١١؛ ابن خلدون: ٢/٩٨٠؛ وياقوت (الري، قومس).

(٣) انظر: الذهبي: عبر ١/٢٦؛ الطبري: ٤/٢٥٤؛ البلاذري: ص ٤٦٧.

(٤) راجع بشأن فتح هذه المناطق: Histoire de l'humanité, 3 : 136; بالإضافة إلى ما ذكر.

أن هذه الفتوح لم تكن شاملة ولا قارة، فجل المراكـز انتقض مرة أو أكثر حيث لزم إعادة فتح الكثير منها أو تتميمه في عهد عثمان. ومعظم الفتوح التي وقعت خارج العراق وبعد معركة نهاوند تدخل في هذا النطاق، لأن عملية الفتح لم تعد مسؤولية قـائد عـام يوحـد التخطيط العسكري بل وكلت إلى عديد من القادة كثير منهم يتوصل بتعليماته مباشرة من الخليفة. وكانت رغبة عمر بن الخطاب أن تهن القوة الساسانية بأي ثمن، وقد بلغ هذه النتيجة فعلاً، ومن ثم، فإن النفوذ الساساني اضمحل تقريباً من عهد عمر، وحل محله مقاومـة ضعيفة محلية هنا وهناك، في الوقت الذي كان يزدجرد فيه يحاول عبثاً أن يتخلى نهائياً عن المقاومة لينجو بنفسه كما سيأتي.

فتح مصر

لم تكن فكرة فتح مصر تدور بذهن عمر بن الخطاب، ولو لم تفتح في أيامه لفتحها خلفاؤه بعده ليس بالذات لاعتبارات اقتصادية، بل لاعتبارات سياسية ودينية، لأنها منفذ الشام وجزيرة العرب، أي لأن النفوذ البيزنطي في المنطقة سيظل مصدر قلق لحكام الإسلام، ولأن التجربة التاريخية الطويلة أكدت فيما بعد أن الصراع بين الشعـوب الإسلامية والحكام البيزنطيين أدى إلى الحروب الصليبية ثم إلى تصفية آخر معاقل البيزنطيين في آسيا الصغرى. لقد كان الصراع قبل كل شيء عقائدياً. وعمر بن الخطاب لم تكن تذكيه أية روح توسعية بالرغم من امتداد الفتوح في أيامه، لأنه كان يرى في المد الإسلامي المبكر، مغامرة خطيرة تعرض العنصر العربي للتشتت والتخلي تدريجياً عن تقاليده ثم تعرض مستقبل الإسلام في جزيرة العرب نفسها للخطر كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وكل الروايات العربية تقريباً تؤكد تخوف عمر من فتح مصر[1]. وهذه الروايات تعتمد في جملتها على ابن عبد الحكم الذي يشير إلى أن فكرة فتح مصر أثارها عمرو بن العاص عند قدوم عمر بن الخطاب إلى الجابية سنة ١٥ أو ١٦، وأن ابن العاص ظل يراوده بشأن فتحها لأنها ستكون «قوة المسلمين وعوناً لهم وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب[2]».

وما من شك في أن عمرو بن العاص لم يكن مجرد قائد سياسي محنك، ولا عسكري موفّق فحسب، بل كان يفكر أيضاً بعقلية المجموعة الأموية التي ينتمي إليها والتي تمثل عنصراً نشيطاً في الميدان الاقتصادي من أيام الجاهلية، بل هي العنصر الذي كان يحتكر التبادل التجاري بين جزيرة العرب وجاراتها في إفريقيا وآسيا. وعندما تحكم بنو أمية في النشاط الاقتصادي مباشرة تحكموا أيضاً في القيادة السياسية التي أفلتت من بين أيديهم بعد ذلك بسبب هذه الهيمنة من جهة ولعوامل عقائدية وسياسية من جهة أخرى.

ولقد كان البلاط البيزنطي في هذه الفترة يشهد اضطرابات كان لها تأثير عميق على نتائج التدخل العربي في مصر، فإن هرقل بعد انتقاله إلى القسطنطينية لم يعد يتولى الإدارة المباشرة لعمليات المقاومة صد الزحف العربي. وبينما فارق الحياة في فبراير ٦٤١ م، كان العرب قد وضعوا أيديهم على قسم كبير من التراب المصري. وكان من وصايا هرقل، تقسيم

---

(١) انظر بشأن فتح مصر: الطبري: ٤/٢٢٦؛ البلاذري: ص ٢٩٨؛ ابن الأثير: ٢/٣٩٤؛ ابن خلدون: ٢/٩٧٠؛ المقريزي: خطط ٦٢-٤؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٤.

(٢) ابن عبد الحكم، حسب المقريزي: خطط ٢/٤٦

السلطة بين ابنيه غير الشقيقين، قسطنطين وهرقلوناس، ولكن الأول ما لبث أن توفي بعد ثلاثة أشهر من تنصيبه، فاستولت مارتين أم هرقلوناس على السلطة، وأدى الأمر في النهاية إلى تدخل مجلس الشيوخ الذي أقصى مارتين بعد أن قطع لسانها وجذع أنف هرقلوناس، ثم نصب ابن قسطنطين المذكور(١).

أما في مصر نفسها فكان الحكم بيد (Cyr) الذي يدعوه العرب بالمقوقس، وكان بطريرك الكنيسة بالاسكندرية وحاكمًا مدنياً في ذات الوقت، عينه هرقل سنة ٦٣١ م بعد أن كان أسقفاً بالقوقاز(٢). وهو من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح. وكان القبط بصفة عامة يشكون من فداحة الضرائب التي أثقلت بها كاهلهم الإدارة البيزنطية، فضلاً عن استغلال كبار الملاك من المعمرين الأجانب.

واتجه عمر بن العاص لفتح مصر في قوة من الجيش لا تتجاوز أربعة آلاف مقاتل اخترقت حدود فلسطين، ثم اتجهت إلى العريش فالفرما حيث لقيت مقاومة الحامية ولكنها هزمتها(٣). وكان عمر بن الخطاب قد وجه إليه خطاباً بالتخلي عن دخول مصر إذا لم يكن قد اجتاز حدودها، ولكنه تريث ولم يتسلم خطاب الخليفة من مبعوثه إلا بعد اجتيازه للحدود المصرية. ثم قصد بابليون (ممفيس القديمة(٥))، فعسكر بقربه، وهناك ضرب فسطاطه حيث سيبني فيها بعد أول عاصمة إسلامية

---

(١) Voir: G. Ostrogorsky, *Histoire de l'Etat Byzantin*, p. 141. 143.

(٢) Op. Cit. p. 143؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١١٨.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٢٩٨. وتؤكد الرواية العربية أن سكان الفرما تعاونوا مع المسلمين.

(٤) المقريزي: خطط ٢/٤٦؛ ابن تغـري: النجوم ١/٦.

(٥) بروكلمان: ن.م. ص ١١٩.

بمصر تحمل اسم الفسطاط. وبالرغم من اضطراب الروايات مرة أخرى في تحديد الهجوم العربي على مصر، فإن أكثرها تداولاً هـو السنة العشرون من الهجرة، وإن كان من المؤكد أن عقد الصلح لم يتم إلا بعد خلع مارتين وهرقلوناس في أوائل نوفمبر[1] ٦٤١م، أي في السنة الحادية والعشرين للهجرة.

وحاول تيودوروس قائد الجيش البيزنطي أن يصمد في بابليون للقوات العربية، وأثناء ذلك وصلت نجدة كبرى من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف مقاتل وجهها عمر بن الخطاب الى عمرو، بعد أن خشي على جيشه الصغير من الهلاك، وكانت النجدة بقيادة الزبير بن العوام[2]، وكان بين القادة أيضاً، المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد[3].

وحسب الرواية العربية فإن المقوقس نفسه كان حاضراً بحصن بابليون[4]. وتوجهت قوة عربية في ذات الوقت لمنازلة الاسكندرية بقيادة عوف بن مالك[5]. أما في بابليون فقد حاولت القوات البيزنطية إحكام حماية الحصن بحفر خندق دفاعي حوله وبث الحسك لمنع تقدم العرب، غير أن هؤلاء استعانوا بالمنجنيق[6]، وعندئذ تمكن المقوقس من

---

(١) Ostrogorsky, Op. Cit.
(٢) البلاذري: ص ٢٩٩؛ المقريزي: خطط ٢/٤٨؛ ابن تغري: ١/٩؛ الطبري: ٤/٢٢٧.
(٣) ابن تغري: ١/٨.
(٤) المقريزي: ٢/٤٨؛ ابن تغري: ١/١٠.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٩٥.
(٦) المقريزي: ٢/٤٩.

الانسحاب في مراكبه التي كانت ترسو بالنيل بجوار الحصن[١]. ثم أرسل إلى عمرو بن العاص من الجزيرة يطلب إجراء مفاوضات معه بواسطة رسله. وأثناء هذه المفاوضات سقط حصن بابليون عنوة بعد سبعة أشهر من الحصار ووضعت الجزية على أهله والخراج على أرضهم[٢]. ثم حاول المقوقس أن يضع حداً للقتال الذي اندلع في مناطق أخرى بقبول الصلح مع العرب، ولكن الأقباط رفضوا في البداية، واضطر المقوقس إلى التحرك إلى القسطنطينية ليحصل على إذن البلاط بإجراء تسوية سلمية خصوصاً بعد أن هددت الاسكندرية العاصمة. وعاد المقوقس يحمل إذن القسطنطينية بإجراء الصلح الذي تم بانسحاب البيزنطيين من الادارة بالاسكندرية في شتنبر (ايلول) ٦٤٢م[٣] أي في أعقاب ٢١ هـ.

ويحدد عهد الصلح أو الأمان على الأصح التزامات الطرف المصري تجاه الحكم الإسلامي والتزامات الطرف الإسلامي تجاه الشعب المصري فيما يخص حرية ممارسة الشعائر والالتزامات المالية والمعنوية وما إلى ذلك[٤].

ولما كان أغلب سكان مصر من الفلاحين الصغار الذين لا يمكن أن يصمدوا للمقاومة من غير أسلحة، فضلاً عن أن حالتهم لم تكن مرضية في ظل الحكم البيزنطي، وأن الحكام البيزنطيين لم يصمدوا هم أنفسهم لمقاومة العرب، فإن فتح مصر لم يكلف من الجهود البشرية والعسكرية ما كلفه فتح الشام والعراق بالنسبة للعرب، على الرغم من

---

(١) ن.م. وص؛ ابن تغري: النجوم ١/١٠.
(٢) البلاذري: ص ٢٩٩؛ المقريزي: ٢/٤٩ ـ ٥٥.
(٣) Ostrogorsky, Op.Cit., p. 145.
(٤) انظر نصه في الطبري: ٤/٢٢٩.

أن عدة مراكز حضرية وقروية أبدت بعض المقاومة قبل أن تخضع لشروط الصلح[1].

ولما كانت الإدارة البيزنطية قد تركت نظاماً قريباً من الدقة فيما يرجع الى إحصاء السكان الملزمين بالضرائب، وإن كان نظام الإحصاء ومسح الأراضي قد عرفته مصر الفرعونية قبل بضعة آلاف سنة، فإن الفتح العربي قد تمكن بسهولة من التحكم في النظام الضرائبي، وسيجد هذا الموضوع مجالاً أوسع في فصل لاحق. ولم يستطب عمر بن الخطاب أن يتخذ الفاتحون من الاسكندرية عاصمة لأنه لم يكن يوافق أن يحول بينهم وبينه ماء[2].

ويبدو أن قسمًا من النوبة (السودان) دخل في عهد الصلح مع العرب بشروط خاصة كما يدل على ذلك العهد الذي حرر باسم عمرو بن العاص لسكان مصر. وقد جاء فيه بهذا الصدد[3]: «وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا أو كذا رأساً، وكذا فرساً، على أن لا يُغْزَوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة».

وذهبت محاولة إخضاعهم بالقوة عبثاً، وجددت شروط الصلح بما يشبه الشروط المذكورة في خلافة عثمان كما سيتضح[4].

أما السكان البيزنطيون في مصر فقد خيروا في البقاء بمصر، على نفس الشروط التي خضع لها القبط، أو الالتحاق بوطنهم الأصلي[5].

---

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٠٤؛ ابن تغري: نجوم ١/١٦؛ ابن خلدون: ٩٧١/٢.
(٢) المقريزي: خطط ٦٠/٢.
(٣) الطبري: ٢٢٩/٤؛ ابن تغري ٢٤/١؛ ابن خلدون: ٩٧١/٢.
(٤) البلاذري: فتوح ٣٣١.
(٥) ابن تغري: ١٨/١ ـ ١٩.

قيمة أعمال عمر

إن الأعوام الاثني عشر التي قضاها عمر في الخلافة ما هي من حيث المدة إلا فترة تكاد لا تذكر من التاريخ الإسلامي بل العالمي. وذلك بالنظر لقصرها في دائرة هذا التاريخ، مع تعدد المنجزات التي تحققت فيها وطبعت التاريخ الإسلامي كله ببصماتها.

وعمر الخليفة برز على الأخص في ثلاثة ميادين، وهي الميادين السياسية والاجتماعية والتشريعية.

فكسياسي تمكن عمر من ضم القسم الأكبر من الامبراطوريتين، الفارسية والبيزنطية، ولم يلغ بجرة قلم، معتقدات وأنظمة هذه البلاد مثلما تفعل جل الدول الفاتحة خصوصاً في العصور القديمة والوسطى، فكان الفتح أولاً، ثم ترك للإسلام تلقائيته في استمالة الشعوب المغلوبة ثانياً. وكل أعمال عمر السياسية والعسكرية ضبطتها التوجيهات والقرارات المكتوبة. وهذا أعطى الإسلام العمري مثالاً في منتهى الوضوح والانضباط لفعالية العهود والمواثيق مع الحكام السابقين. وراقب عمر نفسه طريقة تطبيق بنودها ومختلف الالتزامات الإسلامية حيال الشعوب التي أصبحت خاضعة للحكم الإسلامي.

وفي الميدان الداخلي أنشأ عمر نواة الادارة المدنية الأولى كما أصبحت لفترة طويلة بعده في مختلف الدول الإسلامية مع فروق محلية لا تبعد عن الأصول المشتركة. وواصل عمر كسلفه أبي بكر، واقتداء بسنة الرسول عليه السلام، اتخاذ التدابير والقرارات ذات الأهمية الكبرى بالاستشارة في آن واحد مع كبار الصحابة ومع جماعة المهاجرين والأنصار تفادياً للانفراد بالرأي أو الوقوع في أخطاء جسيمة. وكان عمر من الصرامة تجاه الولاة والعمال بحيث لا يسمح لهم بتجاوز اختصاصاتهم

ولا باستغلال سلطتهم للتعدي على حقوق الآخرين أو للإثراء على حساب المحكومين. وكان يجتهد أن لا يختار للمسؤولية إلا الأكفاء والنزهاء، فإن شك في نزاهتهم اتخذ حيالهم عقوبات رادعة لا يفرق فيها بين عظيم كخالد بن الوليد وصغير كبعض الولاة المحليين.

أما عمر الاجتماعي، فهو ذلك الشخص الذي وضع نفسه كلياً في خدمة المجتمعات التي تحمّل مسؤولية قيادتها، وجعل نفسه جزءاً منها يشعر بآمالها ويحس آلامها ويحط عنها أثقالها ولا يكلفها ما لا تطيق. وهو يحمي الجيش والسكان العرب، ويريد لهم أن يحتفظوا بتقاليدهم وفضائلهم الاجتماعية فلا تذيبهم حضارات الشعوب المغلوبة في مدنها العريقة التي نهكها الترف وأفسدتها الدِّعة والتكالب على الكسب والسلطة. وعمر هو المسؤول الذي يعيش معذب النفس ككل مسؤول ذي ضمير شريف ترتبط مهمته بخدمة المجتمع، فهو يخشى من مظالم ذوي السلطة على المجتمع، ويخشى أن لا ينال أحد حقه، وينشغل بقضايا الأرامل واليتامى والمحرومين، فلا يشعر بالسعادة إلا إذا سعد هؤلاء الذين ينتظرون خلاصهم على يده، وهو حتى في هذه الحال يتأثر لما حل بهم قبل أن يجدوا الخلاص لديه! إنه المسؤول الذي يبحث عن الكمال (Perfectionnement) فإذا لم يجده عند الذين أسند إليهم ثقته، حاول أن يحققه بنفسه، فإن عجز استغفر الله الذي لا كمال إلا له(١).

وتجلى العمل الاجتماعي لعمر في اهتمامه بقضايا الزراعة وتنظيم الري واستغلال الأرض وتخطيط المدن والسهر على حسن سير الأسواق التي هي العصب الاقتصادي لفئات المجتمع وضمان أمن السكان.

ثم يبرز عمر في ميدان ثالث هو ميدان التشريع الذي هو أوثق

---

(١) انظر عن مزايا شخصية عمر كإنسان ومسؤول: الطبري: ٥/١٧ ــ ٣٣.

ما يكون صلة بسابقه الاجتماعي، بل هو منه جزء لا يتجزأ في أكثر من وجه. فالنوازل تتعدد، ومشكلات الناس في التجارة والمعاملة والأحوال الشخصية تتطور وتتسع، والفتوح تظهر أحوالاً جديدة في الميادين الزراعية والسقوية والدينية وغيرها مما يتصل بالحياة العامة، والقرآن والسنة مصدران لا ينضبان، لكن لابد من مصادر مساعدة تكمل ما غمض وتوضح ما أشكل وما جد. وهكذا ينتصب عمر بن الخطاب بشخصيته القوية، وبثقته الواسعة في الاتجاه الإصلاحي وعميق فهمه لتخريج المشكلات والقضايا وتجربته النادرة في التمرس بحلها اعتماداً على الكتاب والسنة، ثم بالاجتهاد الذي انتصب له واعتمده في التشريع والقضاء مستفيداً من آراء الصحابة وخبرتهم، ومنفرداً بالقرار إن لم يجد ما يسعفه.

وهكذا ففي الميادين السياسية والاجتماعية والتشريعية، يظل عمل عمر بن الخطاب مثالاً فريداً في التاريخ العالمي بأسره، فكلما استعرضنا سلسلة الحكام العالميين عبر التاريخ العالمي كله نجد لدى الكثير منهم منجزات جبارة، ومزايا فائقة، ولكن لا أحد منهم، وبقطع النظر عن شخصية الأنبياء والمرسلين، اكتملت لديه من حيث الإطار الزمني والمكاني كل المميزات التي اجتمعت في شخص عمر بن الخطاب، والمنجزات التي تحققت بفضله وعمله المباشر. وإن السر ليكمن حقاً في التأثير العميق الذي كان للقرآن وللرسول على هذا الرجل المصلح، بقدر ما يكمن أيضاً في شخصيته التي انطبعت بروح ديموقراطية منفتحة لا نظير لها في الشمولية والعمق الإنساني.

نهاية عمر

نهاية ابن الخطاب معروفة في كتب الأخبار والسير والفتوح التي تركها الرواة والمؤرخون الأوائل ممن تبقّت مراجعهم على الرغم من

ولما حمل عمر إلى منزله أمر عبد الله بن عباس أن يتعرف على القاتل، فلما علم أنه نصراني وأنه أبو لؤلؤة قال: الحمد لله الذي لم يجعل خصمي ذا سجدتين. ولما كان الأطباء العرب لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى الطب الجراحي، فإن الطبيب الذي دعي لعلاجه وكان من بني الحارث بن كعب لم يسعه إلا أن يبين عن حتمية مصير عمر الذي التزم على الفور بتعيين لجنة تشاور من ستة أفراد من كبار الصحابة يختارون أحدهم للخلافة.

أما بالنسبة لقضية مقتل عمر، فليست تفاصيل الظروف التي تم فيها الاغتيال هي التي تهم في حد ذاتها وكل كتب التاريخ المهتمة بحياة عمر وسياسته قد عرضتها، وإنما الذي يهم، هو أن الاغتيال مؤامرة حقيقية دبرتها عناصر فارسية وإن كان يظهر فيها ثلاثة أفراد فقط، هم الهرمزان أحد كبار القادة الذين خاضوا حروباً ضارية ضد العرب في فارس ثم أسلم كما سبق، والثاني جفينة (بضج الجيم) الذي قيل إنه نصراني من أهل الحيرة، ولعله عربي، والثالث أبو لؤلؤة الذي نفذ عملية الاغتيال(١)، وبلغ الخبر إلى عبيد الله بن عمر، فقتلهم جميعاً من غير لجوء إلى محاكمة. غير أن عثمان تحمل دية القتلى(٢)، بعد أن كان رأي علي الاقتصاص منه. وقد دفن عمر في الروضة النبوية.

وعمل عمر بن الخطاب على حسم قضية الخلافة قبيل وفاته بترشيح ستة من أبرز الصحابة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وأسند إليهم حرية اختيار أحدهم في قصة معروفة تناولتها المراجع التاريخية(٣).

---

(١) ابن خلدون: ٢/٩٩٨.

(٢) ن.م.

(٣) الطبري: ٥/٣٣؛ ابن عبد ربه: العقد ٥/٢٤؛ المقدسي: ٥/١٨٩؛ ابن الأثير: ٢/٣٤؛ ابن خلدون: ٢/٩٩٣. وانظر أيضاً: دحلان: الفتوحات ١/٤٢٧ ــ ٤٣٣.

ومن سياقها ان عمر لم يتخذ مبادرة ترشيح لجنة الشورى إلا بعد ضغط الصحابة. فالقصة تقول إن عمر قيل له: لو استخلفت. فأجاب: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله. فقال أحد الحاضرين: أدلك عليه؟ (أي على من تستخلف) عبد الله بن عمر! فقال: قاتلك الله؛ والله ما أردت الله بهذا، ويحك! كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته، لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صرف عنا. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد؛ أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي. وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر، إني لسعيد؛ وانظر، فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

ثم عاد الصحابة يلحون عليه في أن يعهد، وعندئذ اختار الستة المعروفين: علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وهذان خالا النبي، والزبير بن العوام ابن عمة النبي، وطلحة بن عبيد الله.

وما من شك في أن عمر لم يكن يهمه أن يكون بين المرشحين أقرباء النبي، فبين قريش كلها قرابة تتدانى أو تتباعد، ولكن كانت لهم مكانة متميزة، حرمة لدى الجميع، والرسول توفي وهو عنهم راض كما قيل. ثم وجه عمر نصائحه لسائر المرشحين، وضم إليهم ابنه عبد الله، على أن يكون مجرد مستشار وأن يكون حكماً إذا تعادلت الكفة بين اثنين من المرشحين. وأمر عمر المقداد بن الأسود أن يتولى مراقبة لجنة الشورى حتى يتم اتفاقها على واحد من بينها، وأن يستخدم القوة ضد

الأقلية وإن رفضت تزكية من اتفقت عليه الأغلبية، كما أمر صهيباً بالصلاة بالناس على جنازته. فلما فرغ من تجهيزه ودفنه في أواخر ذي الحجة من سنة ٢٣ هـ، تولى عبد الرحمن بن عوف مبادرة تنظيم عملية الانتخاب والتشاور بعد أن جرد نفسه من الترشيح[١]، ثم فعل الباقون مثله باستثناء علي وعثمان فكلاهما لم يتنازل بصورة قاطعة للآخر، وعندئذ، عمد عبد الرحمن بن عوف إلى استشارة جماعية شملت قادة الجيش والقادة السياسيين والأشخاص المعروفين وجماهير الشعب حتى القوافل الواردة على المدينة لمدة ثلاثة أيام بلياليها[٢]. واستشار حتى تلاميذ الكتاتيب وربات البيوت. وهذه أول استشارة من نوعها في تاريخ الإسلام السياسي، وكانت بشأن أخذ رأي من استشيروا في أيهما أحق بالترشيح للخلافة علي أو عثمان، فأسفر هذا الاستفتاء عن اختيار عثمان بالإجماع. ولم يكن تفضيل عثمان إلا للين سلوكه حيث إن الجماهير التي استفادت من غنائم الحروب خلال عشرة أعوام ونصف من حكم عمر أصبحت بحاجة إلى تخفيف من صرامة عمر التي كان علي من مجنديها بل وسيمارسها هو نفسه بعد توليته[٣]. وإلا فكفاءة علي ونزاهته فوق كفاءة عثمان وسلوكه. بل إن عمر كان يحبذ ترشيح علي، ولكنه كان يفضل اللجوء إلى الاختيار الديموقراطي. ونسب إليه قوله: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها؛ فمن عاد إلى مثلها من غير مشورة فاقتلوه»[٤].

---

(١) دحلان: م.س. ص ٤٢٨. وانظر ما جرى من حوار بين الصحابة حول ترشيح خلف عمر، في العقد الفريد ٥/٢٥ ـ ٣١؛ الطبري: ٥/٣٣ ـ ٤١.
(٢) دحلان، ص ٤٢٩؛ الطبري: ٥/٣٦.
(٣) هذا تفسير نقله أحمد بن زيني دحلان: الفتوحات ١/٤٢٩.
(٤) المقدسي: ٥/١٩٠.

الفصل الرابع
عصر الطموحات الشخصية، وبداية الصراع الحزبي

تولية عثمان

بعد إتمام تجهيز عمر ودفنه في بيت عائشة مع الرسول وأبي بكر، وبعد أن استقر الأمر على تولية عثمان بويع له بالخلافة فور ذلك في نهاية ١ ذي الحجة من سنة[١] ٢٣هـ وقيل بعد ثلاثة أيام من محرم[٢] سنة ٢٤هـ. ولم يتم الإجماع على تولية عثمان، أو ما يشبه الإجماع إلّا بعد لجاج طويل بين أهل الشورى من جهة، وبينهم وبين صحابة آخرين من جهة ثانية[٣]. ولم يكن البيت الهاشمي بزعامة العباس بن عبد المطلب يرى أن تفوت السلطة الخلافية عن الأسرة النبوية ولكن هذا البيت سيتخذ موقفاً أكثر صرامة بعد مقتل علي.

ووصف عثمان وصفاً دقيقاً ومركّزاً في تاريخ الطبري والعقد الفريد لابن عبد ربه، حيث يقول[٤]:

(١) الطبري: ١٤/٥.
(٢) ن.م. وص؛ وانظر أيضاً: ص ٤٣.
(٣) ابن عبد ربه: العقد ٢٦/٥ ـ ٣٠.
(٤) ن.م. ص ٣٤؛ الطبري: ١٤٧/٥.

«كان عثمان أبيض مشرباً صفرة، كأنه فضة وذهب، حسن القامة، حسن الساعدين، سبط الشعر، أصلع الرأس، أجمل الناس إذا اعتمّ، مشرف الأنف، عظيم الأرنبة، كثير شعر الساقين والذراعين، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين. ولما أسن، شدّ أسنانه بالذهب». وكان كثّ اللحية أسمر يصفر لحيته. وفي تاريخ الطبري أنه كان كثير شعر الرأس.

وكانت خطبة عثمان بعد تنصيبه، مجرد وعظ يذكّر الناس بنعيم الآخرة والتخلي عن مُتَع الدنيا(١). وكان هذا التذكير في حد ذاته موضوعياً لأن المجتمع الإسلامي قد بدأ يستفيد من غنائم الحروب على نطاق واسع ويوشك أن يفقد حماسه النضالي من أجل المبادىء المقدّسة. غير أن الأمة كانت بحاجة أيضاً إلى أن تعرف ما الذي سينتهجه الخليفة الجديد من خط سياسي، وماهية التزاماته نحوها. وهذا ما لم يفعله عثمان الذي تتميز خطبه وتوجيهاته في مجملها بلين الجانب وصدق النية من غير أن تواكبها الصرامة التي تستلزمها مواقف الآخرين.

والحق أن عثمان بن عفان كان يحظى بتقدير خاص من الرسول (ص) بوصفه من السباقين إلى الإسلام، ومن الذين قدّموا تضحيات مادية كبيرة لصالح الجهاد والدفاع عن العقيدة المضطهدة. وكعامة الأسر الموسرة من بني أمية، فقد اشتغل عثمان بالتجارة قبل الإسلام وبعده، ونال فيها حظاً عظيمًا، ولكنه كان يرى أنه ليس من سمات المؤمن الصالح أن يغتر بنعيم الدنيا وخيراتها، وكان يلح في التزود للآخرة بالأعمال الصالحة.

---

(١) الطبري: ٤٣/٥.

وعثمان من مهاجري الحبشة، وتزوّج رقية بنت الرسول (ص) كما تزوج بعدها نائلة النصرانية الأصل.

وإذا كانت بيعة عثمان قد تمت بالإجماع، فإن موقف علي لم يكن واضحاً[1] وقد كان المرشح الوحيد الذي ينافس بالدرجة الأولى عثمان. غير أن علياً لم يلبث أن دخل في عهد عثمان وصار مستشاره الرئيسي وصديقه الوفي. ودعا عثمان وفود الأمصار إلى بيعته مباشرة، وكان أول من أحدث بيعة الوفود كخليفة[2].

وكان على عثمان أن يحسم في حادث انتقام ذي خطورة قبل أن يواجه مسؤولياته العامة، وهكذا فإن عبيد الله بن عمر الذي فاجأ قبل مصرع والده كلاً من أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة النصراني يتناجون وبيد أبي لؤلؤة خنجر كان يتأمله الهرمزان، قرر بعد موت عمر أن ينتقم من الهرمزان، فاغتاله، فكان من رأي علي قتله لأنه تولى القصاص بنفسه ولمجرد الظن[3]، ولكن عثمان قرر أن يحتمل ديته.

الفتوح والمواجهات العسكرية

لم تستقر الفتوح بصورة نهائية في عهد عمر. فكان على خلفه أن يجابه انتفاضات بعض الجهات التي لم تكن خاضعة لمراقبة كافية. ففي أول خلافة عثمان[4]، فيما بين سنة ٢٤ و٢٨ من غير اتفاق بين

---

(١) المقدسي. البدء ١٩١/٥ و١٩٣.
(٢) ابن الأثير: ٤١/٣.
(٣) الطبري: ٤١/٥ ــ ٤٤؛ ابن خلدون: تاريخ ٩٩٨/٢.
(٤) الطبري: ٤٥/٥؛ ابن الأثير: ٤٣/٣؛ البلاذري: فتوح ٢٧٩؛ الذهبي: العبر ٢٨/١ و٢٩.

المؤرخين انتفض سكان الري فافتتح أبوموسى الأشعري مناطقهم بالإضافة إلى مناطق مجاورة صلحاً(١)، كما انتفض أهل أذربيجان، فغزاهم الوليد بن عقبة عامل الكوفة فافتتح بعض جهات أذربيجان عنوة ثم افتتح باقيها صلحاً على ثمانمائة ألف درهم(٢) كانوا يؤدون مثلها بعد الفتح الأول سنة ٢٢ هـ وكان انتفاض أذربيجان بعد عزل عاملها عتبة بن فرقد بعد تولية عثمان.

وخلال الفترة السابق ذكرها، وبعد إعادة فتح أذربيجان دعا عثمان عامله على الشام والمناطق المجاورة لها والتي كانت خاضعة فيما قبل للاحتلال البيزنطي إلى توجيه القائد حبيب بن مسلمة الفهري لإعادة وتتميم افتتاح أرمينية حيث كان لا يزال بها العديد من أنصار الحكم البيزنطي، وكان لحبيب دور مشرف في فتوح الشام ومواجهة الروم أيام عمر(٣). وتوجه حبيب على رأس ستة آلاف إلى تسعة آلاف مقاتل إلى قاليقلا، كما دعا عثمان عامل الكوفة الوليد بن عقبة إلى إمداد الجيش الإسلامي بأرمينية بقوة كافية، فوجّه سلمان بن ربيعة في جيش يتراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف مقاتل، حيث قصد أرّان (بتشديد الراء)(٤). وبعد افتتاح هذين المركزين تم افتتاح مراكز أخرى تباعاً وأغلبها لم تصمد للمقاومة طويلاً، بل قبلت شروط الصلح. وستشهد مناطق أرمينية حركة واسعة في التعمير في العصر الأموي(٥)

---

(١) المقدسي: البدء ١٩٨/٥.

(٢) الطبري: ٤٥/٥؛ الكامل ٤٣/٣؛ ابن خلدون: ١٠٠٠/٢.

(٣) البلاذري: ص ٢٧٧.

(٤) انظر بشأن فتح أرمينية: الطبري: ٤٥/٥ ــ ٤٦؛ البلاذري: فتوح ٢٧٢ ــ ٢٨٨؛ الكامل ٤٣/٣؛ ابن خلدون: ١٠٠٠/٢ ــ ١٠٠٢، ونسب فتح أرمينية أيضاً إلى جرير بن عبد الله البجلي (المقدسي: ١٩٨/٥).

(٥) البلاذري: ص ٢٨٨.

نظراً لجوارها للمعاقل البيزنطية. غير أن تفتّت السلطة العباسية خلال القرن الرابع/ العاشر م. سيؤدي إلى استغلال الكنيسة الكاثوليكية للموقف حيث تنتشر المسيحية بأرمينية. وقد كان هدف الفتوح العربية في العصر الراشدي هو مراقبة خليج القسطنطينية في انتظار الفرصة لمهاجمتها فضلاً عن حرص القادة العرب على مراقبة تحركات الأسطول البيزنطي. ومن الواضح أن قوة المواجهة لدى البيزنطيين كانت أعنف بكثير وأوسع مدى من قوة المواجهة الفارسية، ذلك أن اعتماد البيزنطيين على الأساطيل البحرية أطال نفس مقاومتهم في الوقت الذي كانت رقعة النفوذ الفارسي تمتد إلى الداخل وتعتمد على حركة المشاة والدفاع عن المدن والقلاع إذ ليس للإمبراطورية امتداد بحري يذكر بالقياس إلى الامتداد البيزنطي، وهذا فضلاً عن المشكلات الداخلية والصراعات الحادة في قلب الجهاز الفارسي.

وفي إطار الصراع المستمر بين العرب والروم حاول المعاهدون من سكان الاسكندرية في سنة ٢٥ أن يحرّضوا القيادة البيزنطية بالقسطنطينية على استرجاع الاسكندرية التي كان المقوقس بها أثناء هذه الأحداث، مستفيداً من شروط الصلح المبرمة أيام عمر بن الخطاب. غير أنه لم يساهم في خرق هذه الشروط. بينما زحف إلى الاسكندرية جيش عن طريق البحر يقوده منويل الخصي في ثلاثمائة قطعة، ولم يتحرّك الجيش الإسلامي لنجدة الحامية العربية إلّا بعد أن قتلت أعداد منها، ثم توجه إليها عمرو بن العاص مع خمسة عشر ألف مقاتل وحاصرها، إلى أن اقتحمها عنوة[١] بعد ثلاثة أشهر. وقتل عدد كبير من الروم بينهم منويل[٢]. وكان الروم قد استولوا على أموال

(١) انظر: البلاذري: ص ٣١٠؛ الطبري: ٥/٤٥؛ الكامل ٣/٤١.

(٢) حسب Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin, p. 146. فإن منويل فرّ إلى القسطنطينية.

الفلاحين في المناطق المجاورة، فأعادها عمرو بن العاص إلى أربابها وهدم سور الاسكندرية وسبى عدداً من السكان فردّ عثمان السبي وقد كان أكثره من الصبيان والنساء على ما يبدو، وهم لم ينقضوا عهداً حسب رأي عثمان. وكان ذلك كما يقول المقدسي أول بُدُوِّ الشر بين عثمان وعمرو، حيث عزله عن مصر(١).

وبعد استقرار الأحوال بمصر، حاول عمرو بن العاص أن يعمل على فتح النوبة بعد أن فشلت محاولات أولية أيام عمر بن الخطاب لم تؤد إلّا إلى اتفاق جزئي مع بعض أهل المنطقة كما سبق ذلك. ثم تابع عبد الله بن سعد بن أبي سرح مهاجمة النوبة إلى أن انتهى إلى اتفاق معهم على تزويده بأربعمائة من الرقيق مقابل كميات من الطعام؛ وتستمر العملية هكذا كل سنة(٢). ولكن يظهر أن عبد الله بن سعد تمكّن إثر ذلك من اقتحام النوبة عنوة حتى بلغ دنقلة، حيث حصل على غنائم كبيرة القيمة(٣).

ومن جهة أخرى فقد شجّع العرب فتح مصر على التوغل غرباً في الأراضي الليبية، أيام عمر على يد عمرو بن العاص ثم على يد خلفه عبد الله بن سعد بن أبي سرح. ففي سنة ٢١ هـ افتتح القائد عقبة بن نافع كلاً من برقة وزويلة وعقد بينهما صلحاً، وأسلم من سكانها البعض، وأدى الآخرون الجزية التي كانت تحمل إلى الخزينة المصرية. أما الزكوات فكانت توزع على الفقراء في عين المكان(٤). وتصرّف

---

(١) المقدسي: البدء ٥/١٩٩.
(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
(٣) المقدسي: م. س.
(٤) البلاذري: ص ٣١٥.

عمرو بن العاص تصرّفاً مشيناً بإرغام لواتة على بيع أبنائها ونسائها لاستيفاء الجزية[1]، ثم حاصر طرابلس فلم تصمد أكثر من شهر لانكشاف سورها من جهة البحر، ثم فتحت صبرة التي فوجئت بهجوم العرب[2]. ويظهر أن فتح طرابلس وصبرة كان سنة **٢٢** هـ. وحينما انتهى عمرو بن العاص إلى طرابلس كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح إفريقية، فكان جوابه الشهير: «ليست بإفريقية، ولكنها غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد منكم ما عشت». وكانت إفريقية لا تفي بالتزاماتها المالية تجاه البلاط البيزنطي، وكان عمر على علم بذلك[3]. ويظهر من قصر المدة التي استغرقها الفتح العربي لليبيا أيام عمر أنها لم تصمد طويلاً للمقاومة بسبب انكشاف مراكزها السكنية وميل السكان إلى المصالحة رغبة في التخلّص من النفوذ البيزنطي.

حتى إذا كان عهد عثمان وردت فكرة فتح افريقية بمبادرة منه أو من بعض أقرب معاونيه. وكان الوضع بها معقداً، فهناك قوات بيزنطية كثيفة ومعارضة دينية من الأوساط المسيحية لفكرة الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح والتي راجت لدى أوساط العاصمة وتزعّم المعارضة عالم اللاهوت ماكسيم. وكانت هذه الوضعية فرصة سانحة لبطريق الشمال الافريقي جرجير (Grégoire) حتى يرفع علم الثورة ضد الحكومة البيزنطية ويستميل لصالحه عدداً من القبائل الوطنية

---

(١) ن.م. ص ٣١٦. وأورد ذلك ابن عبد الحكم قبله في فتوح مصر والمغرب. وانظر، الكامل ١٢/٣.

(٢) الكامل ١٢/٣ ـ ١٣؛ ابن خلدون: ١٠٠٢/٢.

(٣) البلاذري: ص ٣١٦.

حيث اتخذ سبيطلة عاصمة لإدارته. في الوقت الذي حافظت فيه قرطاجنة على ولائها الديني والسياسي للقسطنطينية[1].

وكانت خطة العرب ذكية في التهييء لفتح افريقية؛ فبعد إقصاء البيزنطيين عن الحكم في ليبيا وضمان ولاء السكان الوطنيين اتجه اهتمام العرب إلى المواجهة ضد العنصر الحاكم وحده في افريقية وطيلة عمليات الفتح التي طلبت عقوداً من السنين، قبل أن تتحوّل المواجهة إلى صراع ضد المعارضة الوطنية نفسها.

حتى إذا كانت سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر[2]، وعينّ مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان يعمل من قبل في جيش مصر[3]. وحسب بعض الروايات[4] فقد تولّى سنة ٢٥ هـ بأمر عثمان قيادة جيش من عشرة آلاف مقاتل لغزو افريقية، ومعه عقبة بن نافع وعبد الله بن نافع. ويظهر أنه اصطدم بمقاومة شديدة من السكان أنفسهم، فاكتفى بالحصول على أموال ضمن شروط المصالحة.

والحق أن هذه المغامرة لم تكن لتتم بهذا الغموض مع كثرة الجيش الغازي نسبياً، وإنما حدثت بعد ولاية ابن أبي سرح لمصر سنة ٢٧ هـ، حيث استأذن عثمان في فتح افريقية فتولىّ عثمان استشارة

---

(١) Ostrogorsky, Histoire..., pp. 148-149.

(٢) الطبري: ٥/٤٨؛ الكامل ٣/٤٦؛ الذهبي: عبر ١/٢٩؛ Ostrogorsky, Op. Cit. p. 151. ويقدم كل من البلاذري: ص٣١٧؛ وابن خلدون: ٢/١٠٠٢؛ وابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٧٩ تواريخ مخالفة، والأصح ما سبق ذكره.

(٣) الطبري : ن.م. وص.

(٤) ابن خلدون: ٢/١٠٠٣؛ الكامل ٣/٤٥.

الصحابة الذين وافقوا على تجريد حملة إلى هذا القطر، ووعد عثمان ابن أبي سرح بخمس خمس الغنيمة، وأصحبه عدداً من الصحابة والتابعين كعبد الله بن عمر وعبيد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير ومعبد بن العباس(١). ثم زحف الجيش باتجاه سبيطلة وقد كانت الأراضي الليبية كلها قد حرّرت من السيطرة البيزنطية، وحوصرت عاصمة الثائر جرجير كما قتل هو نفسه، ولكن سبيطلة لم يقع نهبها بعد فتحها حيث اكتفى الجيش المنتصر بفدية ضخمة، وفوجىء القادة بما تتوفر عليه المنطقة من ثروات(٢) كما أن الجيش العربي تمكّن من افتتاح مراكز أخرى(٣) قبل أن يحصل على ترضية مادية وينسحب دون أن يشيد قيرواناً (معسكراً)(٤).

وتجدد غزو افريقية بعد سنة ٣٤ هـ على يد معاوية بن حديج الذي يذكر ابن عبد الحكم أنه كان معه عبد الملك بن مروان تحت إمرته. وكان معاوية المذكور تابعاً لعامل مصر عبد الله بن سعد، وساهم في الغزو عدد كبير من المهاجرين(٥). وهذه الغزوة حسب ابن عبد الحكم لا يعرفها كثير من الناس(٦)، وهي على أي حال لم تؤد

---

(١) البلاذري :ص.س.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس، ص ٤٤ ــ ٤٦؛ Ostrogorsky, Op. Cit. p. 149. وانظر بشأن مقتل جرجير: رواية ذكرها صاحب الأغاني (صالحاني: رنات ٢/٣٧١)

(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٠٥.

(٤) ابن عبد الحكم: م.س. ص ٤٤، وبعض الروايات اللاحقة تخالفه، ولا عبرة بها، لأن العرب لم يستقروا بافريقية إلا بعد ذلك

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٥٦.

(٦) م.س. ص ٦٠.

إلى نتائج سياسية كسابقتها أيضاً. وستتوقف المواجهة ضد البيزنطيين في هذه المنطقة إلى حين استقرار معاوية في الحكم كخليفة.

وكان معاوية عامل الشام قد أظهر طموحاً إلى توسيع الفتوح الإسلامية عبر سواحل البحر المتوسط، ودفعته الجرأة في عهد عمر، إلى أن اقترح عليه فتح قبرص، فرفض حتى لا يعرّض العرب لمغامرة بحرية لم يألفوا مثلها(١).

ولما كانت خلافة عثمان عرض معاوية نفس الفكرة على الخليفة الجديد سنة ٢٧ هـ، فأذن له على أن يجنّد المتطوعة ولا يكره أحداً على التجنيد، وأن ترافقه زوجته(٢) (دون تعليل لهذه الرفقة!). وقد تولى معاوية القيام بالاستعدادات العسكرية اللازمة إلى أن تحرّكت مراكبه من الشام سنة ٢٩ هـ (٦٤٩ م) على الأرجح، وتولىّ قيادة الأسطول عبد الله بن قيس الجاسي، وتحرّك أسطول آخر من مصر لنفس الغاية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح(٣). وتعد قبرص قاعدة بحرية بالغة الأهمية بالنسبة للدولة البيزنطيـة، وقد تمكّن الجيش من فتـح عاصمتها قُنْسطَنْطِيّـة(٤) (Constantia)، ثم وقع الصلح عـلى سبعة آلاف دينار سنوياً، مع التزام السكان بعدم مناصرة الروم في حروبهم، وأداء جزية إلى القسطنطينية بنفس المبلغ المذكور، ولذلك كانوا يؤدون فديّتين(٥). إلاّ أنهم خرقوا بنود الصلح فأعانوا الروم في غزواتهم سنة

---

(١) الطبري: ٥/٥١ ـ ٥٢؛ البلاذري: فتوح، ص ٢٠٨؛ الكامل ٤٨/٣؛ ابن خلدون: ١٠٠٧/٢.

(٢) البلاذري: ص ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣؛ن. ص؛ ابن خلدون: ١٠٠٨/٢.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 146.

(٥) البلاذري: ص ٢٠٨.

٣٢ هـ، مما جعل معاوية يهاجم قبرص مرة أخرى سنة ٣٣ أو ٣٤ (٦٥٤)، حيث كان أسطوله يتألف من خمسمائة قطعة[١]، وفي هذه المرة تم فتح قبرص عنوة وسبي بعض سكانها ولكن معاوية أقرهم على الصلح السابق. وفي نفس السنة نهبت جزيرة رودس، ووقعت قوص في يد الجيش الشامي، كما غزا معاوية كريت. وكل هذه القواعد تمثل أهمية ستراتيجية كبيرة، وكان هدف معاوية هو إضعاف القوة البحرية البيزنطية ليتمكّن من الاستيلاء على القسطنطينية[٢].

وكرد على هجمات العرب في عرض البحر المتوسط وسواحله، وكذا على الزحوف العربية داخل إفريقية قام الإمبراطور قسطنطين الثاني (ابن هرقل) سنة ٣٤ (٦٥٥) على الأرجح[٣] بهجوم على الأسطول العربي في سواحل ليسيا من الأناضول، وكان الأسطول بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحضر معاوية على رأس جيش الشام. وكان الأسطول البيزنطي يتكوّن من عدة مئات من القطع تتراوح بين خمسمائة وستمائة، بل قيل أكثر. وقد شد المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض، وهاجموا البيزنطيين بالسلاح الأبيض إلى أن تغلّبوا عليهم وأفلت قسطنطين بنفسه. وسمّى المسلمون المعركة بغزوة ذات الصواري لكثرة ما كان يشاهد فيها من صواري السفن[٤]. وقبل هذه المواجهة استولى معاوية على حصن من حصون ملطية سنة ٣٣ هـ[٥].

---

(١) البلاذري: ص ٢٠٩.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit. p. 147-9.

(٣) ابن تغري: نجوم ١/ ٨٠؛ Ostrogorsky, Op. Cit. وحسب روايات أخرى سنة ٣١هـ.

(٤) انظر: الطبري: ٥/٦٨؛ ابن الأثير: الكامل ٣/٥٨؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/ ٨٠؛ ابن خلدون: ٢/١٠٠٦، Ostrogorsky, Op. Cit..

(٥) ابن تغري: نجوم ١/ ٩٠؛ وملطية هي غير مالطة.

كذلك استؤنفت المواجهة ضد الفرس وتوبع فتح باقي المناطق التابعة للإمبراطورية الفارسية أو التي انتفضت بعد مقتل عمر. وباستثناء أذربيجان التي فتحت بعد حوالي خمس سنوات من خلافة عثمان[1] وهو الفتح الثاني بعد أن فتحت لأول مرة في عهد عمر سنة ٢٢ هـ فإن أهم المناطق الأخرى التي شملتها الفتوح في عهد عثمان هي طبرستان على يد سعيد بن العاص سنة ٣٠[2] وخراسان وهي ذات أطراف شاسعة وتمتد حدودها بين الهند وحدود العراق مع إيران[3]، ومن مراكزها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا الخ.. وقد امتدت ثورة خراسان التي دبّرتها أسرة يزدجرد من مقتل عمر سنة ٢٣ إلى ٣٠ وطردت عمال العرب إلى أن عينّ عثمان عاملاً جديداً على البصرة من أسرته وهو عبد الله بن عامر بن كريز، فأمره عثمان بفتح المنطقة سنة ٣١ وتولىّ القيام بذلك في ظرف وجيز، حيث وزّع الجيش فرقاً تولّت كل منها إخضاع جهة معينة، وتعاونت معها جيوش من عمان والبحرين وغيرها[4]. وعلى العموم كانت فتوح الامبراطورية الساسانية تقع على عاتق عمال البصرة والكوفة، بينما يتولى عامل الشام مواجهة البيزنطيين، خاصة أيام عثمان.

وارتبط مصير يزدجرد آخر ملوك الساسانيين بمصير خراسان،

---

(١) الذهبي: العبر ١/ ٢٩، وسبق الحديث عن فتح أذربيجان.

(٢) الطبري: ٥/ ٥٧.

(٣) ياقوت: معجم البلدان (خراسان).

(٤) هنا أيضاً اختلاف في تاريخ الفتح. وانظر التفاصيل في: البلاذري: فتوح ٥٦٧؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٥٧؛ ياقوت: م. س.؛ ابن خلدون: ٢/ ١٠٠٩.

فبعد أن تشرّد سنوات متنقلاً مع أنصاره بين المراكز التي قلبت له ظهر المِجَنّ، انتهى إلى مرو عاصمة خراسان بينما كان العرب يعملون على استعادة سيطرتهم الشاملة على هذه المنطقة. وكان قد بعث بشطر كبير من أموال الخزينة وما عنده من ثمين المتاع إلى الصين، يأساً من البقاء في الملك. ولكنه أهان مرزبان مرو وطرد زعيمًا تركياً خطب إليه ابنته، فاتفق الأتراك وماهويه مرزبان مرو على قتاله، حتى إذا هزم شر هزيمة وتخلّ عنه أنصاره كلياً التجأ إلى طحان يصنع الأرحاء فاستولى على تاجه ولباسه بعد أن قتله، وترك يزدجرد ابناً يدعى فيروز فوقع في أيدي الترك. ولكنهم أكرموه وزوّجوه، كما ترك يزدجرد بنات وابناً آخر. وكان مقتله سنة ٣١ هـ[1]. وبقتله تخلّص أنصار البلاط الساساني من كل مبرر لمناهضة العرب، وذلك ما سهل خضوع الفرس للحكم العربي الإسلامي، وقد كانوا يفتقدون زعيمًا راجح العقل.

الثورة ضد عثمان

بينما كان الحكم الإسلامي في عهد عثمان يواصل تصفية الجيوب الساسانية ويجابه البيزنطيين في عدة واجهات كانت الأحداث داخل الكتل العربية في شبه الجزيرة والعراق والشام ومصر تسير في اتجاه يتدرّج نحو مناهضة الحكم العثماني. وحيث إن هذه المناهضة اكتست طابع التمرّد الصريح ضد عثمان وأنها أدّت بالتالي إلى تكوين أحزاب حقيقية لكل منها آراؤها ونظرياتها في الحكم، فمن الأنسب

---

(١) انظر بشأن مصير يزدجرد: الطبري: ٧١/٥؛ البلاذري: فتوح، ص ٤٤٠؛ المقدسي: البدء ١٩٦/٥؛ ابن تغري: ٨٨/١؛ ابن الأثير: الكامل ٥٨/٣؛ ابن خلدون: ١٠٢١/٢.

تتبع شريط الثورة قبل الإدلاء بأي وجهة نظر. وقد تسلسل هذا الشريط في المراحل التالية:

١ ـ تذمّر الكوفة من ولاتها[1]

ففي سنة ٢٧ هـ تم عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة على إثر نزاع بينه وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال الذي طالب سعداً برد مال اقترضه، وأحدث ذلك بعض الشغب فعزل سعد واستبدل بالوليد بن عقبة. وفي سنة ٣٠ حيكت مؤامرة ضد الوليد بن عقبة من لدن عدد من خصومه بالكوفة واتهموه ظلماً بشرب الخمر حتى حد من أجل ذلك وعزل[2] وأقيم مكانه سعيد بن العاص، فحاول أن يسترضي أهل الكوفة بأن جمع في مجلسه الاستشاري بين المحاربين القدامى من أهل القادسية وعناصر لاحقة ممن لم يكن لها دور يستحق الذكر، فأدى ذلك إلى التحاسد والتباغض و«فشت القالة والإذاعة» كما قال الطبري[3]. ولكن سعيد بن العاص ما لبث أن خصص بالتقدير والاستشارة وجوه أهل الكوفة ومحاربي القادسية وقراء البصرة.

وفي سنة ٣٣ هـ جرى حديث بين سعيد وعدد من الشخصيات العربية الكوفية التي تنتمي إلى البورجوازية الجديدة (أغنياء الحرب) والذين لا ينتمون لقريش، وأدى ذلك إلى مفاخرة بالأحساب والأنساب، ثم إلى خروج هذه الجماعة إلى دمشق حيث تكرر الحوار نفسه مع معاوية، وكان نفي الجماعة إلى الشام بأمر عثمان. ومن

---

(١) الطبري: ٥/٤٧.
(٢) م.س. ص ٥٨.
(٣) ن.م. ص ٦٤.

محتوى النقاش بين هذه الجماعة وعاملي الكوفة والشام يتبينّ أنها كانت تنتقد استئثار العناصر القرشية بالسلطة والهيمنة الاقتصادية(١).

وفي نفس السنة بدأ عبد الله بن سبأ، وكان يهودياً قبل الإسلام وينزل البصرة، في انتقاد عثمان واتهامه باغتصاب الخلافة من علي، واستطاع أن يقنع بذلك بعض أهل البصرة، فأخرج منها ثم توجه إلى مصر فبدأ في تنظيم حملة دعائية لصالح علي، وكانت بينه وبين الأمصار مكاتبات واتصالات متبادلة(٢).

وفي سنة ٣٤ هـ تحالفت عناصر مناهضة لسعيد بن العاص ضده وبينهم أفراد ممن سبق نفيهم إلى الشام فطالبوا بتنحية سعيد وتولية أبي موسى الأشعري(٣). وظهر ضعف عثمان جلياً بعد هذه الأحداث، فقد ألان جانبه لثوار الكوفة بشكل لا يتفق مع مركزه كمنسّق أعلى لامبراطورية ضخمة؛ وأرسل يقول لأهل الكوفة(٤): «لا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلاّ سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلاّ ما استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم على الله حجة؛ ولنصبرن كما أُمرنا!». وهكذا عزل سعيد وولي مكانه أبو موسى الأشعري.

٢ ــ انضمام الصحابة إلى المستائين

ظهر الإستياء بين الصحابة في الأمصار وبالمدينة سنة ٣٤ هـ من تصرفات عثمان، وحتى الذين لم يكونوا ينتقدونه لم يدافعوا عنه إلاّ

---

(١) انظر الكامل ٣/ ٧٠؛ والطبري: م.س.

(٢) الطبري: ٥/ ٩٠؛الكامل ٣/ ٧٢.

(٣) الكامل ٣/ ٧٥.

(٤) ن.م. ص ٧٤.

قليلاً منهم ككعب بن مالك وحسان بن ثابت وزيد بن ثابت[1]، وتحدث المنتقدون إلى علي بن أبي طالب حتى يصارح عثمان بما يعاب عليه في مختلف الأوساط بعامة الأمصار. واتصل علي بعثمان، وكان ذلك سنة ٣٤ هـ حيث أبلغه شكوى المنتقدين وما يعاب عليه من تولية ذوي القربى وتهاون في معاقبة ولاة الجور والاستغلال. وعوض أن يأخذ عثمان الأمور بحزم، جمع السكان في مسجد المدينة وعدد لهم مزاياه وذكرهم بصرامة عمر، فلم يزدهم ذلك إلاّ تهويناً لشأنه وتألباً عليه[2]، ولم يحفل بنصائح علي.

٣ ـ زحف ثوار الأمصار نحو المدينة

قام عبد الله بن سبأ بنشاط عظيم منذ سنة ٣٣ هـ، وربما قبل ذلك بسرية أكثر، لتأليب الأمصار ضد عثمان. وكان عبد الله وهو الصنعاني اليمني يجد في العناصر اليمنية وسائر المناهضين لقريش ولأقرباء عثمان مادة ثمينة وسهلة المنال للثورة ضد الخليفة الضعيف. وفي مصر تمكّن من إقناع مجموعة من أتباعه برجعة محمد (ص) وأنه أوصى لعلي بالخلافة، وأن عثمان اغتصبها منه. ونظم حملة حقيقية بالمكاتبة مع مختلف أمصار الشام والكوفة والبصرة، وحتى المدينة. وتناولت الحملة سياسة عثمان ومعايب ولاته. وبعث عثمان بعدد من الصحابة إلى الأمصار يستخبرون عن حقائق الأحوال فعادوا يخبرونه بأن كل شيء على ما يرام وإنما هي حملة مضللة لا أثر لها. وكان عمار بن ياسر قد بعث إلى مصر فبقي بها وهو من العاطفين على علي.

---

(١) الكامل ٣/٧٥.

(٢) ن.م. ص ٧٧.

ثم توافدت فرق الثوار تباعاً باتجاه المدينة[1]: خمسمائة مصري بقيادة الغافقي بن حرب العكي، وخمسمائة كوفي بقيادة عمرو بن الأصم، وخمسمائة بصري بقيادة حرقوص بن زهير السعدي. ولم تكن هذه المجموعات متحدة إلّا ضد عثمان، بينما هي تختلف فيمن يخلفه، فكان بين أهل البصرة من يرشح طلحة، وفي الكوفة من يرشح الزبير، وفي مصر من يرشح علياً، ثم خاطب كل فريق مرشحه فرفض الثلاثة أن يتحللوا من بيعة عثمان. وقام عثمان بدوره يكاتب أنصاره بمصر والشام والعراق لحمايته، ثم ألقى خطبة في المسجد فحصبه الثوار حتى غشي عليه وحصبوا أنصاره وطردوهم من المسجد. وكلّم عثمان علياً في شأن حمايته، وأشار عليه علي بالإقلاع عن الاستماع إلى أقربائه كمروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد[2]، وكان يستشير أقاربه ويعمل برأيهم حتى وإن كان ضرراً عليه، ويترك رأي غيرهم حتى وإن كان فيه مصلحة له ولحكمه. ونزولاً عند رغبة عثمان، تمكّن علي من صد المصريين، ثم عاد إلى عثمان يدعوه إلى أن يتحلل علانية من مساوئه وأن يتعهّد باتخاذ سياسة إصلاحية جذرية يطمئن إليها الجميع، ففعل. ولكن ما لبث مروان بن الحكم أن أفسد ما أصلحه علي، فخرج يتهدد الثوار وينذرهم بالهزيمة! وعندئذ قرر علي أن لا يعود إلى التدخل بين عثمان وخصومه. وعاد المصريون الثوار من جديد وقد اطلعوا على خطاب زور باسم عثمان، يأمر عامله بصلب بعض زعمائهم[3] وإقامة الحد على آخرين. وبعد هذا الحادث لم يعد هناك أي حاجز يمكن أن يقف في وجه الثوار قصد الإطاحة

---

(١) الطبري: ٩٨/٥؛ الكامل ٣/ ٧٩.

(٢) الكامل ٨١/٣.

(٣) ن.م. ص ٨٤ ــ ٨٥.

بعثمان، فقد تجرّأ المصريون على مطالبة عثمان بخلع نفسه، حيث دخلوا عليه دون أن يسلّموا عليه بالخلافة، وسألوه عن الخطاب المرسل باسمه، فأقسم أنه لا علم له به، وعرف الحاضرون، ومنهم علي أنه من عمل مروان. وعندئذ استضعفوا عثمان، وألّحوا عليه في التنازل عن الحكم، ولكن عثمان كان يعتقد أنه مفوّض من عند الله وليس منتخباً من الأمة، فقال: «لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، لكن أتوب وأنزع!!». وكان معاوية قد نصح عثمان بالهجرة معه إلى الشام ليضعه تحت حمايته ولكنه رفض وتمسّك بالبقاء حيث هو وكما هو. وعمل علي مرة أخرى على رد المصريين عن عثمان[1]، والتزم عثمان من جديد أن يغيرّ عماله ويضع حداً لمظالمهم، وأعطي مهلة ثلاثة أيام وذلك بتدخّل علي رغم أنه كان قد قرر ألا يعود إلى التوسط بين الخليفة وخصومه، ولكنه لم يفعل شيئاً خلال المهلة المحددة، وكان ينتظر أن تتوافد الجيوش لنصرته. ثم حوصر عثمان في بيته أربعين يوماً حتى منع عنه الماء، وكان يصله سراً بفضل مساعدة علي ثم آل حزم. وقرر عثمان أن يكل أمره إلى الثوار وألح على من بقي يحمي بيته أن يغادره وكان آخرهم عبد الله بن عباس والحسن بن علي ثم عبد الله بن الزبير. وعمد الثوار المصريون إلى إحراق باب البيت، ثم ضربه الغافقي بحديدة. وكان مع القاتل قتيرة وسودان بن حمران وكلهم من ثوار مصر، وكذا كنانة بن بشر التجيبي. وقد تمكّن غلمان عثمان من قتل هؤلاء إلّا الغافقي. وقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف، وببيته جماعة من أسرته كزوجته نائلة ومروان بن الحكم. وكان مقتله في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ، ودفن بالبقيع، وحضر جنازته قليل من الناس بينهم زوجتاه.

---

(١) ن.م. ص ٨٦.

هذا هو مسلسل الأحداث كما هو في تاريخ الطبري ومن نحا نحوه[1]، مع إلغاء بعض التفاصيل التي لا طائل من وراء سردها. وبينها ما يبرىء علياً من كل تهاون في الدفاع عن عثمان، حتى إنه لطم الحسن والحسين وغضب غضباً شديداً بعد أن سمع بمقتل عثمان وقد تخليا عنه مع إلحاح عثمان في ذلك كما سبق[2].

ومما نقم على عثمان:

١ ــ إنه تصرف في الصدقات بما لم يتصرف به الرسول وأبو بكر وعمر. فأقطع مروان بن الحكم فَدَك، وأعطاه خمس الغنائم من افريقية[3]، وأعطى عبد الله بن خالد بن أسد أربعمائة ألف درهم والحكم بن العاص مائة ألف[4].

٢ ــ استعمل عمالاً لا تتوفر فيهم مؤهلات النزاهة والاستقامة الدينية. فقد اتهم الوليد بن عقبة عامل الكوفة بأنه صلى بالناس وهو ثمل، فلما خلفه سعيد بن العاص كان متكبراً ووضع العشور لأول مرة على الجسور والقناطر[5]. وقتل عبد الله بن سعد عامل مصر سبعمائة شخص بدم رجل واحد فلم ينكر عليه وإن عزله[6].

٣ ــ آوى الحكم بن العاص وكان يفشي أسرار الرسول، وبقي

---

(١) انظر أيضاً: ابن عبد ربه: العقد ٥/٣٦ ــ ٤١، وفيه يصف سعيد بن المسيب مقتل عثمان واحداث الثورة ضده.

(٢) م. س. ص ٤٠.

(٣) المقدسي: البدء ٥/٢٠٠.

(٤) ن. م. وص.

(٥) ن. م. ص ٢٠١.

(٦) ن. م. وص.

شريداً أيام العُمَرَيْن، حتى آواه عثمان ورحب بمقدمه في الوقت الذي نفى فيه أبا ذر إلى الربذة.

٤ ـ تزوّج نائلة الكلبية فأعطاها مائة ألف من بيت المال[١].

٥ ـ حينما كلّم في شأن استحقاق العطاء قال: هذا مال الله أعطيه من أشاء وأمنعه من أشاء[٢]. وأين هذا مما كان عمر وأبو بكر يأخذان به أهلهما من الشدة ويمنعان نفسهما من استغلال أموال الأمة. ولما كلّم عمار بن ياسر عثمان بهذا الشأن ضربه حتى غشي عليه[٣]، ولذلك انضم عمار إلى خصوم عثمان بمصر.

٦ ـ اتخذ الولاة الرئيسيين من أقاربه، فالوليد بن عقبة أخوه لأمه[٤]، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر أخوه لأمه أيضاً[٥]، وعقبة بن نافع من أقاربه[٦]، وابن كريز عامل البصرة ابن خاله[٧]، وقس على هؤلاء.

ومهما يكن من شيء، فإن الثورة ضد عثمان لم تكن مصطنعة ولا هي من عمل منافسين لعثمان في الخلافة، بل هي قبل كل شيء ثورة شعبية وجدت مجالاً فسيحاً في تصرفات عثمان واستئثار أقاربه بالسلطة والنفوذ والتصرّف في أموال الأمة وعدم وفاء عثمان بتعهداته

---

(١) المقدسي: ٥/٢٠٢.
(٢) ن.م. وص.
(٣) ن.م. وص.
(٤) البلاذري: ص ٣١٣؛ الحافظي: عبر ١/٢٨.
(٥) ابن تغري: نجوم ١/٧٩.
(٦) البلاذري: ص ٣٣١.
(٧) ابن خلدون: تاريخ ٢/١٠٠٩.

كلما أتيحت له الفرصة ليراجع أعماله، بل كان لا يهتم بنصائح من يريدون الخير لنظامه ولشخصه، ولا يختص بالمشورة إلّا أقاربه، فإن استشار غيرهم حالفهم.

ولقد وطّأ عثمان الحكم لأقاربه من حيث قصد أو لم يقصد، لأن الذين استفادوا من سوء الأوضاع وخطورة الأزمة هم بالذات ولاة بني أمية وإن لم يسكت البيت النبوي عن المطالبة بالخلافة. وسيفتح مقتل عثمان بحق صفحة جديدة في التاريخ الحزبي للمجتمع الإسلامي، حيث سينْبَرِي دفعة واحدة إلى الميدان وفي وقت واحد أو متقارب كلٌّ من الزبيريّين، والخوارج، وبني أمية، وأنصار علي.

تولية علي

تولى علي الخلافة في ظروف تختلف كثيراً عن الظروف التي تولى فيها عثمان والعُمَران. فبظهور العصبية الأموية في عهد عثمان وتماسكها بعد مقتله، أصبح البيت الهاشمي وجهاً لوجه أمام البيت الأموي الذي قرر أن يتحدى الطموح الهاشمي ويكتسب الموقف الحرج لنفسه. ولذلك لم يبادر علي إلى البحث عمن يزكيه للخلافة، بعد مقتل عثمان، بل لزم بيته يرقب تطور الأحداث، وتبادر سكان المدينة، وموقفهم حاسم في مثل هذه الظروف وقد سخطوا ولاية عثمان، إلى حث عليّ على قبول الخلافة[١]، فصارحهم علي بأنه يفضل كما قال أن يكون وزيراً على أن يكون أميراً، أي يفضل أن يكون مستشاراً على أن يكون رأس الجهاز التنفيذي. ثم نزل علي عند

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٥٧/٥؛ الطبري: تاريخ ١٢٥/٥؛ ابن الأثير: الكامل ٩٨/٣.

رأيهم. وكان أول المبايعين طلحة والزبير، وقيل إنهما بايعا تحت التهديد. وتوافد المهاجرون والأنصار في المسجد عليه للبيعة، ولكن بعض الأنصار الذين كانوا يعطفون على عثمان، وخصوصاً الذين تولوا في عهده مسؤوليات أو نالوا بعض الامتيازات، لم يبايعوا علياً ومنهم حسان بن كعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير وآخرون[١]. وتوقف سعد بن أبي وقاص في انتظار ما سيحدث، وقد شغر منصب الخلافة مدة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، حيث ظل أميرها الغافقي بن حرب يحاول أن يجد حلاً للأزمة. وكان هناك مصريون يرغبون في تولية علي وكوفيون يرشحون الزبير وبصريون يرشحون طلحة. وكلهم رفضوا حتى مالت الكفة لصالح علي[٢]، فبويع قبل انصرام ذي الحجة بخمسة أيام سنة ٣٥ هـ.

ثم قام علي بإلقاء خطبة قصيرة فيها توجيهات للأمة وحض على التقوى ونهي عن الشر[٣]. ويظهر أن البيعة تمت على شروط محددة مع كبار الصحابة قبل هذه الخطبة، وأن من بين الشروط إقامة الحدود على المجرمين[٤]، وبالتالي على قتلة عثمان قبل غيرهم. غير أن علياً كان ينظر إلى هذه القضية في إطار أوسع من الإطار الضيق الذي وضعها فيه المطالبون بدم عثمان، كما سيوضح ذلك.

لم يكن علي بن أبي طالب بالعديم الكفاءة ولا هو ممن تنقصهم الخبرة بأوضاع المجتمع الإسلامي، فقد رافق مولد الإسلام في مهده

---

(١) الطبري: ١٥٣/٥؛ الكامل ٩٨/٣.
(٢) الطبري: ١٥٥/٥.
(٣) م.س. ص ١٥٧؛ الكامل ١٠٠/٣.
(٤) الطبري: ١٥٨/٥.

وعايش الرسول ابن عمه في أحرج مراحل حياته، وهي الفترة الأولى من الدعوة الإسلامية، وتأثر بتعاليمه وعمل بجانبه كاتباً ومستشاراً وقائداً عسكرياً ومنظماً إدارياً وكانت آراؤه الفقهية والسياسية ذات موقع سام في مجالس الخلفاء الثلاثة، لا سيما أيام العمرين. ولو كان عثمان يستمع لنصائحه لمرت خلافته في أحسن الظروف ولربما تغيرت مسيرة التاريخ الإسلامي في اتجاه أحسن.

ووصف علي[1] بأنه كان شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما، ذا بطن، أصلع، عظيم اللحية، كثير شعر الصدر، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، مع ضخامة عضلة ذراعه وساقه، ذا وجه حسن كثير التبسم. وإذا أضفنا إلى هذه الصورة الفزيولوجية مؤهلاته الفكرية العالية، من عميق اطلاع على مضامين الشريعة وأحكامها وفصاحة رائعة أهلته ليحتل مكاناً ممتازاً في الأدب العربي مع قيمة كلامه مضموناً وشكلاً، استطعنا أن نأخذ فكرة عن شخصيته التي تبدو فيها الثقة بالنفس وشجاعة القلب، والرأي، والصمود للتحديات، وسلامة الصدر، وروح المغامرة، والإيمان بالمثل العليا، والصراحة، والصرامة، مع نقص في المداراة ومراعاة الظروف ورغبة في استخدام اللين حيث يجب، عوضاً عن التزام الصرامة كخط مستقيم.

هكذا كان علي بن أبي طالب الرجل الذي حظي وهو شاب بتقدير فائق من الرسول، فكان يجده بجانبه في أخطر المهمات وأدق الظروف، ويحسن فيه الظن فلا يخيبه.

كان علي عندما بويع بالخلافة أمام مشكل كان المفروض أنه حسم بمقتل عثمان، ولكنه ضُخِّمَ ومُطِّط ليصبح جداراً يقفز منه

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٥/٥٨؛ الطبري: ٦/٨٨؛ الكامل ٣/١٩٩.

الطامحون والانتهازيون والخائضون في الماء العكر إلى ميدان المنافسة على المسؤولية الكبرى، وبالتالي إلى تحطيم الوحدة الإسلامية التي تطلب بناؤها نصف قرن على الأقل، من مبعث الرسول إلى شطر هام من خلافة عثمان.

معاوية يتحدى وعلي يتصلب

لم يواجه أي من الخلفاء الثلاثة السابقين ما واجهه علي بن أبي طالب من قسوة الأحداث وعداء المناهضين، فكان أول ما لقيه من خصومه أن طالبوه بالاقتصاص من قتلة عثمان. وكانت المبادرة الأولى من طلحة والزبير وجمع من الصحابة، وكان رد علي هو قوله[1]: «يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن، كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوْا، فهل ترون موضعاً لقدرة على ما تريدون؟» حتى إذا أعلنوا عجزهم قال: «إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك، على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا...».

وإن في رد علي ما يكفي لإقناع هؤلاء بأن المسألة لم تكن من عمل الذين اقتحموا دار عثمان وحدهم، أو الذين اغتالوه وحدهم، بل إن فئات كثيرة من المجتمع فيها جماهير مستضعفة من أعراب ورقيق فضلاً عن جلة الصحابة وغيرهم كانوا وراء مصير عثمان

---

(١) الطبري: ١٥٨/٥.

المحزن. ومعنى هذا أن علياً إذا أمسك بطرف الخيط في هذه القضية فلن ينتهي إلى الطرف الآخر قط، وأن العقاب الشديد قد ينال مئات وربما آلافاً من الناس وقد يسلط على الأبرياء، فيتسع الخرق على الراقع. ومع ذلك كان لابد من عمل شيء في هذه القضية الشائكة، ولكن علياً لم تلن قناته بقدر ما تكاثر المطالبون بالقصاص، وهو إذا لم يحل المشكل، فإن الخصوم زادوه تعقداً. والواقع أن الوضع في المدينة كان ينذر بالانفجار، فهناك الأعراب الذين ملأوا رحاب المدينة[1] وكانوا يتقاطرون عليها من أيام عثمان طامعين في العطاء على قدم المساواة مع الأنصار والمهاجرين، ثم مناصرين لخصوم عثمان، ثم السبئيّة الذين يناصرون علياً بشكل متطرف لا يخدم الخلافة. وألح علي على الأعراب أن يلتحقوا ببواديهم فرفضوا بتحريض من السبئيّة[2]. وحاول علي أن يحول بين قريش والخروج من مكة والمدينة ليكسب تأييدهم، غير أن بني أمية بادروا بمغادرة شبه الجزيرة إلى الشام[3] يكوّنون بذلك عصبية سياسية إلى جانب معاوية. ومن حسن حظ الخلافة والمجتمع الإسلامي أن البيزنطيين كانوا منشغلين بمشكلاتهم الداخلية في هذه الظروف، على الرغم من أن الامبراطور قسنطين (Constant) حاول الهجوم على الشام بأسطول ضخم قبيل مقتل عثمان. ولكن الأسطول غرق على إثر ريح عاصف، ثم قام الشعب البيزنطي ضد دكتاتورية قسنطين الذي جرد أخاه من الترشيح للعرش، فانتقل الامبراطور الطاغية إلى صقلية[4] حيث قتل سنة

(١) ن.م. ص ١٥٩.

(٢) الطبري: ٥/١٥٩؛ ابن خلدون: ٢/١٠٥٧؛ ابن الأثير: ٣/١٠٠.

(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٥٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٣/١٠٢؛ الطبري: ٥/١٦١؛ Ostrogorsky, Histoire، pp. 152-153.

٦٦٨م. وتربط الرواية العربية بين نهاية قسطنين وغرق الأسطول مع أن بين الحادثين بوناً زمنياً شاسعاً.

ولما كان علي منشغل الفكر بقضية الولاة الذين تركهم عثمان ومعظمهم من أقاربه فقد قرر أن يحسم أمرهم جملة وبسرعة فيعزلهم ويولي غيرهم. وكان هذا تدبير مستعجل في الوقت الذي لم يسو فيه علي بعد قضية عداء قريش والمدينة، فضلاً عن أن عملية العزل كان يليق تأجيلها لوقت لاحق بعد أن يتلقى أكثر ما يمكن من المعلومات عن مواقف السكان في كل إقليم ويكتل الأنصار حوله ويتألف أعداءه قبل غيرهم.

وكان عدد من الأنصار الذين تلكأوا في بيعته قد بايعوه في النهاية، وانضم إليهم بعض المهاجرين كالمغيرة بن شعبة الذي نصحه بإقرار عدد من ولاة بني أمية خصوصاً معاوية(١)، وكان ابن عباس وهو ابن عمّ علي أكثر نصحاً له وإخلاصاً، فأشار عليه أن يتخلى كلية ويلزم بيته بمكة أو ينبع، حتى إذا لم يقبل ألح عليه في إقرار معاوية، فرفض بشدة وقال: «أما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف!»(٢).

وهكذا قرر علي ما يراه هو، لا ما يراه ناصحوه ومستشاروه، وكان ينظر إلى الأمور بميزان الحق والنزاهة وليس بالمقياس الظرفي، مع أن الظروف الاجتماعية والسياسية قد اختلفت كثيراً عما كانت

---

(١) الطبري: ٥/١٦٠؛ المقدسي: البدء والتاريخ ٥/٢٠٩.

(٢) الطبري: م.س. ويروي ابن عباس نفسه قصة حواره مع علي بشأن عزل الولاة وتصلب علي (ن.م.)؛ ابن خلدون: ٢/١٠٥٧.

عليه أيام عمر، فبعده دخلت السلطة وحب المال والجاه نفوس الناس أفراداً وعصبيات، ولم تعد العقيدة صلبة مثلما كانت بسبب ما طرأ من نعمة، وإن لم تفقد المخلصين لها في المجتمع ومن بين القادة كعلي.

وعين علي على الفور، وفي مطلع سنة ٣٦ هـ عمالاً جدداً[1]:

١ ــ عثمان بن حنيف على البصرة.

٢ ــ عمارة بن شهاب، من المهاجرين، على الكوفة.

٣ ــ عبيد الله بن عباس باليمن.

٤ ــ قيس بن سعد بمصر.

٥ ــ سهل بن حنيف بالشام.

والتزم قسم من أهل البصرة ببيعة علي وقبلوا عامله، وقسم ظل على ولائه للعامل السابق ابن عامر، وقسم محايد. أما عمارة بن شهاب فنصحه البعض بالرجوع من حيث أتى لأن أهل الكوفة يفضلون عاملهم أبا موسى الأشعري الذي عينه عثمان. وأما عبيد الله فاستولى على مال الجباية وتوجه به إلى مكة ولم يزاول مهمته باليمن. وقبل أهل مصر بيعة علي وعامله، إلا قسمًا منهم طالبوا بالاقتصاص من قتلة عثمان قبل أن يدخلوا في البيعة. أما سهل بن حنيف، فردته خيل معاوية بتبوك. وكان معاوية في هذه الأثناء قد بعث رسولاً إلى علي يخبره بأن أهل الشام يقيمون الحداد على عثمان وينتظرون القصاص من قتلته، وأن قميص عثمان قد نصب على منبر المسجد بدمشق. وعرف علي أن معاوية يرفض بيعته ويستعد لمواجهته. وكتب علي إلى أبي موسى عامل الكوفة يطالبه بالدخول في بيعته ويستخبره

---

(١) الطبري: ٥/١٦١؛ ابن الأثير: ٣/١٠٣؛ ابن خلدون: ٢/١٠٥٨.

عن أحوال الكوفة، فاستجاب لبيعته وأطلعه على حقيقة الأوضاع هناك[1].

وحينما بدأت الحالة تنذر بالانفجار، استأذن طلحة والزبير علياً في الذهاب إلى مكة لقضاء العمرة[2] فأذن لهما. وأغلب الظنّ أنهما كانا على علم بما كان يجري في مكة من تأليب عائشة لسكانها على علي[3]، وأن هذا لم يتعرف على ذلك إلا بعد أن سمح لطلحة والزبير بالذهاب إلى مكة. ذلك أنه بدأ يستعد لغزو الشام، حيث انتدب أهل المدينة وعمال مصر والكوفة والبصرة لحشد المقاتلين وعين قادة الجيش[4] بهذه الجبهة. غير أن الأمور في مكة تطورت بدورها في اتجاه آخر وبسرعة أكبر.

عائشة تقود الثورة ضد علي

عندما توافت الأنباء بمقتل عثمان وخلافة علي، ظهر من عائشة زوجة الرسول (ص) موقف مناهض لعلي شبيه بموقف بني أمية، وإن لم يكن الهدف واحداً، فقد قررت عائشة أن تدافع عن موقف عثمان منذ أن علمت بمقتله، وأن تطالب بالاقتصاص من قتلته، فدخلت مسجد مكة وخطبت الجماهير من وراء ستار، تسفه ثورة الرقيق والبدو ووفود الأمصار ضد عثمان وتستنكر سفك الدم الحرام واستحلال البلد الحرام في شهر حج، ثم تدعو إلى الاقتصاص من المجرمين[5] دون أن

---

(١) الطبري: ١٦٢/٥.

(٢) الطبري: ١٦٣/٥؛ ابن خلدون: ١٠٦٠/٢.

(٣) المقدسي: م.س. ص ٢٠٩.

(٤) الكامل ١٠٤/٣؛ ابن خلدون: ١٠٦٠/٢.

(٥) الطبري: ١٦٥/٥ ــ ١٦٦.

تشير إلى موقفها من علي. ولكنها دعت الناهضين له إلى التجمع، فتوافد عليها العمال المعزولون من بني أمية كعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، كما انضم إليها طلحة والزبير. وكان من رأي عائشة، الزحف بأنصارها إلى المدينة، فأشار عليها القادة المذكورون بالذهاب إلى البصرة حيث يمكنها إقناع المبايعين لعلي بالتخلي عنه[1]. أما موقف نساء النبي الأخريات فأغلبهن كان مع رأي عائشة في إنهاض أهل المدينة، حتى إذا مالت الكفة للتوجه إلى البصرة لزمن موقف الحياد[2]. وكان بالبصرة أنصار عاملها الأموي السابق عبد الله بن عامر[3]، وهو على الأصح حضرمي، ولكنه يعطف على البيت الأموي. أما تجهيز الجيش الثائر، فتولاه ابن عامر ويعلى بن منية. وتجمع بقيادة عائشة حوالي ألفين من المدينة ومكة، وانضم إليهم في الطريق حوالي ألف[4]. وخرجت نساء النبي يودعن عائشة في ذات عرق وهن باكيات.

وكانت أم سلمة زوجة الرسول قد كاتبت عائشة تحاول إقناعها بالعدول عن قيادة الثورة ولكن عائشة ردت عليها بأن الظروف تقتضي منها أن تفرق «بين فئتين متشاجرتين من المسلمين»[5]. وشجع معاوية الثورة إلى حد أنه كاتب الزبير يبايعه ويحثه على الاستيلاء على العراق[6]. ومنع عبد الله بن عمر أخته حفصة من الخروج مع

---

(١) ن.م. وص.

(٢) ن م. ص١٦٧.

(٣) ن.م. وص؛الكامل ٣/١٠٦؛ ابن خلدون: ٢/١٠٦٤.

(٤) الكامل ٣/١٠٦.

(٥) ابن خلدون: ٢/١٠٦٤.

(٦) ابن عبد ربه: العقد ٥/٦٢ ــ ٦٣.

(٧) المقدسي: البدء ٥/٢١١.

عائشة.[1] بينما اتخذت أم سلمة موقفاً مناصراً لعلي، حيث قدمت ابنها عمر للقتال معه[2]، ومنعها من الخروج بنفسها الخوف من أن تعصي الله كما قالت. وأركبت عائشة جملاً وهي داخل هودج، ويحيط بها جلة أنصارها.

وجرى حوار بين الأحنف بن قيس زعيم بني تميم وبين عائشة وكبار أنصارها وكلهم كانوا ممن بايعوا علياً كعائشة وطلحة والزبير ثم تخلوا عنه وأعلنوا الثورة ضده، فلما لم يقتنع الأحنف بموقفهم الجديد اعتزلهم مع ستة آلاف من بني تميم قرب البصرة[3]، كما اعتزل سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة بمكة[4]. وحاول عدد من رجالات العرب أن يصد عائشة عن هجومها على البصرة ومواجهة علي، ومنهم زيد بن صوحان[5]، وجارية بن قدامة السعدي[6] وآخرون. واتجهت عائشة إلى المربد على رأس الثائرين، وتوافد عليها أنصار طلحة والزبير من البصرة والكوفة، بينما توجه علي بدوره على رأس الجيش الذي كان قد أعده لغزو الشام. وترك سهل بن حنيف على المدينة[7]، وقيل تمام بن العباس[8]، وقصد الربذة فوجد الثوار قد دخلوا البصرة وقتلوا خمسين من حراس بيت المال ونهبوا أموال الخزينة واعتدوا بالضرب والإهانة على عثمان بن حنيف عامل علي، وكادوا يفتكون

---

(١) الطبري: ١٦٩/٥.
(٢) ن.م. وص.
(٣) العقد الفريد ٦٥/٥ ـ ٦٦.
(٤) الطبري: ١٦٧/٥. وقريب منه، الكامل لابن الأثير: ١٠٧/٣.
(٥) العقد٦٣/٥؛ ابن الأثير: ١١٠/٣.
(٦) ابن الأثير: ١٠٩/٣.
(٧) المقدسي: البدء ٢١٢/٥.
(٨) الطبري: ١٦٩/٥.

به. وحينئذ، تأكد علي من أن خصومه يتهيأون لمواجهته على الفور، فخطب جيشه بالربذة. أما أبو موسى الأشعري عامل الكوفة فامتنع كلياً أن يدخل في أحد الحزبين ودعا إلى الصلح بين الفريقين، وما أفاد علياً أن بعث إليه وفوداً فيها ابن عباس والحسن وعمار وآخرون ليكون بجانبه. ولكنه استطاع أن يستميل السواد الأعظم من سكان الكوفة الذين انضموا إلى علي وكانوا اثني عشر ألفاً(١) وقيل ستة آلاف(٢). وخلال هذه الأحداث وقبل نشوب القتال جرى لجاج كثير حول قضية قتل عثمان واستخلاف علي، وكل يدافع بحجته، وبعض يتربص الشر، وآخرون يدعون إلى تسوية الأمور بالصلح والحوار عبثاً، وألقيت أكثر من خطبة، ووجهت أكثر من نصيحة. وخاطب علي زعماء الكوفة وقادتها بقوله(٣):

«يا أهل الكوفة، دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فهو الذي نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم، ولا ندع أمراً فيه الصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله».

وقد أبان علي بتصريحه هذا وبخطب أخرى عن ميله إلى السلم قبل الحرب، وبذلت محاولات لإجراء الصلح من العقلاء كادت تؤتي اكلها(٤)، ولكن السبئية أحدثوا الاضطراب في جيش علي حتى يهيجوهم للقتال، ومال طلحة بدوره إلى الحرب(٥). وهكذا تراءى

---

(١) ابن الأثير: ١١٨/٣.
(٢) المقدسي: ٢١٢/٥.
(٣) ابن خلدون: ١٠٧٦/٢.
(٤) ن.م. ص ١٠٨١.
(٥) ن.م. ص ١٠٨٢.

الجمعان في الخريبة على مقربة من البصرة. وهمّ الزبير بالانسحاب وقد ذكره علي بالقرابة ولكن ابنه ألح عليه في البقاء[1]. وكان من رأي علي تحكيم المصحف والنزول على ما فيه بعد أن بدأت المناوشات[2]، وقيل إن عائشة هي التي دعت إلى تحكيم المصحف، وأن السبئيّة رشقوا بالسهام حامله كعب بن سوار[3]، ورشقوا عائشة في هودجها. وتوالى القتال وكان من أوائل الجرحى طلحة بن عبيد الله، حمل إلى البصرة فمات من نزيف الدم وقد أصيبت رجله، ومن الروايات ما يفيد أنه مات في المعركة. أما الزبير فانسحب من تلقاء نفسه، لكن هرع إليه من تعقبه حتى وادي السباع فقتله. أما عائشة فكانت تصيح بلعن قتلة عثمان. وكانت أول من أحدث الدعاء بلعنهم[4]. والتف حول هودج عائشة عدد كبير من أنصارها حيث قتل منهم كثير وجرح آخرون. وقيل إن عليّاً أمر بعقر جمل عائشة حتى يسقط فيتفرق أنصارها[5]. وأقبل محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فرفعا الهودج، وتبادل محمد بن أبي بكر وأخته كلاماً دل على غضبها عليه وهو من أنصار علي. ثم تقدم نحوها علي وسألها عن حالها ثم عاتبها على موقفها فقالت: إذا ملكت فأسجح[6]. ثم حملت ليلا مكرمة إلى دار إحدى سيدات البصرة. وجاء الأحنف بعد هذا مستأمناً مبايعاً، وبايع علياً سكان البصرة. وعرض ولايتها على الأحنف فامتنع، ثم استعمل عليها ابن عباس برأي الأحنف، ودخل عند عائشة يعودها. ثم جهزها

---

(١) المقدسي: ن.م. وص.
(٢) م.س. ص ٢١٣.
(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٨٣.
(٤) ابن الأثير: ٣/١٢٥.
(٥) ن.م. ص ١٢٩.
(٦) المقدسي: ٥/٢١٥.

إلى مكة في موكب ضخم يقوده أخوها محمد بن أبي بكر ومعها أربعون من نساء البصرة وكل من رغب في رفقتها ممن قاتلوا معها، وودعها علي على أميال من البصرة. وقالت تخاطب من حضر الوداع[1]: «يا بني، لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار». وقال علي: «صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة».

وكانت الوقعة في عاشر جمادى الآخرة من سنة ٣٦ هـ، وسميت بوقعة الجمل، وحضرها على بعض الروايات ثلاثون ألفاً مع عائشة وعشرون ألفاً مع علي[2]. وقتل من الفريقين ما بين عشرة آلاف واثني عشرة آلاف مع نسبة متقاربة بينهما[3].

لم تكن نتائج معركة الجمل سوى مكسب ظاهري للحزب العلوي، وبصورة خاصة لعلي. ذلك أن آلاف الأسر التي ترمل نساؤها أو يتم أطفالها من أنصار عائشة والحزب العثماني ستنضم أكثر من ذي قبل إلى الساخطين على حكم علي. كما أن قريش التي فقدت زعامة مكة وأنِسَتْ لحكم عثمان ستتحول بعد مقتل الزبير وطلحة واعتزال عائشة للعمل السياسي إلى عبد الله بن الزبير الذي سيتكشف طموحه للخلافة إلى أن يتفجر في ثورة حقيقية بعد معاوية. ولقد كان ثمة حزب جديد ينبعث لا من بين صفوف السياسيين وتجار الأسواق وأغنياء الحرب وطبقة الحكام المبعدين، ولكن من بين الجماهير المنبثة

---

(١) ابن الأثير: ١٣٢/٣.

(٢) ابن خلدون: ١٠٨١/٢؛ وابن خلدون وابن الأثير يأخذان معاً مجمل ما عند الطبري (٢٢٢/٥).

(٣) المقدسي: ٢١٦/٥؛ ابن خلدون: ١٠٨٦/٢.

في الضواحي وحول مواقع المياه، والتي كان يجلب أرزاقها ومواردها الضعيفة ولاة انسلخوا عن تعاليم الرسول والقرآن وتشريعات عمر. وهي مع هذا لم تستفد من عائدات الغنائم والفتوح بقدر ما استفادت منها الطبقة الأرستقراطية التي كانت تعيش على حساب الفئات المستضعفة. ومن أجل ذلك كان معظم الذين ثاروا ضد عثمان ووضعوا المدينة في شبه احتلال هم هؤلاء الذين سماهم المؤرخون المسلمون بالغوغاء والأعراب، كما كونوا أيضاً معظم أنصار عائشة. ونسبت هذه الجماهير الفقيرة إلى الغوغائية على لسان المنتقدين من سادة قريش والأنصار، مع أنها كانت تبحث عن العدل ونزاهة الحكم. ومن هذه الجماهير العريقة في البداوة وخشونة العيش تألف هذا الحزب الجديد الذي هو حزب الخوارج، والذي بدأت ملامحه تظهر بالتأكيد ليس في معركة صفين بل من أيام الثورة ضد عثمان.

أحداث مصر وحرب صفين

لمصر دور بارز في قيادة الثورة ضد عثمان. ومصر قررت مصير الامبراطورية الإسلامية في العهد الراشدي، وتحويل الحكم نهائياً إلى الحزب الأموي. ومن حيث فشل الخليفة علي في المحافظة على إدارة مصر، نجح خصمه معاوية في زحزحة هذه الإدارة وإقامة حكم أموي فيها بتدبير المؤامرات ضد السلطة العلوية المحلية ثم بالتهديد العسكري.

وقد كانت مصر حين مقتل عثمان بإدارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكان بمصر قبيل مقتل عثمان كل من محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر. وكان أولهما قد عاش تحت كفالة عثمان وتربيته، ثم طلب إليه أن يلتحق بمصر ليتولى عمليات الغزو البحري بإشراف

عامل مصر المذكور. غير أن ابن أبي حذيفة كان ينتقد باستمرار ولاية عبد الله وأدى ذلك إلى تشكي العامل من محمد بن أبي حذيفة وهو ابن أخي عثمان[1]. وحاول الخليفة أن يسكته بالمال ففضحه وندد بسياسته. حتى إذا ثار المصريون بزعامة محمد بن أبي بكر على سياسة عثمان وسارت مئات منهم إلى المدينة، وتضامنت معها وفود الأمصار، رأى عبد الله بن سعد أن يغادر مصر من تلقاء نفسه حا لما علم بمقتل عثمان[2]، خصوصاً وقد كان ابن أبي حذيفة يحرض الجماهير عليه حتى أفلح في إخراجه[3] حيث التحق بالشام، وتولى ابن أبي حذيفة نفسه ضبط الأمور بمصر. وفي الروايات ما يفيد أنه استولى على الحكم بمصر قبل مقتل عثمان وبيعة علي[4]. ولا يعرف مصير ابن أبي حذيفة بعد بيعة علي، حيث تتردد الروايات بين مقتله على يد جيش قاده عمرو بن العاص إلى العريش حيث استدرجه، ووقوعه في يد عمرو ثم الإلقاء به في سجن بالشام، وفراره من السجن، ثم إدراكه بعد ذلك وقتله[5].

على أن علياً ما لبث أن تدارك الموقف بمصر، حيث عين والياً عليها قيس بن سعد بن عبادة الذي التحق بمنصبه هذا في صفر سنة ٣٦ هـ. ووالد قيس زعيم أنصاري كبير سبق أن انتقد استئثار المهاجرين بالسلطة العليا منذ أن تقلدها أبو بكر في بيعة السقيفة. غير أن قيساً ابنه كان ذا حصافة وخبرة جيدة بالأوضاع السياسية والتيارات

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/١٣٥. وفي الصفحة ١٣٦ أنه ابن عمه.
(٢) الطبري: ٥/٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٩١.
(٤) م. س. ابن الأثير: الكامل ٣/١٣٥.
(٥) ابن الأثير: ٣/١٣٥ ـ ١٣٦؛ ابن خلدون: م. س.؛ وفي المقريزي: خطط ٢/٦٧ تفاصيل مخالفة.

المتناقضة. ولكنه كان وفياً لقضية علي. وقد زوده علي بكتاب تنصيب حفظ نصه[1]، وفيه التزام واضح من الخليفة بالعمل بما في الكتاب والسنة وإعطاء الحقوق لأهلها وحث العامل الجديد على اتباع سياسة الرفق مع الصرامة ضد المنشقين.

واستطاع قيس أن يتألف السكان بحزمه وحسن تدبيره، ولكن بقيت منهم فئة تتجمع في خربتا وقد ظلوا أوفياء لشيعة عثمان، ويقدر عددهم بعشرة آلاف[2]. ومن زعمائهم مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج، وكلاهما ممن سيتولّون عمالة مصر في خلافة معاوية، إلا أن قيساً هادنهم ولم يتسرع إلى حربهم، بل أكرمهم واستقبل وفودهم[3].

وأثناء ذلك كان علي قد استقر بالكوفة نظراً للأزمة والتوتر الذي كان يسودها. وقد رأى معاوية في استقرار علي بالعراق ووجود قيس بن سعد بمصر خطراً على وضعه بالشام[4]، فرأى أن يستميل لجانبه قيساً، وأخذ يكاتبه سراً، فيرد عليه قيس بما يطمئنه من جهته. ولكنه ألح عليه في التمرد ضد علي، فأصر قيس على احترام بيعة علي. وعندئذ تولى معاوية التنويه علانية أمام جماهير الشام بموقف قيس من أهل خربتا حيث يجري عليهم أرزاقهم ويكرم وفودهم. فكان جواسيس علي بالشام يبلغونه ما يسمعونه. وحث محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب علياً على عزل قيس، فاستقدمه

(١) الطبري: ٥/٢٢٧.
(٢) م. س. ص ٢٢٩.
(٣) المقريزي: م. س. ص ٦٨؛ الطبري: ٥/٢٢٨.
(٤) الطبري: م. س.

وعزله[1]، حتى إذا أخبره قيس بحقائق الأمور صدقه وعلم أنه كان ضحية مؤامرة. غير أن علياً كان قد عين خلفاً له وهو مالك بن الأشتر النخعي[2] الذي لقي حتفه في حادث[3] قبل أن يبلغ مأمنه. وعين علي مكانه محمد بن أبي بكر. ولقد ظل قيس وفياً لعلي بالرغم من عزله، حيث كان رجل مبدأ مثل علي نفسه. ولم تطل ولايته لمصر أكثر من أشهر قلائل.

وكانت ولاية محمد سنة ٣٧ هـ، ولم يكن في مستوى نضج قيس بن سعد وبعد نظره، بل كان مندفعاً ورجل حرب أكثر منه رجل سياسة. فقد أخذ شيعة عثمان في مصر بالشدة على الرغم من أن مرسوم تنصيبه ينص على الرفق[4] أكثر مما شمله مرسوم سابقه. وذلك ما جراهم على استمداد معاوية وبينهم ذوو بأس. وأثناء ذلك كانت تجري أحداث صفين ونتائج التحكيم التي شجعت معاوية على الزحف على مصر والاستيلاء عليها، ولم تطل ولاية محمد بن أبي بكر أكثر من خمسة أشهر[5].

وقد قرر علي بعد إحرازه نصراً محققاً على خصومه أن يضع حداً

---

(١) الطبري: ٥/٢٢٩؛ ابن الأثير: الكامل ١٣٨ ــ ١٣٩؛ ابن خلدون: ٢/١٠٩٤؛ المقريزي: خطط ٢/٦٨.

(٢) وقيل الأشتر تولى بعد محمد بن أبي بكر (ابن تغري: نجوم ١/١٠٣).

(٣) نسب التسميم إلى غلام لعثمان، حسب رواية لابن الكلبي نقلها ابن تغري (م.س. ص١٠٤). وكان موت الأشتر بعين شمس حسب هذه الرواية. وانظر أيضاً: الحافظ الذهبي: عبر ١/٤٥.

(٤) الطبري: ٥/٢٣١.

(٥) انظر عن ولاية محمد بن أبي بكر: الطبري: ٥/١٣١؛ ابن خلدون: ٢/١٠٩٥؛ ابن تغري: نجوم ١/١٠٦؛ المقريزي: خطط ١/٦٨. وقيل إن ولاية الأشتر كانت بعد محمد بن أبي بكر (انظر تعليق الكامل لابن الأثير: ٣/١٧٧؛ وابن خلدون ٢/١١٥).

لتمرد الشام وأميرها معاوية. وهكذا فبعد أن فرغ من معركة «الجمل» استقر بالكوفة، ثم استقدم عاملين من عمال عثمان السابقين أحدهما جرير بن عبد الله البجلي عامل همذان، والثاني الأشعث بن قيس عامل أذربيجان والذي يتردد كثيراً في الأحداث اللاحقة، فبايعاه وبعث بأحدهما وهو جرير إلى معاوية يخبره بما تم من دخول المهاجرين والأنصار في بيعته وما كان من انتفاض طلحة والزبير(١)، ويدعوه إلى بيعته. وحاول جرير أن يؤدي مهمته لكن معاوية ماطله ولم يزوده بجواب(٢)، فأثار ذلك شكوك الأشتر وكان لعلي ثقة فيه، فأغرى به علياً، وذلك ما جعل جريراً ينضم إلى معاوية(٣)، وقيل إن معاوية بعث يشترط لبيعة علي أن يقره على الشام ويضم إليه مصر فرفض(٤). وعلى كل، فإن علياً يئس من كل تسوية سلمية مع معاوية، كما أن معاوية ظل يتشبث بشرطه الأول وهو الاقتصاص من قتلة عثمان أو تسليمهم إليه. وعندئذ تجهز علي لحربه. وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يتجهز للمواجهة. وكان عمرو قد التحق بمعاوية سنة ٣٦ هـ بعد أن قضى فترة بفلسطين منذ أن بلغت الفتنة ذروتها ضد عثمان، وقد أعرض عنه معاوية في البداية ثم صالحه وأصبح يستشيره، ووعده بتوليته مصر(٥)!

واستطاع علي أن يجمع جيشاً يقدر بحوالي تسعين ألفاً، كما

---

(١) الطبري: ٥/٢٣٥؛ ابن الأثير: ٣/١٤١.

(٢) تضيف الروايات أن معاوية دعا جريراً إلى مشاهدة الناس في المسجد الجامع وهم ما زالوا يبكون على قميص عثمان وأصابع زوجته.

(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٩٧.

(٤) المقدسي: البدء ٥/٢١٧؛ طبري: م.س. ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦.

(٥) الطبري: ٥/٢٣٥؛ العقد ٥/٨٧.

حشد معاوية جيشاً يقاربه عدداً[١]. ثم بعث علي بطلائعه لاختراق الحدود السورية شمالاً باتجاه الرقة حيث يوجد مكان باسم صفين على نهر الفرات. وقد كانت خطة علي أن يحشد أكثر ما يمكن من الجيوش التي توجد على محور الكوفة حتى أقصى الحدود الشمالية الغربية عند ملتقى تخوم الشام[٢]. كما أن التمركز بقرب الرقة سيسمح بمجابهة الخصوم خارج المنطقة العراقية الخاضعة لحكم علي، ومعنى هذا أن يطبق جيش علي خطة هجومية. وفي حالة انتصاره سيزحف نحو المراكز الحضرية الكبرى التي تتجمع في خط واحد تقريباً، وذلك ابتداء من حلب. ومن غير شك كانت الخطة في غاية الذكاء والبراعة، ولكن الأحداث ستتحول بشكل مخالف بسبب قضية التحكيم. وقد احتفظ كل من علي ومعاوية بالقيادة العامة لجيشه. على أن طلائع معاوية سبقت طلائع علي إلى الممر المائي بالفرات، لمنع جيشه من استعماله. حتى إذا وصلت طلائع علي بقيادة الأشتر النخعي[٣] إلى حصن منبج، هدد أهله بالحرب إذا لم يقوموا بنصب جسر لمرور جيش علي وأثقاله، فاستجابوا له. وفي شرعة الفرات اشتبكت طلائع الأشتر مع قوات معاوية فقاتلهم وطاردهم وأصبح يتحكم في الموقع، وبعد ذلك جرت مراسلات بين علي ومعاوية بشأن استخدام الماء[٤]، واستغل علي الموقف لدعوة معاوية إلى البيعة[٥] ولكن معاوية اختار الحرب. فمر جل شهر ذي الحجة ٣٦ هـ في قتال متقطع حيث اتسم بالمبارزة

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٥/ ٨٠؛ المقدسي: ٥/ ٢١٧. وهناك أرقام أكبر (ياقوت: معجم، لفظ «صفين»).

(٢) ابن الأثير: ٣/ ١٤٣؛ ابن خلدون: ٢/ ١٠٩٢.

(٣) الطبري: ٥/ ٢٣٧.

(٤) م. س. ص ٢٤٠.

(٥) ابن خلدون: ٢/ ١٠٩٩.

الفردية أو بين جماعات صغيرة بالتوالي يبعثها كل من الفريقين محافظة على سفك دماء أكثر[1]. ولما دخل المحرم توادع الفريقان على ترك الحرب أملاً في عقد الصلح. وترددت الرسل لهذه الغاية ومعاوية لا يتزحزح عن موقفه. حتى إذا انصرم الشهر المذكور وفي سنة ٣٧ هـ تعبأ الفريقان لجولة حاسمة، ووجه علي تعليماته إلى الجيش بعدم الاجهاز على الجرحى وعدم تعقب الفارين وسلب القتلى، وبضمان أمْنِ مَنْ ألقى سلاحه[2]. وكان يلح في تنفيذ هذه التعليمات. وقبل تجدد القتال وجه علي إنذاراً إلى أهل الشام يحذرهم من عواقب الحرب، وأعاد كل من الفريقين تنظيم الكتائب بشكل يضمن تحديد عناصرها ومسؤولياتها. بل إن علياً عبأ كتائبه بحيث تتولى كل منها محاربة عشيرتها في جيش[3] معاوية. واحتل علي قلب جيشه[4]، بينما ضربت على معاوية قبة كانت على الأرجح في المؤخرة. واستمر القتال عدة أيام تخللتها فترات مبارزات فردية شهدها أشخاص بارزون كمحمد بن الحنفية وعبيد الله بن عمر وغيرهما. وقرر عدد كبير من جند الشام أن يموتوا دفاعاً عن قضية معاوية، وكان صمودهم عاملاً على زحزحة ميمنة علي وتكسير صفوفها وأدى ذلك على الفور إلى زحزحة القلب وكسره[5]، وبالتالي إلى تعريض علي نفسه للخطر. وتقدم علي نحو الميسرة التي انكشفت بدورها تحت هجمات أهل الشام. وبأمر من علي، تمكن الأشتر من تشجيع بعض المنهزمين على

---

(١) الطبري: ٥/٢٤٣؛ ابن الأثير: ١٤٦؛ ابن خلدون: ٢/١١٠٠.
(٢) العقد ٥/٨٠.
(٣) الطبري: ٦/٨.
(٤) ن.م. ص ٩.
(٥) ن.م. ص ١٠.

الصمود، ولا سيما مجموعة من شباب همذان التي قتل منها عدد كبير، ثم عمل على تجميع صفوف بعض القبائل وكلف كلاً منها بالتصدي لمجموعة معينة من جيش الشام. وأدى ذلك الى تجمع ميمنة علي من جديد. وكان في جيشه عدد كبير من القراء[1]، وهم دائماً يكونون كتلة متميزة. غير أن مقتل عمار بن ياسر فيما هو يحاول تحميس حامل الراية هاشم بن عتبة للزحف، أصاب من نفوس أنصار علي ومن علي نفسه، إذ كان صحابياً جليلاً ومخلصاً لمبادىء علي وحزبه. وقيل إن معاوية هو الذي بعث بمجموعة من جيشه لقتله بمجرد أن واتت الفرصة[2]. ونسب إلى الرسول (ص) أنه كان يخاطب عماراً بقوله: «تقتلك الفئة الباغية». وقد أهاج مقتل عمار غضب علي وأنصاره فحملوا بشدة على صفوف جيش الشام وتحول الموقف لصالح الجيش العراقي وبدا أن مصير معاوية معرض للخطر[3]. وحينئذ، أشار عمرو بن العاص على معاوية بأن يقوم جيشه برفع المصاحف على الرماح حتى يوضع حد للقتال ويوهم معاوية أنصار علي أنه يرغب في تحكيم كتاب الله، وبذلك يتمكن من إحداث الفرقة في صفوف علي وتتحول النتيجة في كل حال لصالحه، وقد أدرك علـيّ على الفور خديعة الدعوة إلى التحكيم، وقد رأى العراقيين مالوا إليه في الغالب، فدعاهم إلى متابعة القتال وأكد لهم أنه أعرف بمذهب معاوية وأنصاره[4]. ولكنهم أصروا على قبول التحكيم وخالفهم الأشتر وبفضله استطاع العراقيون أن يستعيدوا صمودهم لجانب علي ويحققوا

(١) ن.م. ص ١٢.
(٢) العقد ٥/٨٣.
(٣) الطبري: ٦/٢٦.
(٤) ن.م. ص ٢٧.

انتصاراً عسكرياً حاسماً. غير أن جماعة القراء وهم معروفون بتقواهم وتدينهم رفضوا الاستمرار في القتال ودعـوا إلى التحكيم[1]. ورشح معـاوية عمـرو بن العاص حكـماً عنـه ورشـح القـراء المـذكـورون والأشعث بن قيس أبا موسى الأشعري[2] حكماً عن علي، لكن علياً رفضه لخذلانه إياه، ورشح ابن عباس والأشتر فلم يقبلوا أياً منهما، وتنازل علي مرة أخرى لقبول أبي موسى، ثم اجتمع الحكمان وكتبا بمحضر شهود من الفـريقين عهـداً[3] باتبـاع ما في الكتـاب، وعند الاقتضاء بما في السنة من تعاليم بشأن إنهاء الخلاف بـين المؤمنين وبإيقاف الحرب ووضع السلاح والتزام كل من الفريقين بالعمل بما يتفق عليه الحكمان. وسجل الشهود أسماءهم وامتنع الأشتر من إلحاق اسمه بهم. وكان من بنود العهد تأخير القضاء إلى رمضان مع حق الحكمين في تأجيله بعد ذلك، كما تم الاتفاق على اجتماع الحكمين في مكان وسط بين الكوفة والشام.

وكان تحرير العهد في ١٣ صفر ٣٧، وتم الاتفاق على اجتماع الحكمين في دومة الجندل على أن يحضر علي ومعاوية ومع كل منهما أربعمائة من أنصاره[4]. وقبل علي الاتفاق وهو كاره له في الواقع؛ لأنه كان قد أصبح في موقع قوة، ولأن التحكيم عملية تخدير وتمويه من معاوية، وهو يعلم أن أبا موسى دون عمرو بن العاص دهاء، وقوة حجة. أما الذي حدا به إلى التنازل فهو الرغبة في حقن الدماء

---

(١) ن.م. ص ٢٨.
(٢) ن م. وص. ورشح الأحنف بن قيس حكماً عن علي فلم يقبله اليمنيون (المقدسي: ٥/٢٢٠).
(٣) انظر نصه كاملاً في الطبري: ٦/٢٩ ــ ٣٠.
(٤) م.س. ص ٣١. وانظر بشأن التحكيم أيضاً: العقد الفريد ٥/٨٨.

وإرضاء الفريق الذي أصر على قبول التحكيم من أنصاره حتى هددوه بالقتال إن امتنع!

والحق أن مواجهة الحزبين في صفين لم تكن مجرد معركة تتم في يوم أو بضعة أيام فقد استغرقت أسابيع عديدة أقلها أربعون يوماً. ومن ثم كانت حرباً حقيقية قتلت فيها آلاف عديدة قدرت بستين ألفاً إلى سبعين ألفاً من الفريقين أكثرهم من أهل الشام[1]. وممن ذهبوا ضحية هذه الحرب الغشوم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حامل راية علي، وعبد الله بن بديل (بضم الباء) الخزاعي وعمار بن ياسر، وهم من شيعة علي، وقتل ذو الكلاع الحميري من أمراء اليمن وقائد ميمنة معاوية، وحابس بن سعد الطائي قاضي حمص، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وهم من الحزب الأموي[2].

ولما انتهى الفريقان إلى التحكيم وتوقيته، ارتحل علي إلى الكوفة وقد وقع الخلاف بين أنصاره، وقرر عدد كبير منهم أن يعتزلوا علياً ويلتحقوا بحروراء من سواد العراق، وبينهم غالبية من القراء، وكان من رأيهم أن يتم تحكيم المصحف وليس الأشخاص، وكان جواب علي أنه لا يمكن أن يقع تحكيم الكتاب إلا بواسطة الأشخاص. واحتج عليهم بأنهم دعوا إلى التحكيم مبدءاً ورفضه مبدءاً، فلما قبله لزم هو بعهده وتخلّوا هم[3]. واستدعى علي زعماءهم وجادلهم في مضمون التحكيم وفيما تنص عليه آيات القرآن الكريم فأظهروا الاقتناع واستقروا بالكوفة[4] في انتظار ما سيقررونه وما سينتهي إليه الحكمان.

---

(١) المقدسي: البدء ٥/٢١٧؛ الحافظ الذهبي: العبر ١/٢٨ و٤٢.

(٢) الذهبي: م. س. ص ٢٨ ــ ٤١. وقد أورد أسماء قتلى كثيرين.

(٣) الطبري: ٦/٣٦ ــ ٣٧.

(٤) ن. م. ص ٣٧. وانظر أيضاً: المقدسي: البدء ٥/٢٢٢ ــ ٢٢٤.

ولما وصل موعد اجتماع الحكمين، وقيل كان بعد ثمانية أشهر من صفين[1] حضر مع كل من الفريقين في دومة الجندل[2] مجموعة من الصحابة والتابعين وغيرهم ضمن العدد المحدد، ولم يحضر معاوية وعلي. وكان ابن عباس ممن انتدب لمساعدة أبي موسى وقد حذره من الانخداع بمجاملات عمرو. ثم اجتمع الحكمان في قبة خاصة واتفقا بعد نقاش حول تفضيل علي أو معاوية. وبعد أن حاول عمرو إقناع أبي موسى بتزكية أبي معاوية للخلافة أو عبد الله بن عمر أو عبد الله بن الزبير، اتفقا على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى للجماعة. وكان هذا اقتراح أبي موسى الذي قبله عمرو ظاهرياً. ثم اتفقا على أن يعلنا ذلك أمام الفريقين الحاضرين. وألحّ عمرو على أبي موسى في أن يتقدم بالكلام فأعلن خلع علي من جهته، ثم تقدم عمرو فأعلن خلع علي وتزكية معاوية للخلافة، فأسقط في يد أبي موسى. وعلم أنه انخدع، وتم إعلان معاوية خليفة بالشام[3]. أما أبو موسى فقد التحق بمكة. ورجع ابن عباس وهو يلعن معاوية وكبار مستشاريه في صلاته، وفعل مثل ذلك معاوية في لعن علي بعد أن بلغه ما فعله ابن عباس أو علي نفسه[4]. وقد نال معاوية بترشيحه للخلافة ما كان يتمناه وما أخفاه طويلاً، فقرر أن يتولى مبادرة الهجوم على

---

(١) المقدسي: م.س. ص٢٢٧. وقيل كان في شعبان، ٣٨هـ (الطبري: ٦/ ٤٠ ـ عن الواقدي).

(٢) في الطريق بين المدينة ودمشق، وهي حصن وقرى، وموقع إنتاج زراعي (ياقوت: معجم، مادة: دومة الجندل). وانظر أسماء بعض من شهدوا عملية التحكيم في الطبري: ٣٨/٦؛ ابن خلدون: ١١١٥/٢؛ ابن الأثير: الكامل ١٦٧/٣.

(٣) المقدسي: ٥/ ٢٢٩.

(٤) لا يتضح ذلك عند الطبري: ٦/ ٤٠.

المراكز التابعة لإشراف علي، بعد أن ظل يلازم موقفاً دفاعياً لمدة ثلاث سنوات.

ثورة الخوارج وامتداد نفوذ معاوية

لم يكد الناس يعرفون نتائج التحكيم حتى بدأ زمام الأمور يفلت تدريجياً من عليّ لصالح معاوية. بل إن هؤلاء الذين رفضوا التحكيم وأطلق عليهم اسم الخوارج فيما بعد، حاولوا قبل اجتماع الحكمين أن يثيروا الشغب على علي، ويمنعوه من أخذ الكلمة في جامع الكوفة[1]. ثم قرروا تنظيم صفوفهم من جديد، وكان أغلبهم من الحرورية الذين نزلوا حروراء قرب الكوفة، وهم في اثني عشر ألفاً، على جانب من التقوى والعبادة[2]، ورشحوا لقيادتهم عبد الله بن وهب الراسبي، فبايعوه بالامارة في عاشر شوال[3] ٣٧ هـ، وانضم إلى هؤلاء خوارج البصرة في خمسمائة بقيادة مسعر بن فَدَكى التميمي[4]. وكان الخوارج قد أعلنوا بعض مبادئهم، ومنها التنويه بأبي بكر وعمر والطعن في عثمان وتكفير علي بحجة أنه حَكَّمَ الرجال وأنه لا حَكَمَ إلا لله كما قالوا، وكان هذا أول شعار لهم. وقالوا لعلي: إن اعترفت بكفرك وتبت فنحن نبايعك على الموت. وكان علي في هذه الأثناء يتهيأ لغزو الشام فحاول أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فدعا الخوارج إلى القتال معه بالشام، فاستتابوه مرة أخرى[5]. على أن علياً تمكن من حشد زهاء

---

(١) الطبري: ٦/٤١.
(٢) الشهرساني: الملل والنحل ١/١١٥.
(٣) الطبري: ٦/٤٢.
(٤) ن.م. ص٤٣.
(٥) ابن خلدون: ٢/١١٢٠؛ ابن الأثير: ٣/١٧١.

ثمانية وستين ألف مقاتل جلهم من الكوفة وقليل من أهل البصرة(١). وكانت رغبة الجماعة قتال الخوارج الذين تجمعوا قرب المدائن ثم التوجه بعد ذلك الى الشام. وأثناء ذلك وقعت أحداث غيرت المصير السياسي لعلي بصورة حاسمة، ففد عمد الخوارج الى اعتراض الصحابي عبد الله بن خباب في الطريق، ثم سألوا عن رأيه في الراشدين فقال عنهم خيراً جميعاً فذبحوه وبقروا بطن امرأته وكانت حاملاً، وقتلوا ثلاث نساء أخريات من طيىء. ولما علم علي بالخبر، وجه رسوله إليهم لتقصي الخبر فقتلوه، وعندئذ بعث الجيش لقتالهم كارهاً، وقد حاول عن طريق قيس بن سعد بن عبادة أن يكتفي بمعاقبة الجناة وحدهم، ولكن الخوارج صاحوا كلهم بتحمل مسؤولية القتل. وكان اجتماعهم بمكان يدعى النهروان فتخطفتهم رماح وسيوف جيش علي في وقت قليل، ولم ينج منهم إلا أفراد(٢) معدودون، وذلك بعد مقاومة باسلة(٣)، ثم هم علي بمواصلة السير إلى الشام بعد أن أثنى على جهود جيشه في النهروان. وكانت هذه الموقعة على الأرجح سنة ٣٨، وهناك من يجعلها سنة ٣٧ أو ٣٩(٤).

على أن خطأ علي العسكري والنفساني، هو أنه كان قد عسكر بظاهر الكوفة(٥) وإن كان تولى حرب النهروان بنفسه. فلما انتهت الموقعة رجع الجيش وقد وجد الاستعداد من جديد للتوجه إلى الشام

---

(١) الطبري: ٦/ ٤٥.

(٢) م.س. ص ٤٧.

(٣) ن.م. ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) م.س. ص ٥١؛ ابن طباطبا: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٩٥؛ الذهبي: العبر ١/ ٤٤.

(٥) ابن طباطبا: م.س.

شاقاً، والكوفة بها عياله وأولاده. فلو أن معظم الجيش عسكر في طريق وسط بين الشام والموقعة، وبعيداً عن الكوفة في كل حال لما سهل عليه التراجع. فقد انسحب الجيش بالليل تدريجياً حتى بقي علي في قلة لا تغني شيئاً، واضطر إلى الدخول إلى الكوفة كارهاً.

على أن الخوارج لم ينته أمرهم بهذه الموقعة على خطورة ما تكبدوا فيها من خسارة، وقد بدا لأول وهله أن حركة الخوارج لم تكن مجرد ثورة عقائدية فحسب، إنها ستصبح حركة تنادي بديموقراطية الحكم فيما بعد، ولكن شكلها يتخذ أيضاً طابعاً إثنولوجياً لا مجال لإنكاره. فقد التف حولها عناصر كثيرة من بني تميم وبني حنيفة على الرغم من عدائها في العصر الجاهلي. ولتميم مواقف متناقضة فهي تارة مع علي، وتارة تقاتل ضد شيعته وطوراً تقاتل الجيوش الأموية[1]. وبنو حنيفة عدنانية ظهر فيهم مسيلمة وسجاح المتنبِّئان، وكانت البلحاء إحدى السيدات الأوليات من الخوارج من رهط سجاح[2]. وبعض زعماء الخوارج الرئيسيون من حنيفة ومنهم نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق، ولكل منهما مذهبه بين الخوارج[3]. ونلاحظ أن تميماً وحنيفة ينتميان إلى منطقة تتأثر إلى حد كبير بالتيارات القريبة منها جغرافياً. ومن ثم فهناك وعي سياسي وفكري فائق. والحساسيات العصبية بدأت تستيقظ منذ فتنة عهد عثمان، وإن كانت الروح الدينية قد نجحت إلى أجل في الحد منها.

ولقد سبقت الإشارة في موضوع أحداث مصر وحرب صفين إلى

---

(١) كحالة: معجم قبائل العرب: مادة (تميم).
(٢) المبرد: الكامل ٣/١٤٦.
(٣) مبرد: ن.م. ص ١٠٥.

زحف جيوش معاوية إلى مصر وبها محمد بن أبي بكر عامل علي، وكان حدثاً قليل التجربة. حتى إذا تكشفت قضية التحكيم عن ثبوت مبرر شبه شرعي لتمرد معاوية، وظهر الوهن في أنصار علي الذين خذلوه بعد النهروان، عمد معاوية إلى إرسال جيش بقيادة عمرو بن العاص للاستيلاء على مصر عبر فلسطين وسيناء، وكاتب العثمانية للتعاون مع الغزاة. كما أن عمراً كاتب محمد بن أبي بكر ينذره بوخيم العواقب وينصحه بالتخلي عن إدارة مصر. وإذا كان علي قد وعده بالنجدة، فإن جيش ابن العاص كان أسرع للمبادرة حيث تم اللقاء بضواحي الفسطاط فيما يبدو، وكانت الهزيمة على محمد بن أبي بكر الذي التجأ إلى خربة بالضواحي، فعثر عليه معاوية بن حديج، ومنعه الماء وكان عطشان ثم ذكره بما لقيه عثمان منه واتهمه بحرمانه الماء مع الثوار، وقتله ثم وضعه في جيفة حمار وأحرقه. وكانت هذه الأحداث في صفر[1] سنة ٣٨ هـ ووردت أخبار مقتل ابن أبي بكر على علي قبل أن يتمكن من تجهيز جيش لنجدته. ذلك أن أهل العراق تلكأوا في الاستجابة للتجنيد حتى فات وقت إنجاد محمد بن أبي بكر[2]. وتفجع علي لموته، وكان تفجع عائشة أكثر لأنه أخوها، فكفلت صغاره وقيل إنها كانت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص[3].

وهكذا أصبح عمرو بن العاص عاملاً على مصر من جديد بعد أن تولاها أيام عمر وعثمان؛ وأعلن علي بن أبي طالب نفسه افتتاح مصر على يد معاوية[4]. وتناهت مغامرة معاوية إلى محاولة الاستيلاء

---

(١) الطبري: ٦/ ٦٠.

(٢) ن.م. ص ٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣/ ١٨٠.

(٤) الطبري: ٦/٦٣.

على البصرة بعد أن أخضع مصر. ذلك أن معظم أهل البصرة كانوا ممن يطالبون بدم عثمان حسبما أكده معاوية نفسه[1]. وكان ابن عباس عاملها من قبل علي قد توجه إلى الكوفة مخلفاً زياد بن أبيه. ولكن بعض السكان هرعوا لبيعة الوالي الأموي عبد الله بن الحضرمي الذي ما لبث أن اغتيل في ظروف غامضة. وعاد عبد الله بن عباس إلى مقر عمله.

وبعث علي بن أبي طالب زياد بن سمية بإشارة عبد الله بن عباس إلى فارس لضبطها فاتخذ من اصطخر مقراً له. وكان الفرس والعرب هناك قد بدأوا يرفضون أداء الخراج، بعد أن تأزمت الأحوال بين شيعة علي والحزب الأموي. وتمكن زياد من إعادة الأمور إلى نصابها، إلا أن الخوارج تكاثر عددهم في جهات العراق وتجرّأوا على الثورة وهم في عشرات هنا وهناك. وما أفادت كل محاولات إقناعهم بالمناظرات والحجج التي أدلى بها علي[2].

وفي سنة ٣٩ هـ نشطت حركة الهجوم الأموي على المراكز العراقية، ثم زحفت قوات معاوية إلى مكة وعادت تجنباً لسفك الدماء في منطقة حرام أول ذي الحجة. وقامت بغارات على الجزيرة ودومة الجندل. وفي سنة ٤٠ أرغم معاوية أهل المدينة ومكة على البيعة له[3]، ثم أغارت جيوشه على اليمن، غير أن مفاوضات لوضع الحرب وتقسيم الحكم بين معاوية وعلي جرت لفترة طويلة، وأدت إلى أن يحتفظ معاوية بحكم الشام وعلي بحكم العراق وألا يغزو أحدهما

---

(١) ابن الأثير: ٣/١٨١.
(٢) الطبري: ٦/٦٥ ـ ٧٧.
(٣) ابن الأثير: ٣/١٩٢.

الآخر[1]. وكل هذا في غيبة استشارة جماعية تحسم المشكل في نطاق وحدة شاملة كما كان الشأن في عهد الخلفاء السابقين.

على أن الأمور لم تصف لعلي حتى مع هذا التقسيم الذي كان سيؤدي إلى إضعاف الوحدة الإسلامية رسمياً ويقوص دعائمها السياسية والاقتصادية؛ ذلك أن مراسلات من أبي الأسود الدؤلي وصلت إلى علي بشأن استغلال ابن عباس لموارد بيت المال. وجرت مراسلات بين علي وابن عباس انتهت إلى تخلي ابن عباس عن ولاية البصرة والالتحاق بمكة غاضباً[2]. والحق أن علياً فقد في شخص ابن عباس أحد دهاة العرب في الفكر والعمل السياسي. وكان خير مستشار لعلي. وهو يتجاوز في مقومات شخصيته، مميزات عمرو بن العاص. وتضامن مع ابن عباس بنو هلال وسائر قيس وفيهم أخواله، وزعيمهم الأحنف بن قيس.

نهاية علي

تركت معركة النهروان جرحاً عميقاً في نفوس الخوارج حيث لقي آلاف منهم مصرعهم بهذه الوقعة التي حدثت سنة ٣٨ هـ، وفقدوا إلى حين تلك القوة الجماعية التي عملت على تحطيم آمال علي في تحقيق الوحدة الخلافية بإشرافه. وعلى الرغم من أن الخوارج ساهموا بحظ كبير في إثارة الاضطرابات حتى بعد هذه الموقعة فإنهم لم يقرروا التصفية الجسدية لعلي خصمهم الأكبر، بصورة مباشرة، إلا سنة ٤٠ هـ. ولم يكن القرار فيما يبدو عملاً جماعياً، بل كان من عمل ثلاثة

---

(١) الطبري: ٦/٨١.
(٢) ن.م. ٨١ـ ٨٢.

أفراد هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبرك (بضم ففتح) بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي. ولابد أن نلاحظ هنا مدى التأثير التميمي في هذا القرار مثلما هو الشأن في الطابع القبلي الإثنولوجي لحركة الخوارج الأصيلة. وكان ابن ملجم من سكان مصر. واتفق مع رفيقيه على أن يتولى هو قتل علي، ويتولى البرك قتل معاوية، ويختص ابن بكر بقتل عمرو بن العاص. بل إن ابن ملجم كان قد خطب فتاة تدعى قطام على جانب كبير من الجمال كان والدها وأخوها من صرعى النهروان، فاشترطت على ابن ملجم أن يكون اغتيال علي ضمن مهرها، وقد أسر إليها بأن له نفس الرغبة. وكان الشهر رمضان من سنة ٤٠. واختار ابن ملجم صلاة الفجر للقيام بمهمته، ومعه شخصان يساندانه، ثم انتظر خروج علي الذي اعتاد أن ينبه الناس للصلاة في هذا الوقت، فهاجمه بسيفه المسموم، حيث وقعت طعنة في مقدم رأسه توفي على إثرها بعد ثلاثة أيام، وأوصى بتنفيذ حكم الإعدام في قاتله إذا هو مات من طعنته، كما أوصى بنيه وصايا دينية واجتماعية، وتولى هؤلاء تجهيزه ودفنه. وظل قبره مجهولاً لمدة طويلة. وتم إعدام ابن ملجم على يد الحسن بن علي، أما الخارجيان الآخران فلم يوفقا إلى أداء مهمتهما كما هو معروف من أحداث اغتيال علي[1].

وهكذا يكون اغتيال عمر وعثمان وعلي في ظروف متشابهة، فقد اغتيل الأول والأخير بالمسجد، واغتيل عثمان وهو يقرأ في المصحف. وإذا ثبت أن الرسول عليه السلام وأبا بكر الصديق قد توفيا من جراء

---

(١) انظر بشأن اغتيال علي: الطبري: ٨٣/٦؛ ابن الأثير: الكامل ١٩٤/٣؛ المقدسي: البدء ٢٣٠/٥؛ ابن طباطبا: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٠٠؛ ابن خلدون: ١١٣١/٢.

سم ذي مفعول بطيء، فإن الإسلام يقدم بذلك مثلاً فريداً في استشهاد منشئه وخلفائه الأربعة على التوالي، فداء لمبدأ الوحدة الإسلامية الذي اتفقوا جميعاً على التشبث به، مع اختلاف في الطرق والوسائل. وهذا شيء لم نعْهده في أي دين أو عقيدة أو مذهب.

قيمة العمل الراشدي

أبان العصر الراشدي عن الإمكانيات العظيمة التي يتوفر عليها الإسلام كقوة روحية دافعة، بمجرد أن توفي الرسول عليه السلام. فقد تحول الإسلام بسرعة إلى قوة ضعيفة العدد والعدة؛ وبالقوة المتواضعة نفسها استعاد مكانته بسرعة في شبه الجزيرة. ثم تحول للانقضاض على الهيمنة البيزنطية والفارسية في رقعة جغرافية تتجاوز المحيط العربي أضعافاً. ولابد أن نتصور الامتيازات الضخمة التي كانت بأيدي الحكام والدهاقين والمرازبة ورجال الكنيسة وعدد من العملاء العرب المتعاملين مع هؤلاء وأولئك، كما لابد أن نتصور مقدار القوة العسكرية التي ترابض براً وبحراً في الامبراطوريتين، ثم كثرة السكان من غير العرب، والذين لن يتقبلوا عن رضىً حكم الرعاة والتجار البسطاء من العرب، وهم من هم في عالم الحضارة وفي التأثر بالمؤثرات الساسانية والبيزنطية العريقة.

إن السر في نجاح سياسة الفتوح الراشدية، إذاً كان يكمن قبل كل شيء في العامل الروحي، فإن هناك أيضاً، حماية الإسلام لحرية المعتقدات في نطاق الديانات السماوية والتي تعامل كذلك، واعتناق قسم مهم من سكان البلاد المفتوحة للإسلام حيث لا يوجد فرق بين الأجناس والشعوب والألوان والحيثيات، ثم المحافظة على الكثير من أساليب الادارة القديمة والتقاليد المحلية وعدم اللجوء إلى ثورة تقلب

الأوضاع في اتجاه معكوس في هذا المجال كما يحدث في فتوحات سياسية أو دينية أخرى. وبالطبع، فإن تطبيق التعاليم الإسلامية في الأحكام القضائية والعدالة الاجتماعية أعطى لهذا العصر طابع الاستمرار والوضوح: طابع الاستمرار بالنسبة للعصر النبوي، وطابع الوضوح لأن هناك تطورات اجتماعية وأحداثاً جديدة ألزمت الخلفاء والفقهاء والمحدثين أن يقولوا فيها كلمتهم دون الخروج عن نطاق القرآن والسنة، ومن ثم فإن ما ظل مبهمًا قبل العصر الراشدي أو ما لم ينص عليه الكتاب ولا السنة قد اتخذ طريقه إلى التشريع من تدخلات هؤلاء وغيرهم ممن يمتون إلى التشريع بصلة.

ونجح العمل الراشدي لفترة مهمة في الداخل (شبه الجزيرة) وخارجها بفضل المثالية التي أبداها الخلفاء بقطع النظر عن سياسة عثمان التي لم يرض عنها جل العرب، والتي لم تصبح كذلك إلا في النصف الثاني من خلافته.

ولقد فتحت هذه السياسة بالذات مجالاً واسعاً لنشأة الأحزاب والخلافات العقائدية التي ما لبثت أن اندس إلى معمعتها تدريجياً عناصر من الشعوب التي دخلت تحت لواء الحكم الإسلامي وليست عربية. وهكذا نشأ صراع طبقي اتخذ صوراً مختلفة:

١ ـ الأمويون كأوليغارشية تفضل دكتاتورية حكم الأسرة الأموية.

٢ ـ الزبيريون كدعاة لحكم التجمع القرشي المكي.

٣ ـ السّبئية الذين فتحوا المجال للتطرف الشيعي بقدر ما أدت الهيمنة الأموية إلى نشأة الحزب الشيعي المعتدل.

٤ ـ الخوارج الذين ساندوا ديموقراطية الحكم ولكنهم مثلوا

حركة مناهضة للحكم البورجوازي والاقطاعي ومالوا إلى الشدة المتطرفة في تطبيق الشريعة كما يرونها، وفي ردع من لا يعتنق أفكارهم. إنهم رد فعل معاكس للعمل الذي قام به عثمان وولاته، ومعاوية وأنصاره. كما رفضوا بكل شدة تنازل علي للتحكيم.

وفي العصر الراشدي أصبح احتكاك الشعب العربي بالشعوب المغلوبة احتكاكاً اجتماعياً وفكرياً واقتصادياً. حقاً إن المغلوبين ما زالوا ينظرون إلى الفاتحين كحكام ومسيطرين، وعندما يتبنى الأولون ثقافة الآخرين في الأجيال اللاحقة سيصبح للعلاقات الاجتماعية أبعاد جديدة وسيصير الحكام العرب أسرى للتفوق الفكري والحضاري المطعم باللغة العربية وبالطابع الاسلامي والأجنبي الذي سيطبعه به مفكرو الشعوب المغلوبة.

وطبع العصر الراشدي الميدان المعماري بالطابع العربي والإسلامي بشكل لم يسمح به وقت الرسول من قبل، ولا النطاق الجغرافي الذي كان يتحرك فيه. وهكذا أنشئت المدن الأولى لتحل محل العواصم السابقة في بعض البلاد المفتوحة ولتصبح نموذجاً على بساطته، للعمل المعماري اللاحق، والذي سيتطور إلى ما هو أفضل وأرقى، ولكن الخطوط الرئيسية تكاد لا تتغير.

لقد ظل الولاة في أغلبيتهم الساحقة من العرب، لا سيما خارج شبه الجزيرة. غير أن هذه المرحلة كانت ضرورية لإقرار السلطة ومراقبة تطبيق التعاليم الإسلامية. وما زال الداخلون في الإسلام قليلي العدد بين الشعوب المغلوبة، وهم سيصبحون أكبر عدداً في الأجيال اللاحقة خلال العصر الأموي وما بعده. وخلال العصر الراشدي والعصر الأموي كله ظلت ولاية الأقاليم إلا في النادر من حظ العرب ومثل ذلك المسؤوليات العسكرية والقضائية، لأن الروح

القومية إن لم يكن لها كبير أثر من حيث المبدأ أيام الراشدين، فإن هؤلاء لا يمكنهم أن يضعوا الثقة إلا في قادة مخلصين متشبعين بالروح الإسلامية لا متعاطفين مع الأنظمة السابقة أو متعصبين لقومياتهم الخاصة، كما ان المثقفين في العلوم الإسلامية من غير العرب، إنما سيتكاثرون بعد طبقة التابعين وإن لم يخل منهم العصر الراشدي. وعلى كل، فكثيرون من غير العرب كانت لهم مسؤوليات كبيرة كعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وآخرين يوجد لهم ذكر في هذه الدراسة.

والواقع أن العصر الراشدي لم يكن مجرد عصر فتوحات وأعمال سياسية، فلقد أسهم بوفير حظ في بناء التشريع والفقه الإسلامي وفي تنشيط حركة الدراسات القرآنية لا سيما التفسير. وأغنى الفكر الأدبي بإنتاج خصب يعبر أدق تعبير عن واقع النظام الاجتماعي القبلي للعرب، وعن سلبيات الحكم الراشدي وإيجابياته. وبصورة عامة عن كل التطورات السياسية التي شهدها العصر. ولقد ترك العصر الراشدي مع هذا أجمل هدية قدمها للإسلام، وهي جمع المصحف القرآني ونشره مكتوباً في أقطار العالم الإسلامي، فكان المصحف، وليس الفتوح العسكرية، هو الذي غزا قلوب الملايين من الناس ودفعها إلى أن تستظل بحماه في كروبها وآلامها، وأن تستخرج منه عبر الأجيال وبشتى اللغات إشارات علمية ونظريات فكرية عالية، لا في البلاد التي خضعت للحكم الإسلامي فحسب، بل وفي شتى بقاع العالم التي لم يطأها فاتح مسلم قط.

ذلك كان العصر الراشدي الذي إن خلف وراءه نزاعاً مذهبياً، لم يخل من الطابع الدموي هنا وهناك، فلقد عمل بنجاح في كل حال، على أن يظل الشرق الأوسط مركز الثقل في العالم كله عبر التاريخ الإسلامي، بفضل النضال العقائدي الرائع، الذي تولاه محمد الرسول عليه السلام.

القِسْمُ الثَّانِي

أنظِمَةُ الحُكْم

الفصل الأول
النظام السياسي

طبيعة الحكم

مما لا شك فيه أن طبيعة الحكم في صدر الإسلام بصفة عامة لا تختلف في كثير من خليفة لآخر من حيث الشكل والوسائل. إن حكومة صدر الإسلام بما فيها الحكومة النبوية تمثل إلى حد كبير النظام الشوري العشائري الذي تقرر فيه الجماعة أو المؤهلون لتمثيلها أهم التدابير التي تمس حياة العشيرة. غير أن هذه الحكومة ترتفع عن النظام العشائري وتتجاوزه كلما تعلّق الأمر بخطورة التدابير المتخذة وتعقد القضايا وتنوعها وشمولها لأمة بدأت تتضخم رقعتها الجغرافية بسرعة منذ هجرة المدينة. ومن ثَمَّ، فالنظام الشوري الذي سلكه الرسول عليه السلام، نابع قبل كل شيء، من تقاليد مجتمع شبه الجزيرة، ثم هو يتخذ امتداداً تدريجياً في عصر الراشدين حيث يميل إلى المحافظة أكثر ما يمكن على الأوضاع والتقاليد الصالحة التي وجدها الفاتحون في البلاد خارج شبه الجزيرة. وعلى كل فإن أحسن صورة للنظام الشوري لصدر الإسلام، هو المجالس العديدة التي عقدها الرسول وخلفاؤه في المجالات السياسية والعسكرية. نعم، كثيراً ما يتخذ الرسول أو الخليفة قراراً حاسماً بحكم مسؤوليته وشمولية نظرته. ومن ثم، فالنظام النبوي والراشدي هو أيضاً صورة متقدّمة

زمناً ومكاناً للنظام الرئاسي الذي يأخذ في آن واحد برأي الناخبين، وبحق المبادرة المخوّلة للمسؤول الأول في دائرة القوانين.

لكن المسؤول الأول في نظام صدر الإسلام يجمع بين كل السلطات العليا في آن واحد:

١ ــ التشريع
٢ ــ القضاء
٣ ــ التنفيذ

وهذا التجميع هو قبل كل شيء ذو طابع مرحلي محض، وهو في نفس الوقت يظل في نطاق الشورى حسب الظروف والحاجة الملحّة. فمرحلة صدر الإسلام هي فترة إقامة دعائم العقيدة والتشريع والإدارة بقدر ما هي مرحلة فتوح ومواجهات حربية. ومسؤولية الخلفاء الراشدين أساسية في مواصلة عمل الرسول، وهم كصحابة رئيسيين للرسول، وكتلاميذ له في المجالات الإسلامية تحمّلوا كل السلطات في آن واحد، ولكن في دائرة الشورى التي لا تظل امتيازاً خاصاً بالصحابة بل تمتد إلى فئات الأمة حسب الظروف ونوع الاستشارة.

على أن اختصاصات الراشدين الواسعة لا تعني أن التشريع كان عملاً تحكمياً يمكن أن يتصرفوا فيه فردياً، ولا أن القضاء كان تحت رحمتهم أو أنهم ينقضون كل ما تبرمه سلطة دونهم، فقد كان لكل منهم آراء أو أحكام تختلف عن أحكام الآخرين، وكان هناك فقهاء من الصحابة لهم كلمتهم ولهم رأي يسمع، والقضاة لا ترد أحكامهم، والقرارات الجائرة أو المخالفة لروح الكتاب والسنة كانت وحدها ترد إلى الراشدين.

وقد كان الرسول (ص) مثالاً عالياً في تحمّل المسؤولية؛ فسواء

أكان في المدينة أو بمكة أو حيثما حل، يتولى بنفسه إرشاد الأفراد والجماعات إلى كيفية ممارسة الشعائر، اعتماداً على القرآن، وتتميماً بأقواله وأفعاله. وهو أيضاً يتلقّى التشريع عن طريق الوحي، فيما يهم معاش المجتمع، ومشكلات الزواج والطلاق والمعاملات. وحيث إن المجتمع العربي يسمع لأول مرة في شبه الجزيرة عن قضاء متكامل، يجمع بين المتقاضين والشهود، وتقدم فيه البيّنة ويقام الحد، ويرد كل حق إلى صاحبه بالقوة القهرية عند الاقتضاء، فإن الرسول ثم الخليفة بعده سيتولى بنفسه هذه السلطة حيث هو، أو يفوضها لمن يستحقها في الأقاليم، وذلك حتى يقدم أحسن صورة عن القاضي والمسؤول الحازم في تقصيه للحق، وتعمقه في الشريعة.

الشورى والبيعة

لم يحدد الإسلام نظاماً معيناً للحكم، بل ترك الأمر للظروف الزمانية والمكانية تلعب دورها، وإن كان الحكم في جميع الأحوال يتعين أن يخضع للشريعة الإسلامية أو لا يتنافى معها. غير أن الرسول في مرضه الذي توفي منه، لم يفرض أي مرشح ولم يشر بأية طريقة لاختيار خلفه، فقد كانت ثقته كاملة في الصحابة الذين لازموه وشاطروه عبء المسؤولية. وهكذا التزم هؤلاء طائعين أو كارهين بمبدأ الشورى الذي يتفق مع الطريقة العربية في اختيار شيوخ القبائل ممن ترضى عنهم الجماعة. وفي اختيار الخلفاء الأربعة اتبع النظام الشوري في صور مختلفة:

١ ـ اختيار أبي بكر تم بالتشاور بين الأنصار والمهاجرين.

٢ ـ ترشيح عمر كان بعد استشارة عثمان وعبد الرحمن بن عوف ثم في مجلس شعبي بالمسجد النبوي بالمدينة.

٣ ـ اختيار عثمان تم بالتشاور بين ستة من الصحابة رشحهم عمر قبيل وفاته، ثم باستفتاء شعبي لا يخلو من أهمية.

٤ ـ اختيار علي تم بترشيح من أغلبية الأنصار والمهاجرين وسكان المدينة.

لم تكن طريقة الاستشارة واحدة في جميع الترشيحات، ولكن النظام الشوري أعطى الأولوية للمدينة، وبصفة خاصة للمهاجرين، ثم الأنصار. فالمدينة كانت تضم في الواقع عناصر من جميع الاتجاهات ومن شتى الشعوب والقبائل بعد أن صارت عاصمة للخلافة الإسلامية، ولم يكن من الممكن تنظيم استفتاء على نطاق شبه الجزيرة فبالأولى على نطاق العالم الإسلامي، وذلك بالنظر لصعوبة المواصلات وما يتطلب ذلك من وقت يستغرق الشهور، وقبائل العرب في أغلبها تعيش على نظام الترحل، مما يزيد في صعوبة تنظيم استفتاء دقيق وشامل. إلّا أن دخول القبائل والسكان في البيعة بصفة تلقائية هو تتميم جيد لعملية التشاور التي تقع على النطاق المركزي. وإذا كانت العناصر المكية قد حظيت بالأولوية في الاستشارة، فلأنها هي التي تولّت قبل غيرها مساعدة الرسول على تنظيم العمل الدعائي للإسلام، ومكة ذات بأس وحرمة بين العرب جميعاً، ونظر هؤلاء إلى المهاجرين هو كالنظر إلى ورثة الرسول في الريادة وحماية العقيدة ووحدة الإسلام. ثم إن فترة وجود المهاجرين والأنصار ما هي إلّا مرحلة مؤقتة، بحيث إن كلمتهم لم تعد مسموعة ولا موحدة بعد حلول فترة الانحراف السياسي التي شهدها عهد عثمان. وهكذا فإن المهاجرين والأنصار تجاوزتهم الأحداث، ونشأت مفاهيم جديدة للحكم ومذاهب سياسية تختلف نظرتها حسب طموحاتها وتفسيراتها لتعاليم الإسلام.

ونشأت البيعة العامة والبيعة الخاصة مع نشأة النظام الشوري

من عهد أبي بكر، فأهل الشورى وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار يبايعون قبل غيرهم، ثم تتم البيعة في المسجد بيعة عامة، وبعد ذلك يخبر ولاة الأقاليم بتعيين الخليفة الجديد. ولكن عثمان كان أول من استقدم الوفود لبيعته من الراشدين.

وسلم على أبي بكر كخليفة رسول الله، وبويع عمر لأول مرة باسم أمير المؤمنين، وهو لقب استعمله لأول مرة عدي بن حاتم الطائي بمبادرة منه[1]. وحينما خطب أبو بكر في سقيفة بني ساعدة قبل بيعته، ورأى ميل الأنصار إلى رفض بيعة مهاجريٍّ، ذكرهم بأولوية قريش «لأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلّا لهم»[2]. تلك كانت نظرية أبي بكر ولها مبرراتها الاجتماعية والنفسانية لفترة معينة. ولكن الخوارج وقد نشأت حركتهم بعد ربع قرن رفضوا هذه النظرية لأن قريشاً لم تعد تمثل قوة سياسية تذكر، ولأن ديموقراطية الإسلام كما يرون وكما هو الواقع تقتضي اختيار الخليفة الكفء بعيداً عن الاعتبار السلالي، خصوصاً بعد أن صار العرب قلة وسط المجتمعات الإسلامية.

على أن الخليفة الراشدي بعد بيعته لا يمكن أن يستبد في قراراته وتدابيره، إذ هو ملزم بمشاورة من يهمهم الأمر، خصوصاً التدابير العسكرية والشؤون العامة. وعلى سبيل المثال، كان عمر لا يقرر الدخول في حرب إلّا بعد استشارة مجلس الصحابة، فحينما استنفر الفرس عشرات الألوف لقتال العرب، جمع عمر مجلساً عاماً واقترح أن يتخذ مقراً للقيادة العامة بين المدينة والكوفة ليسيّر هو بنفسه العمليات، واختلفت آراء الصحابة:

---

(١) المقدسي: البدء ٥/١٦٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٢١.

١ ــ طلحة بن عبيد الله بالموافقة.

٢ ــ عثمان بن عفان أشار بحشد جيوش اليمن والشام والمدينة ومكة وتولي الخليفة للقيادة العامة والتحرّك في الميدان على رأس الجيش.

٣ ــ علي أشار بحشد ثلث سكان البصرة وانضمامهم إلى جيش الكوفة مدداً لمواجهة الفرس لأن تحريك جيش اليمن يسهل انقضاض الحبشة عليها، وتحريك جيش الشام يطمع الروم في استعادتها، وتحريك سكان الحرمين يغري قبائل العرب بالزحف عليهما. لذلك يكون من الأفضل أن يسيّر الخليفة العمليات من العاصمة حيث هو.

وعمل عمر برأي علي. ثم استشار المجلس فيمن يوليه ثغر الكوفة على أن يكون عراقياً، فتركوا الأمر لاختياره، وفعلاً عيّن النعمان بن مقرن المزني(١).

وكانت هذه الاستشارة بشأن الحرب التي ستؤدي إلى معركة نهاوند. وقبلها استشار عمر الصحابة بشأن توجهه لحرب القادسية أو بقائه على أن يبعث كتائب متلاحقة، فأشار ببقائه كل من طلحة والزبير وعلي وعبد الرحمن بن عوف، فعمل برأيهم(٢).

وكان عمر لكثرة احتكامه إلى آراء المستشارين يوصي بالاستشارة ويقول: «الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مِرَار لا يكاد ينتقض»(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/٣ ــ ٤. وانظر أيضاً: ابن خلدون: ٢/٩٧٣، وقد نسب إلى طلحة وعثمان أيضاً ما أشار به علي.

(٢) ابن خلدون: ٢/٩١٦

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/٣١. والمرار خيط جيد الفتل.

وعندما أبدى عثمان رغبته في فتح أفريقية استشار الصحابة، فأشار أغلبهم بالموافقة، ووجه إليها جيشاً بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر(١). وبعد أن طالبت الجماهير الإسلامية عثمان بعزل عماله وتعويضهم استشار كلاً من معاوية وعبد الله بن سعد وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر وكلهم أمويون، فكلهم أشار، بما لا يصحح من الأوضاع شيئاً، وكل هواهم إبقاء العمال الأقارب(٢). ومع هذا مضى شطر من خلافة عثمان في هدوء لأنه كان يتشبث بطريقة سلفه عمر، حتى كتب إلى العمال يقول(٣):

«أما بعد فقوموا على ما فارقتم عليه عمر، ولا تبدلوا. ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة، ثم نرده عليكم، وإياكم وأن تغيروا، فإني لست قابلاً منكم إلّا ما كان عمر سيقبل».

وكان علي أقل التزاماً بآراء مستشاريه خصوصاً فيما يرجع إلى سبل التعامل مع خصومه. وقد نصحه ابن عباس أن يرفض الترشيح للخلافة فترة ويلزم مسكنه أو ينتقل إلى ينبع حتى لا يجد الجمهور غناء عنه فيقبل عليه، فلم يعمل برأيه؛ ونصحه أن يقر معاوية أو يسلك إزاءه سياسة مرنة فلم يوافقه(٤). وفي كلا الحالين وفي غيرهما كان رأي ابن عباس أصوب. وقد تأثر ابن عباس بتوجيه والده العباس بن

---

(١) الكامل ٤٥/٣.
(٢) ن.م. ص ٧٥.
(٣) الطبري: تاريخ ٥٣/٥.
(٤) ابن خلدون: ١٠٥٧/٢ ــ ١٠٥٨.

عبد المطلب الذي كان ينصحه بالإخلاص للخلفاء الذين وضعوا فيه ثقتهم[١]. وكان للعباس وأبي سفيان منزلة خاصة عند عمر[٢].

ولكي يمارس الخليفة مهامه بشكل منظم فإنه يستعين بآذن أو حاجب، والغالب أن يكون من الموالي، فشريف كان حاجب أبي بكر ويرفأ حاجب عمر، وحمران حاجب عثمان، وقنبر حاجب علي، كما حجب لهؤلاء غير المذكورين[٣].

ويستقبل الخليفة الوافدين جالساً وقد يتخذ كرسياً لذلك كما فعل الرسول[٤] (ص). ولم يكن سوى مقعد خشبي بسيط. وابتداء من أبي بكر خصص للخليفة راتب سنوي كان في عهد أبي بكر ألفين وخمسمائة درهم يتقاضاها من بيت المال على يد أمينه أبي عبيدة الذي خصص له في البداية كسوة وطعاماً يومياً[٥]. وكان لأبي بكر تجارة فتخلى عنها بعد استخلافه.

الكتابة والكتاب

منذ العهد النبوي تفتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات العربية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي؛ فإن العرب نادراً ما كانوا يتخذون الكتابة ضماناً لمعاملاتهم، وإن لم تكن الكتابة مجهولة لديهم على كل حال، ولكن الرسول الذي قال وقد وجد العرب على

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ١/٧.

(٢) المبرد: الكامل ١/٢٢٤.

(٣) الكتاني: التراتيب الإدارية ١/٢٢. وانظر ما ورد في الكامل للمبرد (١/١٠٤) عَنْ يَرْفَأ كمسؤول تشريفات.

(٤) ن.م. ص ٩٧.

(٥) ن.م. ص ٥.

هذه الحالة: إنا أمة لا نكتب ولا نحسب، غير من العقلية العربية التي تعتمد الرواية والنقل الشفوي حتى لقد دُرست علوم الإسلام زمناً طويلاً بنفس الطريقة، فإن نشاط النبي في مختلف الميادين يقدم إلينا صورة رائعة عن تمسكه بالعمل الكتابي، حتى لكأنه تلقى ثقافته عن طريق الكتابة والتدوين، وهو أمر لم يكن. وبالنسبة للعلاقات الإدارية والسياسية ستصبح مبادرة النبي سنة إلزامية بعده، حيث ستدوّن الدواوين، وستصبح الكتابة فناً، بل فنوناً متشعبة في العصور اللاحقة (تنويع الخط وقوانينه، كتابة المصحف، فن الترسل، الخ...).

كان من الأحداث البارزة في حياة الرسول قبل انتشار الإسلام وثيقة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي كتبتها قريش وأقرتها بتعليقها في الكعبة، والتزم أصحابها «أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم، ولا يبتاعوا منهم شيئاً»(1).

وعندما كان الرسول باتجاه المدينة مهاجراً إليها من مكة كان يطارده سراقة بن مالك موفداً من قريش، ولكن حدث إعصار وساحت قوائم فرسه فاستسمح الرسول وطلب إليه أن يكتب له كتاباً يكون آية بينهما، فحرر الكتاب أبوبكر وكان بصحبة الرسول (ص)(2).

وأول غنيمة حصل عليها المسلمون في السنة الثانية قبل معركة بدر الكبرى كانت بتعليمات كتابية من الرسول الذي وجه عبد الله بن جحش ضمن ثمانية من المهاجرين ليتخذ اتجاهاً معيناً، وأصحبه خطاباً امره أن لا يفضه حتى يسير يومين في طريقه، وكان فحواه:

(1) ابن الأثير: الكامل ٢/٥٩؛ المقدسي: بدء ٤/١٥٣.
(2) المقدسي: ن.م. ص ١٧٢.

«بسم الله الرحمن الرحيم سر على اسم الله وبركته، حتى تنزل نخلة، فترصد بها عير قريش، لعلك تأتينا منهم بخبر». وعادت السرية بالغنيمة والخبر معاً.

وكل معاهدات الرسول مع الفئات المناهضة له كانت مكتوبة، كما هو الشأن مع قريش واليهود. وخلال هدنة الحديبية كتب الرسول إلى جذام ببادية الشام يدعوهم إلى الإسلام، وحمل كتابه رفاعة بن زيد الجذامي الذي قدم للدخول في الإسلام(٢).

وتتعدد مكاتبات الرسول إلى الولاة والدعاة الدينيين، كما يتوصل الرسول بردود عدد من الملوك الذين دعاهم إلى الإسلام، ومن بينهم أمراء حمير الذين استجابوا لدعوة النبي (ص) ثم وجه إليهم خطاباً توجيهياً بشأن أوامر الدين ونواهيه(٣).

وعندما توجه خالد بن الوليد إلى نجران يدعوهم إلى الإسلام، أخبر الرسول كتابة بالنتيجة الإيجابية التي حققها هناك. وكان علي بن أبي طالب، أكثر نجاحاً حيث أسلمت همذان كلها على يده، ووجه بذلك رسالة إلى الرسول(٤).

وكان أكثم بن صيفي يعد من حكماء العرب وممن طعنوا في السنّ وكتب إلى الرسول بشأن إسلام قومه فردّ عليه بما كان له وقع حسن من نفسه(٥).

---

(١) ن.م. ص ١٨٣.
(٢) الكامل ٢/١٤١.
(٣) ن.م. ص ١٩٨.
(٤) ن.م. ص ٢٠٥.
(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٣٧٩.

وفي السنة العاشرة ورد على الرسول كتاب من مسيلمة الكذاب، وفيه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد، فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون[1]!».

وكان جواب النبي عليه السلام قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

وشملت الكتابة كل التزام إداري أو سياسي. وهكذا وضع الرسول خطوط العمل المنظم لخلفائه ولأنظمة الحكم الإسلامي عامة، فكانت الإقطاعات التي سيستفيد منها المستحقون، تُعَزَّز برسوم مكتوبة يسلمها الرسول للمستفيدين[2].

وكان للنبي كتاب كثيرون بينهم كتاب وحي وكتّاب إداريون كالخلفاء الأربعة وغيرهم[3]. وسن الرسول لخلفائه استعمال الخاتم لختم خطاباته. وكان خاتمه من فضة ذا فص حبشي كتب فيه في ثلاثة أسطر متتابعة (محمد، رسول، الله)[4] ومنع أن يصنع مثله تجنباً

---

(١) البلاذري: فتوح ص ١٢٠؛ ابن الأثير: ٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥؛ صبح الأعشى ٦/٣٨١.

(٢) البلاذري: فتوح ص ٤٠، ١١٩، ١٢٦ إلخ.

(٣) بالاضافة إلى ما تحتويه كتب التاريخ والتراجم كالاستيعاب، انظر دراسة جيدة عن كتّاب النبي (ص) في مجلة المؤرخ العربي عدد ١٩٧٧/٤م. وكذا التراتيب للكتاني ١/١١٤ ـ ١٣٨.

(٤) العقد الفريد ٥/٧؛ البلاذري: فتوح ص ٦٤٧.

للتزوير[١]. وقد استعمل الرسول هذا الخاتم بعد أن علم أن الأمراء والملوك لا يقبلون الخطابات الرسمية إلاّ مختومة. وقد استعمله كل من الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر فلم يعثر عليه[٢]. وتقع البئر على ميلين من المدينة واسمها بئر أريس. ثم اتخذ عثمان خاتماً آخر من فضة على مثاله.

وكان لأبي بكر إلى جانب الخاتم النبوي خاتم خاص نقش عليه: نعم القادر بالله[٣].

وكان كتّاب الخلفاء من ذوي المقدرة والكفاءة الفكرية، وبعضهم شغل مهمة التحرير في العهد النبوي، وقد كتب لأبي بكر كل من عثمان وعلي وزيد بن ثابت[٤] وحاجبه رشد[٥].

وكتب لعمر زيد بن ثابت ومعيقب وعبد الله بن أرقم وعبد الله بن خلف الخزاعي[٦]. أما عثمان فكان كتابه هم مروان بن الحكم وأبو غطفان وعبد الملك بن مروان وأهيب (مولاه) وحمران[٧] (مولاه). وكتب لعلي كل من سعيد بن نِمْران وحاجبه قنبر[٨].

هذا هو جهاز الكتابة المركزي في العهد الراشدي، وهو جهاز في

---

(١) البلاذري: ص ٦٤٧.
(٢) انظر بشأن الخاتم النبوي: ما سبق، وكذا: ابن الأثير: ٣/٥٦؛ الطبري: ٥/٦٥ ــ ٦٦؛ الكتاني: التراتيب ١/١٧٧ ــ ١٨٠.
(٣) العقد الفريد، ٥/٨؛ ابن الأثير: ٢/٢٨٩.
(٤) ابن الأثير: ٢/٢٨٩؛ العقد ٤/٢١٧؛ الطبري. ٤/٥٠.
(٥) العقد ٥/٩.
(٦) ن.م. ص ٢٣ و ٤/٢١٨.
(٧) العقد ٤/٢١٨ و ٥/٣٤.
(٨) العقد ٥/٥٨.

غاية البساطة من حيث عدد العاملين فيه، وهو أقل بكثير مما كان في العهد النبوي، لأن الرسول (ص) كان فيما يبدو يفضّل أن يوزع جل أعمال التحرير على أكبر عدد من الكتّاب لتدريبهم وليكوّن منهم أطراً علياً في شتى المجالات. وهذا ما تم فعلاً. أما في العهد الراشدي فقد أنشئت دواوين إقليمية على غرار الدواوين المركزية، فاختصت بجهازها التحريري.

وتعين على الخلفاء كما كان الشأن في العهد النبوي أن يعززوا جهاز التحرير بتراجمة حيث كانوا يتوصلون بخطابات من ملوك وأمراء الفرس والروم والحبشة وغيرهم ولهذا السبب نجد عدداً من الموالي في جهاز التحرير كرشيد حاجب أبي بكر وحمران مولى عثمان وغيرهما. ومن ثم فجهاز التحرير كان عربي اللغة إسلامي التركيب. وأعظم التراجمة مقدرة زيد بن ثابت الأنصاري. وكان الرسول قد أمره أن يتعلّم العبرانية ليطلع على التوراة فتعلّمها في وقت قصير كما ذكر المقدسي.

وتعلّم زيد بن ثابت الفارسية والاغريقية والحبشية. ونقل الكتاني في التراتيب الإدارية (ج ١) عن ابن عبد ربه أن زيداً تلقن الفارسية من رسول كسرى إلى النبي (ص) والإغريقية من حاجب النبي (وربما كانت السريانية)، والحبشية من خادم النبي، والقبطية من خادمة الرسول (ص). وهذا ما يدل على موهبة زيد في تعلّم اللغات.

أما شكليات التحرير والتقديم فقد عالجها مؤلف صبح الأعشي[1] وغيره. وقد ظل أسلوب الخطابات والمعاهدات كما كان

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٦/٣٨٣ ـ ٣٨٨.

الشأن في العهد النبوي واضحاً ومركزاً مع إيجاز وبلاغة تعبير. وعلى سبيل المثال فقد كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامل مصر:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عمرو بن العاص، سلام عليك.

أما بعد، فقد بلغني أنه فشت لك فاشية من خيل وإبل وبقر وعبيد. وعهدي بك قبل ذلك ولا مال لك، فاكتب إلـيّ من أين أصل هذا المال».

واستعمل الراشدون لقب «عبد الله» تواضعاً واعترافاً بالسلطة الإلهية التي تساوي الناس جميعاً أمامها. وأول من أحدث اللقب على ما يبدو عمر(١).

وكـانت شدة اللهجـة في الخطابـات معتادة في دول القـرون الوسطى ولفترة لاحقة بعدها. لذلك لا نعجب إن رأينا عمرو بن العاص يجيب الخليفة عمـر عن كتابه السابق ذكره بخطاب لا يقل انفعالاً وغضباً(٢)! ومع ذلك يقره الخليفة في عمله تلقائياً.

وفتح العهد الراشدي باب التوقيعات التي تلخص في جملة بليغة موجزة قرار الخليفة أو رأيه أو جوابه. وهكذا وقع عمر في أسفل طلب تقدّم به سعـد بن أبي وقاص في مـوضوع بنـاء يبنيه، بقـوله: إبْنِ ما يُكِنُّكَ من الهواجر وأذى المطر.

---

(١) ن.م. ص ٣٨٦.

(٢) ن.م. ص ٤٧٧.

ووقع عثمان لشخص شكا الفاقة: قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس في مال الله فضل للمسرف.

وكتب سلمان الفارسي إلى علي يسأله: كيف يحاسب الناس يوم القيامة؟ فوقع: يحاسبون كما يرزقون[1]؟

أما تنظيم البريد فقد اضطر إليه اتساع الفتوحات وحاجة الدولة إلى تأمين اتصالها بالولاة بأسرع ما يمكن، كما اضطر إليه أيضاً حاجة السكان إلى تأمين معاملاتهم التجارية والاجتماعية. وهكذا وقبل التنظيم المعروف الذي تحقق في عهد معاوية كان العهد الراشدي قد عرف جهاز البريد، بل وحتى مراكزه الإقليمية. وقد ورد أن أبا موسى الأشعري صلى في دار البريد بالكوفة، وكانت الدار أيضاً وهي في طرف البلد، منزلاً ينزل به المبعوثون من الولاة إلى الخلفاء. وذكر أن عمر كتب كتاباً لعامله بالبصرة، ونادى مناديه: ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج، فمن كانت له حاجة فليكتب[2].

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٥٦.

(٢) الكتاني: التراتيب ١/١٩٢.

الفصل الثاني
النظام القضائي والتشريع

القضاء

لم يؤخذ النظام القضائي في صدر الإسلام عن أي نظام سابق، فهو من جهة، كان يتّسم بالبساطة شكلاً ومسطرة، ومن جهة أخرى اجتاز مرحلتين أولاهما امتدت خلال العهد النبوي وعهد أبي بكر والثانية انطلاقاً من عهد عمر. ففي المرحلة الأولى، ارتبط القضاء بالتكوين العقائدي، حيث يتولى الشؤون الدينية عامل الصلاة (أو صاحب الصلاة)، وإليه تسند مهمة التوعية الدينية لعموم المواطنين في منطقة مسؤوليته، وإلى ذلك، فهو يقوم مقام القاضي الذي لم تنفصل سلطته عن مهمة التوعية. ونجد هنا مثالين هامين، أحدهما علي بن أبي طالب الذي دعي للعمل القضائي ولتنظيم الشؤون الدينية بصورة تُتِمُّ ما كان في العهد النبوي باليمن، والثاني معاذ بن جبل الذي تولى مهمة مماثلة بالمنطقة نفسها ويروي علي نفسه بعد أن عيّنه الرسول قاضياً على اليمن قوله[1]: «بعثني النبي (ص) إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله: ترسلني وأنا حديث السن لا علم لي بالقضاء؟!

(١) عبد الله بن فرج القرطبي: أقضية رسول الله ص ٨٢.

فقال: إن الله عز وجل، سيهدي قلبك، ويثبت لسانك، وإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضِ حتى تسمع كلام الآخر، كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبينّ لك القضاء».

لقد كان العهد النبوي لا يتوفر بطبيعة الحال على إطارات ذات تجربة قضائية كافية، ولذلك كان النبي (ص) يسند هذه المهمة إلى شبان برهنوا عن استفادتهم من صحبته، وتكونوا على يده، وكانت الإطارات القيادية في جلها من الشباب. وهكذا فإن معاذ بن جبل وهو من شباب المدينة، وصف بأنه[1] «المقدم على الحلال والحرام» وبأنه «إمام الفقهاء، وكنز العلماء، وفخر شباب الأنصار علمًا وحياء وسخاء». وعندما أسند إليه مسؤولية التوعية العقائدية والعمل القضائي سأله: «بِـمَ تقضي؟ قال: بما في كتاب الله. ثم سأله: فإن لم تجد؟ فأجاب: بما في سنة رسول الله. فقال: فإن لم تجد؟، فرد على الفور: أجتهد برأي».

وكان الرسول (ص) يمارس القضاء بنفسه حيثما حل. أما أبوبكر، فقد وكّل شؤون القضاء على النطاق المركزي إلى عمر[2]. وابتداءً من العهد العمري تبدأ المرحلة الثانية من التنظيم القضائي في صدر الإسلام، حيث يسند الخليفة إلى أشخاص مهمة القضاء مستقلا عن مسؤوليات أخرى، فولّـى أبا الدرداء بالمدينة، وأبا موسى الأشعري بالكوفة، وشريحاً بالبصرة[3]. على أن هؤلاء مارسوا مهامهم بعد تعيين قضاة متنقلين مع الجند[4]، بل يبدو أن بعضهم استقر بمنطقة معينة.

---

(١) الغلامي: أصحاب بدر ص ٢٠٤.
(٢) العقد الفريد ٥/٨؛ الطبري: ٤/٥٠.
(٣) الكتاني: التراتيب ١/٢٥٩.
(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٦١.

وهكذا روي عن الشعبي أن سلمان بن ربيعة الباهلي كان أول قاض عيّنه عمر بالعراق، وأنه شهد القادسية وقضى بها ثم بالمدائن وخلفه عليها شرحبيل ثم أبو قرة الكندي الذي تولىّ قضاء الكوفة بعد اختطاطها، وبعده عينّ شريح بن الحارث الكندي (في الكوفة). وهناك من ينفي أن يكون أبو موسى الأشعري قد تولىّ القضاء. وكيفما كان الأمر، فلا يوجد شك. حسب المصادر في أن عهد عمر، شهد استقلال المسؤولية القضائية في عدد من الأقاليم، وهكذا نرى أبا الدرداء في عهده يتولى القضاء والصلاة (الشؤون الدينية) بالأردن ودمشق بعد أن تولى نفس المسؤولية فيما سبق بالمدينة. وقد توفي بدمشق وهو بها قاض[1] سنة ٣٢، أي أنه استمر قاضياً إلى عهد عثمان، وكذلك تولى عبادة قضاء حمص وقنسرين في عهد عمر[2]. وهذا يبطل ما ذكره علي حسن عبد القادر من أن القضاء لم يكن وظيفة مستقلة في العصر الأول وأن أول من عيّن قضاة الأمصار هو أبو جعفر المنصور، لأن المسؤوليات السياسية والعسكرية والإدارية للولاة لا تسمح لهم بممارسة القضاء، ومن جهة أخرى فاتساع أطراف الدولة الإسلامية لا مناص للخليفة معه من ترك مهمة القضاء لغيره في الأمصار.

وقد كان لمصر قاض خاص أيضاً هو خارجة الذي عينّ في عهد عمر إلى جانب عاملها عمرو بن العاص بعد إتمام الفتح. وتوفي عُمَر وخارجة هذا في منصبه[3].

---

(١) البلاذري: فتوح ص ١٩٢؛ الحافظ الذهبي: العبر ١/٣٣.

(٢) البلاذري: ن.م.وص. وقد ولي قضاء القدس أيضاً وتوفي سنة ٣٤هـ العبر ١/٣٥).

(٣) الطبري: ٥/٤٩.

وكما كان العمال يخضعون للتغيير والتنقيل، كان القضاة كذلك أيضاً. غير أننا نرى أن عمر يعينّ شريح بن الحرث على الكوفة سنة ١٨، وعلى البصرة كعب بن سور الأزدي في نفس السنة[١]، ثم يتوفى عمر سنة ٢٣ وهما في نفس المهمة[٢]. وبالمقابل نرى عبادة بن الصامت يمارس القضاء بحمص وقنسرين ثم بالقدس كما سبق، وكما يبدو ذلك في حاشية هذا الكتاب أيضاً.

وقد عينّ عثمان قاضياً مركزياً بالمدينة هو زيد بن ثابت[٣]، أما في عهد علي الذي نقل العاصمة إلى الكوفة فقد عيّن أبا الأسود الدؤلي الذي كان يمارس مسؤولية القضاء بالبصرة، حيث كان العامل هو عبد الله بن عباس. وكان ابن عباس يتضايق منه، لأن أبا الأسود كان يكتب بشأن تصرفاته المالية إلى علي الذي قرر محاسبته[٤]، ومن أجل ذلك غضب ابن عباس وغادر منصبه إلى مكة حتى قتل علي، وهذا يزيد من التأكيد بوجود قضاة أمصار في العهد الراشدي. وأقرّ علي بالكوفة شريحاً الذي تولى القضاء بها سنة ١٨. وتروى قصة عن مقاضاة علي لنصراني عند شريح، حيث قيل إنه وجد درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح، وجلس علي إلى جانب شريح، وقال: لو كان خصمي مسلماً لساويته، وقال: هذه درعي، فقال النصراني: ما هي إلّا درعي، وسأل شريح علياً: ألك بينة؟ قال: لا! فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيراً، ثم عاد وقال: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء: أمير المؤمنين قدّمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٩٤.
(٢) ن.م. ج ٣/٤٠.
(٣) الكامل ٣/٩٥.
(٤) الطبري: ٦/٨١ ـ ٨٢.

واعترف أن الدرع سقطت من علي في مسيره إلى صفين، ثم أسلم وشهد مع علي قتال الخوارج[1].

لكن المهم في سياق القصة، هو كيف يمتنع علي من الجلوس إلى جانب خصمه بقطع النظر عن دينه؟ وقد كان علي ينتصف من نفسه قبل غيره؟

أما بالنسبة للمظالم فقد تولى مسؤوليتها النبي في عهده ثم الراشدون. وكان لعمر رغبة أكيدة في أن يحدث نظام تفتيش قضائي وإداري يتولاه مباشرة عبر أنحاء الأقطار الإسلامية، ونسب إليه بذلك تصريح جاء فيه[2]:

«لئن عشت إن شاء الله، لأسيرن في الرعية دولاً (أي تناوباً)، فإني أعلم أن للناس حوائج تقتطع دوني؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إليّ: أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين».

ويظهر أن قرار عمر هذا لم يصدر إلاّ في أواخر خلافته، وبالذات بعد فتح مصر الذي تم سنة ٢١ هـ، وذلك يفهم من الإشارة إلى مصر ضمن الأقاليم الأخرى في تصريح عمر. وكيفما كان الأمر، فقد كان لعمر مساعد دائم يتقصى أخبار الولاة والشكايات الواردة من الأقاليم، وهو محمد بن مسلمة[3]. وقيل إن علي بن

(١) ابن الأثير:الكامل ٢٠١/٣.
(٢) الكتاني: التراتيب ٢٦٧/١.
(٣) ن.م. وص.

أبي طالب باشر مهمة القضاء على النطاق المركزي في عهد عمر[1].

وإذا كان العهد النبوي قد شهد وجود فئة كبيرة من الموالي في مواقع المسؤولية العسكرية أو الإدارية، فإن العهد الراشدي قد شهد أيضاً ظهور كثير من الموالي الذين ساهموا في العمل التشريعي، بل إن أحدهم ويدعى ابن أبزي كان عالماً بالفرائض، وأسند إليه عامل مكة نافع بن الحارث مهمة القضاء، وبشأن ابن أبزي قال عمر: إن الله سبحانه يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين[2].

وكان ممن برزوا في الفرائض زيد بن ثابت وعثمان بن عفان وعائشة[3]. أما بالنسبة لمكان الحكم فهو المسجد الذي ظل كذلك لفترة طويلة من تاريخ الإسلام. وكان للقضاة القارين راتب مخصوص شأن الولاة[4].

التشريـــع

يعد التشريع ميداناً رئيسياً في القرآن والسنة، لأن الإسلام ليس ديناً طقوسياً بقدر ما هو نظام حياة، ولذلك احتاج التشريع إلى جهود متكاثفة منذ العهد النبوي نفسه، والذي هو بطبيعة الحال منطلق لما بعده. وهكذا فبالرغم من أن جلة الصحابة كـانوا يتحرّجـون من الفتوى في النوازل والاجتهاد بآرائهم في عهد الرسول وهم ما زالوا تلاميذ له، فإن بعضهم سـاهم في الفتوى والرسول على قيد الحياة،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٠٩.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/١٥٢.
(٣) التراتيب ١/٢٧٧.
(٤) ن.م. ص ٢٦٤.

إما بتكليف منه أو بتزكية أو رضى؛ ومنهم عبد الرحمن ابن عوف، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل.

وكان عبد الرحمن بن عوف من كبار تجار قريش وأحد المهاجرين المرموقين في المدينة وهو من أعضاء مجلس الشورى الذي عيّنه عمر قُبيل وفاته. وقد تنازل عن شطر عظيم من أمواله لعمليات المقاومة والنضال ضد الشرك. ووصفه الرسول (ص) بأنه «أمين في السماء وأمين في الأرض[1]». وهو ممن رووا كثيراً عن النبي (ص)، وتوفي سنة **٣٢** في خلافة عثمان.

أما أبي بن كعب، فيعد من فقهاء الصحابة وممن كان يستفتيهم عمر بن الخطاب في خلافته، كما كان يستفتيه الصحابة وغيرهم[2].

ووصف زيد بن ثابت بأنّه أفرض الناس في حديث نبوي، أي أنه كان أعلم الناس بالفرائض[3]. وهي تزكية لهذا الصحابي الذي كان كأبي بن كعب من القراء والكتّاب الخاصين للرسول.

واعتنى التشريع في عهد عمر لسببين أساسيين:

١ ــ اتساع الفتوحات وظهور أحداث ونوازل عديدة ترتبط بالأرض والملكية والمعاملات والتصرفات الخاصة في العبادات فضلاً عن المعاملات.

٢ ــ حرص عمر بصفة مباشرة على أن تخضع الوقائع والأحكام والحياة اليومية بصفة عامة لتعليمات القرآن والسنة، وإلاّ كان عليه

---

(١) الغلامي: أصحاب بدر ص ٦٨.
(٢) ن.م. ص ٢٢٠.
(٣) ن.م. ص٢٢١.

أو على المؤهلين للاجتهاد أن يساهموا في خدمة التشريع باجتهادهم وآرائهم. ورسالة عمر في القضاء مشهورة وهي تخدم الاجتهاد والقياس صراحة، وإن كان هناك من تشكك في نسبتها إليه[١]؛ لأنَّ التشكك فيها لا يرفع حقيقة تاريخية وفقهية أكيدة، وهي أن عصر عمر عصر اجتهاد، وأن عمر رجل تشريع وأحكامه ثابتة في أكثر من نص.

ولتعليمات عمر في الميدان القضائي إلى الولاة والقضاة أكثر من مثال، ومن ذلك ما وجهه إلى معاوية عامل الشام[٢]:

إذا تقدّم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدْناء الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه. وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تتعاهده سقط حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به؛ وآسِ بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

وفي هذا النص ما يشبه بعض ما ورد في الرسالة المشكوك فيها والتي ذكر أنها وجهت إلى أبي موسى الأشعري.

وليس في النَّصَّين معاً إلّا تأكيد لما ورد في القرآن والحديث النبوي، بل إن اجتهادات الصحابة في العهد النبوي نفسه معروفة، ومنها على سبيل المثال أن رجلاً ترك أختاً وبنتاً، فأورثهما معاذ النصف لكل منهما[٣].

وفي عهد عمر، دخل أعرابي على الخليفة فقال إني أصبت (أي قتلت) ظبياً وأنا محرم، فالتفت عمر إلى عبد الرحمن بن عوف وقال:

---

(١) انظر: علي حسن عبد القادر: نظرة عامة في الفقه الإسلامي، ص ٧٤.

(٢) ابن عبد ربه: العقد ١/٦٢.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٩٢.

قل! فأجاب: يهدي شاة! فقال عمر: أُهدِ شاة! فعلّق الأعرابي بقوله: والله ما درى أمير المؤمنين ما فيها حتى استفتى. فقال عمر: «إن الله عز وجل قال: يحكم به ذو عدلٍ منكم؛ فأنا عمر بن الخطاب وهذا عبد الرحمن بن عوف»(١).

وحول قتل الدواب الضارة، وردت أكثر من فتوى من عمر حسب السائلين(٢). ومن ذلك أنه سئل عن قتل الحيات في الإحرام فأجاز قتلها بقوله: «هي عدو، فاقتلوهن حيث وجدتموهن».

على أن كثيراً من اجتهادات الراشدين وتوجيهاتهم لا سيما ما نسب إلى عمر بن الخطاب سيرد في ثنايا الفصول اللاحقة، فضلاً عما ورد في هذا الفصل.

الحدود وتنفيذ الأحكام

لا مراء في أن التشريع الإسلامي الأصيل يتميز بالنزاهة والعدالة المطلقة التي لا تراعي الخصوصيات والحيثيات. وقد نفذ النبي الحد في أشخاص بارزين كما فعل الراشدون بعده. ولم يتردد الرسول في تنفيذ الحد في حسان بن ثابت وعبد الله بن أبي وشخصين آخرين أحدهما امرأة عندما ثبت قذفهم ظلمًا لعرض عائشة زوجة الرسول، والتي برأها القرآن(٣).

---

(١) المبرد: الكامل ٣/ ٩٢.

(٢) الأزرقي: فتوح مكة ٢/ ١٤٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢/ ١٣٥؛ المقدسي: البدء ٤/ ٢١٦. واقرأ حديث الإفك في ابن هشام والطبري وغيرهما.

وقضى النبي في تنفيذ حكم الإعدام في شخص تزوج امرأة أبيه، كما صادر أمواله(١).

ومن أطرف وأسمى ما يروى من أمثلة عدل النبي(٢)، أن علياً وفاطمة (بنت الرسول) اشتكيا إليه ما يلقاه كل منهما من تكاليف الحياة اليومية، فحكم لعلي بتحمّل مسؤوليته خارج البيت، وحكم لها بتحمّل أعباء خدمة البيت.

واستعمل عمر لأول مرة الضرب بالدرة(٣) التي كان يحملها باستمرار، فقد ضرب بها الشاعر أبا شجرة السلمي وكان قد ارتد ثم وضع قصائد يفتخر فيها بقتاله لجيوش خالد، وقد ورد على عمر وهو مسلم(٤). بل إن عمر ضرب إحدى بنات أبي بكر،وكانت تنوح عليه في مأتمه(٥)، ولجأ إلى ذلك امتثالاً للشريعة الإسلامية وتجنباً لما كان يفعله نساء الجاهلية من لطم الوجوه وشق الجيوب.

وضرب علي بالدرة أحد عماله على الصدقة بعد أن اتهمه بالتواطؤ مع أحد مبعوثي معاوية لمهمة مماثلة(٦).

أما عقوبة الحبس فقد تقررت من العهد النبوي. وقد فسّر المقريزي نقلاً عن الماوردي الحبس الشرعي بأنه ليس هو السجن في

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٢٩٥؛ القرطبي: أقضية رسول الله، ص ١١.
(٢) أقضية رسول الله ص ٥٧.
(٣) ابن الأثير:الكامل ٣/٣١.
(٤) م.س. ج ٢/٢٣٧.
(٥) م.س. ص ٢٨٨.
(٦) م.س. ج ٣، ص ١٩١. وانظر بشأن الضرب بالدرة: الكتاني: التراتيب ١/٢٨٧ ــ ٢٩٠.

مكان ضيق، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرّف بنفسه(١). وقد حبس الرسول شخصاً لمدة يوم وليلة حتى استبرأ(٢)، وهو شبيه بالحبس الاحتياطي في العصر الحاضر.

ولم يكن في عهد النبي ولا في عهد أبي بكر سجن، فقد يتم الحبس أو السجن في دار للخواص أو بالمسجد، كما أورد ذلك الكتاني في التراتيب الإدارية. ولما تولى عمر ابتاع داراً من صفوان بن أمية بمكة وجعلها سجناً(٣). ولا يبعد أنه فعل مثل ذلك بالمدينة أيضاً. وبنى بالكوفة سجناً(٤). ويظهر أنه كان على شكل مطامير. وهو أول من بنى سجناً من الراشدين(٥). وكان للنساء أيضاً محبس خاص حيث ثبت أن الرسول سجن بنت حاتم في غرفة بالمسجد(٦). وبنى عتبة بن غزوان السجن والديوان قرب المسجد بالبصرة، كما أورد ذلك البلاذري في موضوع تمصير البصرة.

ومن أنواع العقاب الشرعي النفي، وقد نفذه الرسول (ص) ضد الحكم بن العاص الذي كان يحاكي مشية النبي، فنفاه إلى الطائف. ونفى عثمان عدداً من الأشخاص المناهضين لعامله بالكوفة إلى الشام، كما نفى عبد الله بن سبأ من البصرة فاتجه إلى مصر.

ومنع الأخذ بالثأر مطلقاً، حتى لا يسمح المشرع بالعودة إلى قانون الغاب الذي عرفه العصر الجاهلي.

---

(١) المقريزي: خطط ٣/٩٩. وانظر، التراتيب ١/٢٩٥.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٧٢؛ المقريزي: م.س.
(٣) المقريزي: م.س.
(٤) التراتيب: ١/٢٩٧.
(٥) م.س. ص ٢٩٨.
(٦) م.س. ص ٣٠٠.

أما شرب الخمر فكان الحد فيه بالضرب بالأيدي والنعال عهد الرسول حتى أواخر عهد عمر حيث سن الجلد أربعين أو ثمانين حسب ما يصدر عن الشارب من تصرّف[1]. ونفى عمر أبا محجن الثقفي في شرب الخمر حسبما أورده البلاذري، ولما واتته الفرصة هرب فالتحق بسعد بن أبي وقاص حيث شرب الخمر وهو في عسكر القادسية! فضربه وحبسه مقيداً بحديد. ولكنه تاب بعد ذلك وأظهر إقداماً عجيباً في حرب القادسية[2].

وكانت عقوبة الرجم معهودة في أيام النبي ثم في العهد الراشدي. وتنفذ على الزاني والزانية بعد إتمام الشهادة بأربعة أشخاص عدول وبشروط معروفة، وعقوبة رجم الزاني كانت متعارفة في الشريعة الموسوية، بل إن الرسول (ص) نفّذها في يهودي ويهودية بعد موافقة اليهود أنفسهم.

وينفذ الحكم بالإعدام بقطع الرأس. وقد يصلب المحكوم عليه، وقد روي أن الرسول صلب رجلاً على جبل بالمدينة اسمه ذو رباب[3]، ونفذ حكم الإعدام في مرتدّ إحراقاً في عهد أبي بكر وبأمر منه. وتمت عملية الإحراق بالمصلى[4]. وأحرق محمد بن أبي بكر على يد معاوية بن حديج، بعد قتله وإلقائه في جيفة دابة[5]. وقيل إن رأسه قطع وطيف به فكان أول رأس طيف به (في الإسلام)[6]. وفي

---

(١) علي حسن عبد القادر: نظر عامة، ص ٦٨ وما بعدها، وهو مهم.

(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٦٠.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٧٢.

(٤) البلاذري: فتوح ص ١٣٦.

(٥) ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/١١٠.

(٦) ن.م. ص ١١١.

حروب الردة أحضر خالد بن الوليد كل المرتدين الذين اعتدوا على الإسلام وحرقوا ومثلوا وهم مرتدون، فمثل بهم وأحرقهم وألقى بهم من قمم الجبال(١). وكان الرمي في المهاوي السحيقة من أعمال الإعدام التي مارسها الرومان قديماً.

وقد يمارس الخليفة أو من يقوم مقامه حق العفو كما هو الشأن حتى يومنا هذا في أغلب الدول. وهكذا فعندما ارتد الأشعث بن قيس وألقي عليه القبض همَّ أبوبكر بقتله ولكنه استعطفه في الإبقاء عليه فعفا عنه(٢).

هذه باختصار صورة مبسطة عن النظام القضائي في العصر الراشدي مع مؤثرات العهد النبوي. وسيرد في الفصول اللاحقة، الشيء الكثير عن صور التشريع الإسلامي للعهد الراشدي(٣). وإذا كان في العقوبات الجنائية ما يتقارب مع أنظمة سابقة تاريخاً للإسلام، فإن في التشريع والميدان القضائي مبادرات لا تكاد تحصر، وهي من عمل المشرع والصحابة أصلاً كما سيتضح، بل هناك ما سبق من هذه المبادرات في هذا الفصل كحد شارب الخمر ومعاقبة النائحات فضلاً عن اجتهادات قضاة الأمصار.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/١٣٦.

(٢) ن.م. ص ٢٦٠.

(٣) هناك مراجع حديثة متعددة عالجت قضايا التشريع الإسلامي عبر التاريخ، كمؤلفات أبي زهرة، والشيخ الخضري، بالاضافة إلى الدراسات غير العربية.

الفصل الثالث
النظام المالي والاقتصادي

ديوان العطاء

كل التشريعات والتخطيطات في صدر الإسلام كان منبعها حاجة القاعدة ثم المصلحة العامة، فالقوانين لا تفرض من أعلى بالمبادرة، بل تكون تعبيراً عن واقع موجود وأحداث طارئة. ولذلك نجد كل التشريعات في هذه الفترة تتسم بالبساطة التي تساير بساطة المجتمع نفسه. وأول مؤسسة تنظيمية في الإسلام ذات طابع مالي واقتصادي وعسكري هي بيت المال الذي سيأتي الحديث عنه ببعض التفصيل. كذلك فإن جهاز الكتابة الذي أنشىء منذ العصر النبوي واستمر بعده، أدى خدمة جليلة في بث التعليمات وتنسيق الأعمال العسكرية والإدارية والسياسية. غير أن بيت المال لم تتضح أهميته إلّا بعد أبي بكر؛ فقد كانت أموال الغنائم والزكوات التي ترد على النبيّ ثم على أبي بكر توزّع بعد أن يأخذ الجيش نصيبه المقرر في ميدان القتال، حسب ما يراه الرسول. وكان أبو بكر يرى، ويعمل بالتسوية في العطاء بين المستفيدين، وإن كان ذلك قد أغضب الأنصار[1]، بينما كان عمر يرى التفضيل بالسابقة في الدين[2]. وعندما اكتمل فتح العراق والشام

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/١٠٨؛ البلاذري: فتوح ص ٦٣٢.
(٢) القلقشندي: م. س. ص ١٠٩.

وتكاثرت أموال الغنائم استشار عمر الصحابة في طريقة تقسيم العطاء، نظراً لكثرة المستفيدين محاربين وغيرهم، وخشية حرمان البعض واستفادة آخرين، أكثر من مرة. فاتفق أغلبهم، بالإضافة إلى رأي بعض الفرس كالهرمزان على ضرورة إنشاء ديوان على غرار دواوين الفرس والروم، وفيه كما وصفه فارسي لعمر، يسجل الدخل والخرج، «وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب، لا يتطرّق عليها خلل»(١). وكان إنشاء هذا الديوان الذي يطلق عليه أيضاً ديوان الجيش (٢) أو ديوان الجند سنة (٣) ١٥ هـ، وهناك من يذكر أنه أنشىء سنة (٤) ٢٠، ولكن الحاجة الملحة إليه بدت مبكرة، ولذلك يكون التاريخ الأول أقرب إلى الحقيقة. وكان من أوائل الذين تولوا مسؤولية هذا الديوان، مخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب، وكلهم من شباب قريش(٥).

الموارد

لقد كانت موارد الدولة الإسلامية الناشئة في أوائل مراحلها ضعيفة لا تتجاوز ما حصل عليه المحاربون في مواجهات محدودة بعد الهجرة إلى المدينة، غير أن هذه الموارد اتسعت بعد فتح مكة وامتداد الإسلام إلى سائر شبه الجزيرة. وأول الموارد كان من الغنائم سنة اثنتين من الهجرة في سرية بقيادة عبد الله بن جحش وفيها إبل ومعها

---

(١) ابن طباطبا: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٨٣.
(٢) صبح الأعشى ١٣/ ١٠٦
(٣) الطبري: ٤/ ١٦٢؛ ابن الأثير: ٢/ ٣٥٠.
(٤) البلاذري: ص ٦٤١.
(٥) م. س. ؛ صبح الأعشى ١٣/ ١٠٧.

أشخاص اقتيدوا اسرى، وكانت قبل بدر الكبرى مباشرة. وقد تم تخميسها، أي اقتسام أربعة أخماسها بين المحاربين، وتخصيص الخمس الباقي للرسول ليقسمه حسب رأيه.

وكانت غنائم بدر أضخم كمًّا وقيمة، وهي تشتمل على سلع كثيرة لقريش، على الرغم من أن أصحاب القافلة استطاعوا أن يهربوا قسمًا منها إلى مكة، وضمنها سبعون فرساً[1]. وفي السنة الرابعة كان من أهم الموارد مستغلات وأراضي بني النضير التي استفاد منها المهاجرون دون الأنصار، ولكن عن طيب خاطر من هؤلاء ومع موافقتهم[2].

وفي السنة السادسة قسمت أموال يهود بني قريظة بين المسلمين. وفي العام الموالي تم الاستيلاء على أموال خيبر، فقسّمت بين المساهمين في الحديبية[3]، واحتفظ اليهود بحق العمل كأجراء بمناصفة الغلات مع المسلمين، إلى أن تم جلاؤهم في عهد عمر. وعندما وصل أوان تقسيم هذه الغلات خيّرهم مبعوث الرسول (ص) عبد الله بن رواحة في أخذ أحد الشطرين مما جمع، فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض!». وتعد مستغلات خيبر أهم ما حصل عليه المسلمون من موارد حتى هذه السنة.

أما فدَك (بفتح الدال)، التي عرضت على النبي مشاطرته نصف أراضيها فقد قبل عرضها. ولما كان حصول المسلمين على هذه الأموال من غير قتال، فقد تركت حرية البت فيها للنبي (ص) فكان يخصصها

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٨١.

(٢) البلاذري: فتوح ص ٢٧.

(٣) روى البلاذري كيفية التقسيم ص ٣٨.

لأبناء السبيل[1] (الغرباء والمنقطعين). ولما تولى بنو أمية استولوا على أموال فدك وأخرجوها عن مصارفها باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي ردها إلى ما كانت عليه[2].

وعندما رفض سكان وادي القرى اعتناق الإسلام، افتتح الرسول أرضهم عنوة وعاملهم كأهل خيبر، ثم افتتح تيماء صلحاً سنة ٧ هـ على أن يؤدوا الجزية[3]، وهي من المراكز الأولى التي بدأت تؤدي الجزية.

وتم تقسيم غنائم حنين على الخصوص بين المؤلفة قلوبهم، وفيهم أبو سفيان أو ابنه معاوية وصفوان بن أمية، وهم نحو المائة. وقيل أخذ كل منهم مائة بعير، ولعله عدد مبالغ فيه عند الرواة. وقد أدى تقسيم الغنائم على المهاجرين وقبائل أخرى من غير الأنصار إلى غضب هؤلاء حتى طمأن النبي خواطرهم[4]، إذْ كان عليه أن يضمن ولاء قريش، حتى يتخذ المد الإسلامي اتجاهه من غير عائق، وفعلاً، فإن قريشاً لم ترتد كما فعل العرب في مختلف جهات شبه الجزيرة.

وكانت التحف والهدايا التي تقدّم للأصنام مما يدخل في غنائم المسلمين أو فيئهم غير أن الهدايا النفيسة والتحف الموجودة بالكعبة لم يسمح الرسول باستغلالها.

وفي السنة التاسعة شرعت الزكاة، وتأخيرها إلى هذه السنة يعني أن المجتمع الإسلامي قد توفرت لديه موارد نسبياً من الغنائم، كما أن

---

(١) ن.م. ص ٤١.
(٢) ن.م. ص ٤٣ ؛ ابن الأثير: الكامل ٢/١٥٢.
(٣) البلاذري: ٤٧ ـ ٤٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٢/١٨٣.

الإدارة استقرت وفرضت نفسها على الجزء الأكبر إن لم يكن مجموع شبه الجزيرة. وهذا يتيح الحصول على موارد ثابتة من إنتاج الأرض والمواشي والتجارة، ليتم توزيعها على المستحقين حيث هم. وعلى ذلك فلم يتم تحصيل الزكاة إلاّ مرتين على الأكثر في العهد النبوي، وهي لا تجمع مع الخراج[1].

أما الجزية التي يؤديها الكتابي كضريبة عن شخصه والتي تقابل من بعض الوجوه، الزكاة التي يؤديها المسلم عن أمواله، فتؤدى في الغالب نقداً وقد تؤدى عيناً. وهكذا فمنذ السنة العاشرة كانت نجران النصرانية تؤدي ألفي حلة لبيت المال، وهذه جزية جماعية يتكفّل بها رؤساء الملة. وفي عهد عمر، تم جلاء نجران بطلب منهم على إثر نزاع وقع بينهم، ثم ندموا على طلب الرحيل فلم يقبل منهم البقاء[2]، فارتحلوا إلى الشام حيث تشرّدوا أو انصهروا في عدة مجموعات عربية.

وكانت جزية أهل الكتاب في تبالة وجرش وهما من مراكز نجد التابعة لمكة ديناراً واحداً عن الشخص البالغ[3]. وطبق نفس المبلغ على نصارى أيلة وتبوك بالشمال. أما أهل مقنا بالشمال أيضاً، وكانوا يهوداً، فقد صالحهم النبي (ص) على ربع ممتلكاتهم بما فيها الأسلحة والدواب وإنتاج الأرض. وكان ذلك في السنة التاسعة[4].

وحصل المسلمون على أموال مهمة من دومة الجندل الواقعة بين

---

(١) انظر بالنسبة لتشريع الزكاة: المقدسي: البدء ٥٢/٥؛ والبلاذري: فتوح ص ٧٧.

(٢) الكامل ١٩٩/٢.

(٣) البلاذري: ص ٧٩.

(٤) ن.م. ص ٨٠.

المدينة ودمشق وقد تضمن عهد النبي لأميرها أكيدر مجموع الأموال والممتلكات التي دخلت في ملك المسلمين(١).

والتزم المجوس واليهود والنصارى من سكان البحرين بأداء نصف غلاتهم وجزية دينار عن كل بالغ. وبلغت الجزية ٨٠ ألف درهم، وهو مبلغ قيل إن النبي لم يتسلم مثله من قبل ولا من بعد(٢)، أي أنه كان كبيراً.

ولم يكن استخلاص الضرائب من العرب أمراً جديداً في شبه الجزيرة، فقد كان القسم الأكبر من الأراضي العربية ملزماً قبل الإسلام بأداء الخراج أو ضرائب معينة إما إلى الفرس وهم أشمل سلطة في شبه الجزيرة، أو إلى الروم بالنسبة للجهات المتاخمة للشام. وكان سكان يثرب قبل الإسلام يؤدون خراجاً مزدوجاً، أحدهما لعامل الجباية الفارسي، والثاني لقريظة وبني النضير. وكان على تهامة ويثرب عامل جباية تابع لمرزبان (حاكم الفرس) اليمن(٣).

أما الرسول فقد عينّ لجمع أموال الزكوات والخراج عمالاً سمّوا بعمال الصدقات، أي الزكوات. وكان عامل الصدقة يؤدي مهمته مرة في السنة لفترة معينة، ما لم يقتض الأمر استقراره فيجمع مهمته هذه مع مسؤولية أخرى قارة. ومن بين عمال الصدقات عمرو بن العاص بعمان، حيث تقطن قبيلة الأزد(٤)، وخالد بن سعيد بن العاص الذي

---

(١) ن.م. ص ٨٢. وقد أورد نص العهد المشار إليه.

(٢) ن.م. ص ١٠٦ ــ ١١١.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٢٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢/١٨٥.

عينّ في السنة العاشرة لهذه المهمة على مراد وزبيد ومذحج(١)، كما عينّ المهاجر بن أبي أمية بصنعاء(٢)، وزياد بن لبيد بحضرموت، وعدي بن حاتم الطائي بطيّىء، وعلي بن أبي طالب بصفة مؤقتة في نجران، كما عينّ غيرهم في مهمات أخرى.

وجمع معاذ بن جبل بين القضاء ومهمة عامل الصدقات(٣)، كما جمع عمرو بن حزام في نجران، بين العمالة الإدارية والجبائية، ومهمة التكوين الديني(٤).

وقد بينّ الرسول أهداف الزكاة في خطاب وجهه إلى الملوك بحمير، والذين بادر بعضهم إلى الإسلام تلقائياً، وجاء ضمن الخطاب: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآله، إنما هي زكاة تزكون بها، هي لفقراء المسلمين المؤمنين»(٥). والصدقة في مدلولها النبوي وفي القرآن بمعنى الزكاة ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم بها﴾.

ولم تكن مهمة عامل الصدقات هي جمع الأعشار والجزية فحسب، بل يتكفّل أيضاً بعملية رد الصدقات على المستحقين في عين المكان. على أننا لا نملك معلومات عن نسبة هؤلاء في مختلف المناطق.

ومن الواضح أن الجزية والخراج في العهد الراشدي صارا يمثلان موردين ضخمين إلى جانب الغنائم، بحيث لا تَدُرُّ الزكاة أمام هذه

---

(١) ن.م. ص ٢٠٢.
(٢) ن.م. ص ٢٠٥.
(٣) البلاذري: ص ٩٤.
(٤) ن.م. ؛ الكامل ٢/٢٠٠.
(٥) البلاذري: ص ٩٤.

الموارد الثلاثة إلاّ نسبة ضئيلة، ذلك أن فتح مصر والشام والعراق وليبيا وفارس، لم يكن يعني بالضرورة إسلام سكانها فورياً، ومن ثم ظلت أغلبية هؤلاء من غير المسلمين فكانت الغنائم والجزية والخراج موارد تتجاوز بكثير موارد الزكوات التي يؤديها المسلمون. على أن بعض الولاة خصوصاً أيام عثمان استحلوا اعتبار السكان رقيقاً حتى وهم معاهدون. وهكذا ألزم عمرو بن العاص ولاته بليبيا أن يبيعوا أبناءهم ليتحللوا من الجزية. غير أن عمر بن عبد العزيز صحح هذا الوضع فيما بعد(١).

ويعرض البلد المفتوح نفسه لجباية باهظة إذا نقض شروط الصلح كما حدث في همذان أيام عثمان حيث ثار السكان ضد الحكم الإسلامي فأدوا الخراج عن الأرض والجزية عن الرؤوس وغرامة مائة ألف درهم(٢).

وكانت الجزية على المراكز الفارسية كبيرة القيمة، حيث نرى هراة تؤدي مليون درهم ومرو مليوني درهم ومائتي ألف درهم(٣)، وقومس والري خمسمائة ألف درهم(٤) وأذربيجان ثمانمائة ألف درهم(٥)، غير أن هذه المراكز إما شاسعة المساحة كثيرة السكان أو ذات خصب وإنتاج وفير.

واعترف عروة بن الزبير وقد أقام بمصر سبع سنين بأن أهل

---

(١) ن.م. ص ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٢) ن.م. ص ٤٣٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٣/٦٢.
(٤) البلاذري: ص ٤٤٤.
(٥) ن.م. ص ٤٥٥.

مصر قد جهدوا وأنه قد «حُمِّلَ عليهم فوق طاقتهم»[1]، ويفسر لنا هذا مدى الدور الذي قام به المصريون في الثورة ضد عثمان، وإن كانوا من الفاتحين وأبنائهم. وقد فتحت مصر في سنة ٢٠ هـ أيام عمر، ولكن لا يمكن أن يسند إليه من الأخطاء ما ارتكبه لاحقوه أو من فعلوا ذلك في غيبته.

وعندما فتح إقليم نيسابور من فارس (إيران)، وهو أيضاً إقليم شاسع خصب في أيام عثمان سنة ثلاثين، حسب اليعقوبي الجغرافي و ٢٦ حسب غيره[2] كان خراجه ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف درهم تم بلغ في العهد العباسي أربعة ملايين وصولح أهل أرّجان (من فارس) على مليوني درهم ومائتي ألف[3].

وتضخم الجباية أو تقلل حسب الوضع الاقتصادي للمنطقة. ولذلك كانت جزية سكان اليمن أقل من جزية الشام. وعلل الخليفة عمر ذلك بما كان عليه أهل الشام من يسار[4]. ولكن داخل القطر الواحد يتم أداء الضرائب حسب استطاعة كل مركز. ففي الشام وما والاها نجد على سبيل المثال أن الرقة يؤدي الكتابي فيها أربعة دنانير وهو مبلغ كبير، بينما طلب من أهل الرها دينار عن كل بالغ ومدا قمح، على أن تتولى المدينة إصلاح الطرق والجسور[5].

وعندما فتحت الجزيرة وضع على أهلها أربعة دنانير للبالغ، ثم

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٠٥.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص ٤٢؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٤؛ الحافظ الذهبي: العبر ١/٢٨.
(٣) ابن تغري: م.س. ص ٨٥.
(٤) البلاذري: ص ٩٨.
(٥) ن.م. ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠.

خفف عنهم حسب المستويات المادية: ٤٨ درهماً، و٢٤، و١٢، مع شيء من القمح والزيت والخل(١) عن كل رأس. وأنِفت تغلب من أداء الجزية فأضعف عليهم عمر الزكاة أي ألزمهم بأداء ضعف ما على المسلمين، واشترط عليهم أن لا ينصّروا أولادهم. وكان عمر على علم من الروابط الوثيقة التي ظلت تربط تغلب بالبيزنطيين، وقد نصّروا أبناءهم بعده حتى هم علي أن يحاربهم وكان يبغضهم.

ويفرق عادة بين الذهب والفضة في قيمة الجزية. فعندما وضعت الجزية في عهد عمر على أهل الشام، انتهت إلى أربعة دنانير على الذهب وأربعين درهماً على الفضة، مع تخفيفها على المتوسطين ثم الفقراء كما تقدم. وإلى جانب هذه المبالغ النقدية هناك مقادير معينة من المواد الغذائية الأساسية بالمنطقة كالحنطة والزيت والعسل(٣).

وبلغ خمس جباية افريقية خمسمائة ألف دينار تنازل عنها عثمان لمروان بن الحكم فأثار بذلك غضب الجماهير(٤). وقيل إن سهم الفارس في غنائم سبيطلة وحدها كان ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً(٥).

وكانت جزية الأنبار بالعراق بعد فتحها أيام عمر أربعمائه ألف درهم وألف عباة (سنوياً)(٦). وحسب المقدسي فقد بلغ مجموع جباية الخزينة الفارسية كما سجلت بعد وقعة نهاوند سنة ٢١ هـ في عهد

---

(١) ن.م. ص ٢٤٣ ــ ٢٤٥.
(٢) ن.م. ص ٢٤٩ ــ ٢٥٢.
(٣) ن.م. ص ١٧٠ ــ ١٧١.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٣/٤٦.
(٥) ابن خلدون: ٢/١٠٠٥.
(٦) البلاذري: ص ٣٤٤.

يزدجرد آخر أباطرة الساسانيين سبعة ملايين درهم[1]. وهو مبلغ على أهميته لا يمثل إلا جزءاً من موارد الدولة الساسانية كما كانت في إبان عظمتها. وأدت الحيرة وحدها بعد فتحها على يد خالد بن الوليد ١٩٠ ألف درهم أو ٢٩٠ ألف درهم على أحد القولين[2]. وأهدى سكان الحيرة هدايا، فأدخلها أبو بكر في الجزية. وتطلبت جباية خراج المراكز المفتوحة بالعراق حتى فتح الحيرة مدة خمسين يوماً[3]. وبالإضافة إلى استيلاء العرب على جباية يزدجرد المذكورة، وجزية الحيرة، حصلوا على أموال ضخمة من أراضي السواد وغيرها من أرض العراق[4].

وبلغت جزية الإسكندرية في العهد الراشدي ثمانية عشر ألف دينار، ثم قفز المبلغ إلى الضعف أيام هشام بن عبد الملك[5].

وكانت جزية أهل مصر في العصر الراشدي دينارين لكل بالغ غير فقير. وألزم ملاك الأراضي إلى ذلك بمقادير من المواد الغذائية عن كل رأس[6]:

١ ــ ثلاثة أرادب حنطة
٢ ــ قسطي زيت
٣ ــ قسطي عسل
٤ ــ قسطي خل

---

(١) المقدسي: البدء ١٨٢/٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٦٧/٢.
(٣) ن. م. ص ٢٦٨؛ ابن خلدون: ٨٩٣/٢.
(٤) ابن خلدون: ٨٩٢/٢. وانظر بالنسبة لبعض الجهات الأخرى من إمبراطورية الساسانية: البلاذري: ص ٥٥٥ وما بعدها.
(٥) البلاذري: فتوح ص ٣١٣.
(٦) م. س. ص ٣٠١.

ثم عوضت المواد الغذائية بمبالغ نقدية، فصارت الجزية أربعة دنانير[1]. وهكذا ارتفع خراج مصر من مليونين من الدنانير في عهد عمر إلى أربعة ملايين أيام عثمان[2]. وأخرج النساء والصبيان من الجزية. غير أن اليعقوبي الجغرافي يقدم أرقاماً عالية، حيث يذكر أن جباية الجزية في السنة الأولى بلغت ١٤ مليون دينار وفي الثانية عشرة ملايين، وكلتا الجبايتين على يد عمرو بن العاص في عهد ابن الخطاب. واتهم الخليفة عامل مصر بالخيانة بعد نزول المبلغ إلى عشرة ملايين[3]. ثم صارت بعد ذلك الى التناقص خلافاً للرواية السابقة. وهناك مبالغ عالية جداً عن جباية مصر الفرعونية حسب المقريزي[4]. ويحسن الرجوع إليها للمقارنة إن ثبتت. على أن الجباية المذكورة في عهد عمر وعثمان خاصّةٌ بالجزية، أما الخراج فغير ذلك.

وعلى العموم فقد بلغ دخل الخزينة الإسلامية أقصى حده في عهد عثمان، إذْ «أتاه المال من كل وجه، حتى اتخذ الخزائن وزاد الأرزاق»، كما يقول مؤرخ متأخر[5].

وقد ظل التشريع الإسلامي متردداً في هذه الحقبة بشأن استخلاص العشور والزكوات عن عدد من المنتجات التي من شأنها تنمية دخل الخزينة. ومما لم يقع عليه اتفاق، العسل والورد والحناء

---

(١) ن.م. ص ٣٠٤.

(٢) ن.م. ص ٣٠٣ و٣٠٦.

(٣) اليعقوبي: البلدان ص٩٣. وانظر المقريزي: خطط ١/١٤١ـ١٤٢ و١٧٦.

(٤) المقريزي: خطط ١/١٣٤.

(٥) ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٧.

والعنب والقطن. ويبدأ الخلاف بشأنها في صدر الإسلام ثم يتفرع ويتشعب بعده[1].

وبالنسبة للسلع التجارية، فقد وجّه عمر تعليماته إلى عامل البصرة بأن يؤخذ من كل تاجر مسلم يمر بالبصرة خمسة دراهم عن كل مائتين (أي ٢,٥٠ في المائة) ومن أهل الكتاب درهم عن كل عشرين (أي خمسة بالمائة) ومن تجار الحرب درهم عن كل عشرة (أي ١٠ بالمائة)[2]. وقيل إن أشخاصاً قدموا على عمر من الشام فذكروا أنهم غنموا دواب وأموالاً وطلبوا أن يستخلص عنها الزكاة. فاستشار علياً فأجازه، وأخذ عمر عن العبد عشرة دراهم وكذا عن الفرس، وثمانية عن الهجين، وخمسة عن البغل والبرذون[3].

ونستنتج من هذا العرض عن الموارد الأساسية في صدر الإسلام:

١ ــ أن مبدأ توحيد الضرائب قد احترم في الإسلام.

٢ ــ أن الجزية والخراج لم يكونا في جل الحالات مما يثقل كاهل المستحق عليهم.

٣ ــ أن الفقراء والصبيان والنساء يمكن إعفاؤهم.

٤ ــ أن التحملات الجماعية في القرى والمدن في سبيل صيانة وتأمين المرافق العامة محدودة.

٥ ــ أن هناك عدداً من المنتجات والموارد والخدمات ترك

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٧٦ ــ ١٠٠.

(٢) المقريزي: خطط ١/ ١٨٤.

(٣) المقريزي: خطط ١/ ١٨٤.

حكمها لآراء الفقهاء حسب البيئات الجغرافية وطريقة الاستغلال وتبعاً لتفسيرات الفقهاء للسنة وأعمال السلف.

ومن المؤكد أن الأقطار المفتوحة أصبحت تؤدي أقل بكثير مما كانت تؤديه في عهد الأنظمة السابقة التي تسلم العرب منها مقاليد الحكم. وقد كان خراج مصر الفرعونية على سبيل المثال أضعاف ما كان في عهد الروم. وكان الإغريق يخففون الضرائب عن الأغنياء ويرهقون الطبقات المتوسطة والفقيرة(١).

الإقطاعات وقضايا الأرض

إقطاع الأرض أو تفويتها عملية قديمة في تاريخ الشعوب الزراعية. وأصله أن يستفيد منه المحاربون في الأراضي المفتوحة أو الخواص الذين لهم حظوة لدى الحكام. وقد قسم الإقطاع إلى نوعين، إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال(٢):

١ ــ الأرض المملكة بالاقطاع إما موات أو عامر أو معدن. والموات يملك بقصد الإحياء والتعمير، حسب نظر الدولة، والعامر الذي له مالك فهو حقه على أن يؤدي حق بيت المال ما لم يكن في بلد مفتوح عسكرياً وليس ملكاً للمسلمين فيجوز للحاكم إقطاعه تمليكاً، أما إذا لم يتعين مالكه فيصبح ملكاً عمومياً للمجتمع الاسلامي ويكون استغلاله بمراقبة الدولة ولصالح بيت المال.

٢ ــ إقطاع الاستغلال، والجيش من المرتزقة (النظاميون) هم

---

(١) Cavaignac, Histoire de l'Antiquité, II, 202.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/ ١١٣ ــ ١١٥.

أحق به. وأصح الإقطاع ما كان لسنين معلومة على قدر معلوم. ويبطل الإقطاع والخراج عنه بالنسبة لما بقي من مدة بعد موت المستفيد وتعود الاستفادة لبيت المال. وهناك اختلاف في الإقطاع لمدى الحياة من حيث جوازه. أما توارثه فلا يصح لأنه أشبه بالملك، ويعتبر العقد من هذا النوع فاسداً. ولا يصح إقطاع الأرض التي يُؤَدَّى عن أصنافها العشر، إذ يصبح زكاة أصناف.

٣ ــ المعدن على حسب أهميته لمصلحة الجماعة. وقد رفض الرسول (ص) أن يقطع شخصاً معدن ملح أظهر الرغبة في استغلاله. وأجاب الرسول عن الطلب قائلاً: إنه كالماء العذب[١]، ومعنى هذا أنه ضروري للاستغلال العمومي وللحاجات البشرية. وبالمقابل أقطع الرسول بعض الصحابة معادن أخرى[٢].

وقد تعززت موارد المجتمع الإسلامي في العهد النبوي بالأراضي التي تم الاستيلاء عليها عنوة من اليهود الذين حاربوا النبي، وبعض القبائل العربية التي رفضت الإسلام والجزية. وهكذا استفاد المجاهدون والمؤلفة قلوبهم من الاقطاعات التي تنازل لهم الرسول عنها إما تقديراً لكفاحهم أو ضماناً لإخلاصهم للإسلام. وكان الأمر هكذا في الشعوب القديمة. ولا يزال لقدماء المحاربين حتى الآن امتيازات يختصون بها. وممن استفادوا من إقطاعات أراضي بني النضير في العهد النبوي الزبير بن العوام الذي حصل على واحة تنتج كميات من التمر[٣].

---

(١) البلاذري: ص ٩٩.

(٢) ن.م. ص ٢١ ــ ٢٢.

(٣) ن.م. ص ٣١.

وأقطع الرسول أحد المسلمين في اليمامة أرضاً مواتاً[1]. ومعلوم أن الإقطاع يتم باقرار كتابي[2]، وقد أقرّ الراشدون ماسنه الرسول (ص) في هذا الباب.

وكان في وفد طيّىء الى النبي (ص) لاعتناق الإسلام عدد من الشخصيات العربية المرموقة كزيد الخيل الذي أقطعه الرسول أرضاً وبئراً معها[3].

واستفاد الزبير مرة أخرى من الإقطاع الزراعي في عهد عمر الذي أقطعه مجموع العقيق وهو تربة خصبة[4]. على أن عمر كان يتحرى في قضية الإقطاع توقعاً لما قد يثيره من مشكلات خصوصاً إقطاع التمليك. فعندما هم بتوزيع أراضي الجابية التي فتحت عنوة، أثار معاذ بن جبل انتباهه إلى أن الملكية قد تؤول في النهاية لشخص واحد أو لأشخاص قلائل فلا يجد من بعدهم شيئاً يعيشون منه، فجعلها مؤممة[5]. وفعل مثل ذلك بالسواد التي هي أخصب مناطق العراق، فكانت كما قيل: «لا تُشترى، ولا تباع، ولم تقسم، فهي لجميع المسلمين[6]»، وقد ترك بها أهلها كذميين يؤدون ما استحق عليهم لبيت المال[7]. وكانت الصوافي بين حلون والعراق فيئاً، أربعة أخماسه خُصِّصَ للجند وحبس عليهم ولهم تعيين من ينسق شؤونها

---

(١) ن.م. ص ١١٩.
(٢) ن.م. ص ١٢٦.
(٣) ابن خلدون: ٢/٨٣٩.
(٤) البلاذري: ص ٢١.
(٥) ن.م. ص ٢٠٧.
(٦) م.س. ص ٣٧١. وانظر مساحة السواد وخراجه في ص ٣٧٥.
(٧) ن.م. ص ٥٤١.

بالتراضي[1]. ومنع بيع الأراضي الواقعة بين حلوان والقادسية أي مجموع السواد، واشترى أحد المسؤولين أرضاً على شاطىء الفرات فرد عمر الشراء[2].

وحسب بعض الروايات، فإن عثمان أول من أقطع بأرض العراق[3]. وعلى كل، فإن عملية الإقطاع تطورت بعد الراشدين، وانتهت في طور التخلف الإسلامي إلى إقطاع الأمكاس والأسواق والقرى وما إلى ذلك.

وكان إقرار الخراج يتم بعد مسح الأرض وإسقاط ما لا يغل كالمياه والأراضي الصخرية والطرق[4]. ويُقَيَّن مُتَوَلٍ خاص بشؤون الري. وعلى سبيل المثال عين عمر حذيفة بن اليمان على سقي الفرات، وعثمان بن حنيف على سقي أراضي دجلة[5]. وحرص عمر على الاستفادة من خبرة الفلاحين من الفرس فمنع استرقاقهم إذا تراجعوا إلى أراضيهم، بل وحتى لو لجأوا إلى جهة أخرى ثم وقعوا في يد الفاتحين فيعاملون كذميين[6]. ويفسر هذا التسامح بوضوح تأخر انتشار الإسلام على نطاق واسع بفارس ومصر، فباستثناء الاسكندرية والفسطاط لم يكن يوجد بمصر إلى ما بعد جيل الصحابة والتابعين سوى النصارى من القبط إلا ما ندر[7].

---

(١) الطبري: ٤/ ١٨٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/ ٣٦٤.
(٣) البلاذري: فتوح ٣٨٢.
(٤) انظر بعض ما يتعلق بعمليات المسح عند الكتاني، التراتيب ١/ ٣٩٤؛ والبلاذري: ص ٤٨٢.
(٥) ابن خلدون: ٢/ ٩٤٠.
(٦) الطبري: ٤/ ١٨٣.
(٧) المقريزي: خطط ٣/ ٢١١.

ومنذ وقت مبكر من الإسلام أثيرت قضايا ومشكلات كثيرة تتعلق باستغلال الأراضي وسقيها وتقسيم غلاتها. وكان الرسول (ص) يبتّ فيما يعرض عليه منها فيغني بذلك التشريع الزراعي وتصبح أحكامه أصولاً لما سيقع من اجتهادات وأحكام قضائية وفتاوى فقهية بعده. وعلى سبيل المثال وضعت بين يديه قضية استغلال أحد سيول المدينة. والسيل هو الوادي الذي لا يجري بانتظام، ويرتفع ماؤه أيام المطر. واسم هذا السيل «مهزوز». ولما كان يمر على أراض ينحدر بانحدارها فقد وقع النزاع بشأن طريقة السقي، حتى قرر الرسول أن يحبس الأعلى عن الأسفل حتى يبلغ الماء الكعبين، ثم يرسله إلى الذي يليه [١].

وفي باب التعسف في استعمال الحق، كان لسمرة بن جندب، وهو من مشاهير رواة الحديث النبوي، نخل في حائط رجل من الأنصار، فكان سمرة يدخل أرض الرجل وهو بين أسرته، فيتضايق من ذلك، فطلب من سمرة أن يبيعه النخل المذكور، فرفض ثم رفع قضيته إلى الرسول (ص)، فطلب من سمرة أن يتنازل عن النخل بيعاً، فأبى، فأمر الأنصاري بقطع النخل [٢].

وشهد العصر الراشدي أعظم عملية لتوسيع شبكة النقل بالمياه. وذلك أن الحجاز تأثر من مجاعة عام الرمادة في عهد عمر، فاستشار عمرو بن العاص في فتح مجرى مائي من النيل قرب الفسطاط إلى البحر الأحمر حيث يمكن أن تمد مصر الحجاز بالمواد الغذائية الكافية وفي ظروف ميسرة بعد أن كانت القوافل تجتاز براً في طريق طويل

---

(١) البلاذري: فتوح ص ١٧. ابن فرج: أقضية رسول الله، ص ٩٠.
(٢) ابن فرج· م.س. ص ٩١.

وصعب. وأعطى الخليفة لعامله سنة واحدة لإنجاز هذا العمل. وبعد تَلَكُّؤ من الخبراء الأقباط الذين خشوا من نقص المواد الاستهلاكية نفذوا المشروع المذكور الذي أتى أكله، واستمر هذا الطريق المائي إلى عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ثم تلاشى بعد أن تراكمت رماله الرسوبية. وقيل إن الخليج كان موجوداً في الأصل قبل الفتح الإسلامي وطمر فأعاد عمرو بن العاص فتحه بأمر عمر، أو بإشارة من عمرو[1].

وإذا كانت مصر غنية بنيلها والعراق والشام بفراتها ودجلتها، فإن الجزء الأكبر من شبه جزيرة العرب كان يعتمد على الآبار وبعض المياه الراكدة القليلة. وقد تحدث بعض الجغرافيين عن الأماكن التي توجد بها هذه الآبار، وتكون عادة في المحاور التجارية وطرق القوافل؛ وتستخدم للشرب والسقي معاً[2]. وكلما اتجه المار جنوباً نحو اليمن، وجد عيوناً كثيرة تغذيها الثلوج التي تتساقط على الجبال. فضلاً عن الأمطار الموسمية[3].

التجــارة

أهم وسيلة لعقد الصفقات التجارية وتبادل البضائع هي الأسواق الأسبوعية والموسمية التي كانت عصب الحياة الاقتصادية لدى الشعوب القديمة، والتي ظلت كذلك حتى يومنا هذا في بلاد كثيرة لا سيما بالبوادي.

---

(١) المقريزي: خطط ٣/٢٨ ـ ٣١.
(٢) انظر مثلاً: ابن خرداذبة: المسالك، ص ١٢٩ ـ ١٣٤.
(٣) ن.م. ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

وقد اشتهرت شبه جزيرة العرب من قديم بسوقها السنوي عكاظ الذي يقام في واحة كانت تحمل اسمه، وموقعها قريب من الطائف. وكان السوق يعقد في شوال. ويعد أكبر الأسواق الوطنية في بلاد العرب، ويفد إليه قاصدوه من العراق والشام فضلاً عن سكان شبه الجزيرة(١)، وكان مناسبة لعقد الصلات الاجتماعية وتنظيم بعض التجمعات السياسية. وقد تتفق فيه بعض القبائل أو العناصر على أعمال عدوانية أو دفاعية تجاه أطراف أخرى. وهو إلى ذلك، سوق أدبي، يتفاخر فيه الشعراء ويقدمون الجديد من إنتاجهم. وكانوا ينتقلون من عكاظ إلى المجنّة(٢) فيقضون به عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم ينتقلون إلى ذي المجاز الذي يظل مفتوحاً أيام الحج(٣) من أول ذي الحجة إلى الثامن منه؛ والمجنة بأسفل مكة على أميال منها. أما ذو المجاز، فسوق بعرفة على ناحية كبكب، كما يقول ياقوت(٤).

وقد طاف الرسول عليه السلام بكل هذه الأسواق قبل الهجرة «يتبع القبائل في رحالها ويغشاها في أنديتها، يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلغ رسالة ربه(٥)».

وكانت هناك عدة أسواق أخرى موسمية تنعقد بالتعاقب في جهات بلاد العرب، فتظل الحركة التجارية على النطاق الوطني في نشاط دؤوب، ولا يستأثر اقليم دون آخر بهذا النشاط، وجلها استمر في أداء مهمته مدة طويلة بعد الإسلام.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، مادة «عكاظ».

(٢) م.س.

(٣) ن.م. مادة «مجنة».

(٤) ن.م. مادة «مجاز».

(٥) المقدسي: البدء ٥/١٦٥.

وكان التمر من أهم منتجات شبه الجزيرة. ومن مراكز إنتاجه اليمامة والمدينة والطائف التي تميزت بإنتاج الزبيب أيضاً، وخيبر وتيماء ونجران وجرش وعُمَان. ويعد التمر وهو أنواع، مع المواشي والمنتجات الزراعية والجلود والمنسوجات والأسلحة من أهم المواد التي يتم تبادلها في الأسواق العربية وبالطبع، فإن منتجات البلاد المجاورة تسد النقص الموجود في إنتاج شبه الجزيرة. وكان تجار قريش واليمن من أنشط العناصر العربية في مجال التبادل. والفضة من أهم السلع التي تدخل في تجارة قريش خاصة(١). وهذا ما يفسر هيمنتها الاقتصادية بمنطقة الحجاز لفترة هامة من صدر الإسلام، كما يفسر التحركات الثورية التي شهدتها مناطق الشمال الشرقي في صدر الإسلام وبعده أيضاً.

وبين صحابة الرسول كثيرون اشتهروا في ميدان التجارة كالزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وأبي بكر الصديق، وعبد الرحمن بن عوف(٢).

وقد تناول الجغرافيون القدامى طرق التجارة سواء منها الداخلية التي تربط شبه الجزيرة فيما بينها، أو التي تربطها بالأقطار المجاورة. وجل الطرق الداخلية لم يدخل عليه تغيير عبر القرون. وكانت الطرق المسلوكة تتخللها آبار أو مواقع مائية، كما تمر عبر القرى والمراكز المسكونة(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/١٠١.
(٢) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٦٤.
(٣) انظر خصوصاً، ابن خرداذبة: المسالك، ص ١٢٥ ـ ١٥٣؛ والاصطخري: المسالك، ص ٢١ ـ ٢٨.

وتميز السواد بإنتاج الحنطة والشعير بمقادير غزيرة. وكان بالعراق أيضاً نخل يعطي تمراً وافياً، غير أن العرب أكثروا من غرس النخيل بعد فتحهم لهذه البلاد، خصوصاً بمنطقة البصرة. وتميزت فلسطين بفواكهها وزيتونها وكرومها. وكل الأقطار التي فتحها العرب لا تخلو من زروع وفواكه. غير أن مصر تدر حسب مبالغ خراجها أهم المقادير الزراعية.

ومن أهم الموانىء: جدة التي ظلت مركزاً تجارياً هاماً عبر القرون، وصُحار مركز عمان شرقي جزيرة العرب، وعدن جنوب اليمن، والبصرة والاسكندرية وطرابلس. ويتوفر خليج عدن على أحجار اللؤلؤ[1] ويقوم بدور كبير في تجارة العطور كالعنبر والعود والمسك والبضائع القادمة والمارة إلى السند والهند والصين والصومال والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلزم[2]. وقد اتسع نشاط التجارة في حوض البحر الأحمر بعد فتح مصر. وأهم مراكز المنسوجات بفارس ومصر والشام، كما تصدر منها الأسلحة إلى العاصمة. وإذا كانت حركة النقل عبر الأنهار الكبرى نشيطة كما هو الشأن في نهر الفرات ودجلة والنيل، فضلاً عن الحركة التجارية عبر خليج البصرة وفي موانىء الشام، فإن الحركة التجارية عن طريق القوافل البرية كانت أوسع نطاقاً في هذا العهد. وتعطي كتب المسالك والممالك نظرة كافية عن حركة التبادل بين مختلف المراكز التي تساهم في العمليات التجارية إما بالترويج أو كمحطات استراحة، وهي مراكز لم تتغير أسماؤها في الغالب عبر القرون.

---

(١) الاصطخري: المسالك، ص ٢٦.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٦١.

وإذا كان الخراج والجزية أهم موارد الخزينة الإسلامية في العصر الراشدي فإن حركة التبادل التجاري قد أسهمت بدورها في تنمية هذه الموارد. ويظهر أن نظام المكس الذي عرفه عرب الجاهلية(١)، والذي يمثل ضريبة عن بيع السلع في الأسواق قد ظل العمل به جارياً أو تم إحياؤه على الأقل في عهد عمر(٢)، حيث كان يلزم الأقباط بأداء نصف العشر (٥ في المائة) عن الحنطة والزبيب والعشر عن القطنية. وقد عمت حركة التعشير العراق والشام وغيرهما، كما شملت المسلمين وغيرهم(٣)، لأنها تمثل دخلاً عن العمليات التجارية وإن كان فيها تمييز بين المسلمين وأهل الذمة لا يتضح له مبرر ما لم يكن في ذلك تشجيع لأهل الذمة على الاسلام. وكان هناك جباة مخصصون للمكس(٤).

وقد وضع الإسلام حداً للربا الذي عرفته بلاد العرب في الجاهلية مثلما كان معروفاً عند شعوب سامية أخرى ولدى الرومان والبيزنطيين. وتعاليم الإسلام متشددة في قضية الربا وقد كان اليهود على الخصوص يتخذونه طريقاً للتعامل التجاري.

النقود وبيت المال

كان التعامل قبل الإسلام في جزيرة العرب بالنقود الفارسية والبيزنطية، غير أنهم كانوا يتعاملون بها لا عدّاً بل وزناً. وكل أوقية تعد أربعين درهماً. وكل سبعة مثاقيل تعد عشرة دراهم. والدرهم

(١) المقريزي: خطط ١٢/٣.
(٢) ن.م. ص ١٣.
(٣) ن.م. ص ١٤.
(٤) ن.م. ص ١٥.

الواحد أربعة عشر قيراطاً[1]. بل إن العباد أهل الحيرة كانوا يتعاملون بالنقود وزناً كعرب مكة[2]. وقد أقر الرسول والراشدون الأوزان المذكورة. وليس هناك أي دليل أثري ولا تاريخي على أن الإسلام استحدث سكة جديدة حتى وفاة عمر على الأقل[3]، وإن كان الشائع أن أول سكة إسلامية معروفة إنما أحدثها عبد الملك بن مروان، على أن بعض المراجع المتأخرة ذكرت أن عمر أنشأ سكة عليها نقوش واشكال فارسية، وفي بعضها ألفاظ عربية، كالحمد لله ومحمد رسول الله[4]، وكتب اسمه عليها، وأن عثمان أحدث دراهم نقش عليها الله أكبر ثم نسبت دنانير إلى معاوية ودراهم إلى عبد الله بن الزبير.

وعلى كل، فنسبة السبق في إحداث السكة الإسلامية إلى عثمان وعلي أكثر وأقرب إلى الوتوق منها إلى عمر. فقد ذكر أن نقوداً باسم عثمان ضربت بقصبة هرتك بطبرستان سنة ٢٨ هـ، وعليها بالخط الكوفي: بسم الله ربي. ونسبت دراهم إلى علي عليها نقوش غير هذه من سنة ٣٧ إلى ٤٠، وأكد الشيخ عبد الحي الكتاني أنه شهد بتركيا سكة فضية عربية ضربت بالبصرة سنة ٤٠، ونقل ما عليها من نقوش[6]. بل ذكر الكتاني أن بمكتبته قطعة فضية من عهد علي[7]. ومن الواجب أن يعرف ما آلت إليه هذه القطعة وغيرها من مخلفات الكتاني التي لا تقدر بثمن.

---

(١) البلاذري: فتوح، ص ٦٥١ ــ ٦٥٤.
(٢) ن.م. ص ٦٥٥.
(٣) الكتاني: التراتيب ٤١٧/١.
(٤) ن.م. ص ٤١٩.
(٥) ن.م. ص ٤٢٠.
(٦) ن.م. ص ٤٢١.
(٧) ن.م. ص ٤٢٢.

وقد أنشىء بيت المال كأول مؤسسة إسلامية مستقلة في عهد النبي عليه السلام لإيداع الأموال العينية والنقدية. وكان أبو عبيدة بن الجراح أول من تولى أمانة بيت المال في عهد الرسول ثم زاولها في عهد أبي بكر قبل توجهه إلى الشام(١) للقيام بإدارة العمليات العسكرية ضمن القادة العاملين بإشراف خالد. أما عمر فقد عين على رأس بيت المال عبد الله بن أرقم الذي استمر في مسؤوليته هذه إلى خلافة عثمان وفي عهده تولاه زيد بن ثابت أيضاً(٢).

ومن أمناء بيت المال بالأقاليم عبد الله بن مسعود بالكوفة (٣) أيام عمر، وخالد بن الحارث بأصبهان أيام عمر أيضاً(٤).

واتخذ أبو بكر بيت المال في داره محافظة عليه، ولكنه في الواقع لا يترك به مدخرات حيث كان غالباً ما يقسم على الفور ما يرد عليه من أموال(٥)، ولذلك كان بيت المال حتى هذا العهد مجرد مخزن مؤقت. وبالمقابل، فقد تكاثرت أموال الخراج في عهد عثمان حتى استكثر من الخزائن وزاد في العطاء.

وإذا كان الخليفة يتقاضى راتبه من بيت المال طبقاً لقرار جماعي من الصحابة المعنيين فإنه يجوز له أن يقترض إذا أثبت حاجته إلى المال مثلما يجوز ذلك لغيره. وهكذا كان يقترض عمر من بيت المال فيتقاضاه الأمين بعد ذلك، ولكن يرد دينه من أجرته(٦). واستقرضت

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٥/٨.
(٢) ن.م. ص ٢٤ و٣٤؛ والكامل ٣/٩٨.
(٣) ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٧.
(٤) البلاذري: فتوح، ٥٤٣.
(٥) ابن الأثير الكامل ٢/٢٩٠.
(٦) ن.م. ج ٣/٣١.

هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من بيت المال للقيام بعمليات تجارية بالشام والمدينة ولكنها عجزت عن إيفاء دينها للخزينة، وشكت حالها لعمر، فقال: لو كان مالي لتركته لك، ولكنه مال المسلمين. فحبس عمر زوجها أبا سفيان حتى وفت دينها(١). وكان أبو بكر قد اقترض من بيت المال، فلما حضرته الوفاة أوصى عائشة بقضاء دينه(٢). وحينما كان سعد بن أبي وقاص عاملاً بالكوفة اقترض من بيت المال مبلغاً كبيراً فتقاضاه عبد الله بن مسعود أمين بيت المال وألح عليه حتى أحدث ذلك شغباً في الأوساط الكوفية، وانتهى الأمر بعزل سعد، وكان ذلك في عهد عثمان(٣).

تقسيم العطاء

طبق في صدر الإسلام نظام إعادة توزيع الثروة بشكل غير معهود في أنظمة المجتمعات السابقة. والمبدأ الأساسي أن كل عائدات بيت المال هي حق للمسلمين جميعاً، وهذا الحق يقع توزيعه بصور متفاوتة ولكنها تخضع للشريعة:

١ ــ الزكوات تصرف في عين المكان بعد أخذها ممن استحقت عليهم في عين المكان أيضاً. وقد ترد جهة على أخرى بحسب الحاجة والوفرة.

٢ ــ الغنائم التي تؤخذ بحرب توزع على المحاربين، باستثناء خمس يدخل لبيت المال ويصرف بحسب نظر السلطة المركزية والاستحقاق.

---

(١) ن.م. ص ٣٣.

(٢) العقد الفريد ٥/٢٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣/٤٢؛ ابن حلدون: ٢/٩٩٩.

٣ ــ أموال الخراج والجزية والأعشار يخصص للمرافق العامة والرواتب والتجهيز والتيسير قسط معين باتفاق مع الخليفة في كل إقليم، والباقي يرد لبيت المال حيث يستفيد منه المسلمون جميعاً حسب توزيع يختلف باختلاف الخلفاء والتزامهم للعدل كل من وجهة نظره التشريعية وأحياناً الشخصية (عثمان). وبالطبع يحتفظ بما يكفي للمصالح العامة كالتسليح وكراء السفن لنقل التموين وما إلى ذلك.

ويتضح من هذا أن هناك توازناً أقرب ما يكون إلى الدقة بين الفئات الاجتماعية من حيث توزيع الثروة بين المحاربين وغيرهم، وكل هذا بالإضافة إلى الاقطاعات التي استفاد منها في الغالب أشخاص قاموا بأعمال جليلة لصالح الإسلام وليس لصالح الدولة أو الخواص، وهناك استثناءات تشريفية أحياناً، ولكنها محدودة. وعلى العموم فقد كان الاقطاع تستفيد منه مجموعات سكانية في نفس الوقت فيما عدا الاقطاعات الفردية التي سبق الحديث عنها.

وكانت الزكوات وسائر الأموال العمومية تسجل بدقة قبل إعادة توزيعها، ومن حرص عمر على الضبط في هذا المجال أنه كان يشرف بنفسه في المدينة على عد المواشي وتسجيل ألوانها ووصف أسنانها، أي أنه كان يسجل حالتها المدنية بتفصيل دفعاً لكل تدليس لاحق[1]. ويتم وسم أموال الزكاة من المواشي جميعاً بميسم خاص لنفس السبب وضبطاً للإحصاء[2]. وقد جرى هذا العمل منذ العهد النبوي[3].

ويتم توزيع الصدقة (الزكاة) أو العطاء حسب الظروف:

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٢٩.

(٢) ابن خلدون: ٢/ ٨٦٢.

(٣) الكتاني: التراتيب ١/ ٤٤٠.

مسجد، سوق، رحبة، الخ... وتحدث البلاذري عن وجود دار آلرزق (أي العطاء) بمصر، وبها يتم تجميع المواد الغذائية وغيرها مما ألزم به من وضعت عليهم الجزية(1).

وكان أبو بكر يسوي بين الجميع في العطاء، واقتدى به علي في خلافته(2).

أما عمر فيفضل السابقين إلى الإسلام أي المهاجرين. وكانت مخصصات المستفيدين في عهده كما يلي(3):

١ ــ غزاة بدر من المهاجرين: خمسة آلاف درهم.

٢ ــ غزاة بدر من الأنصار: أربعة آلاف درهم.

٣ ــ المهاجرون قبل الفتح: ثلاثة آلاف.

٤ ــ المهاجرون بعد الفتح: ألفان.

٥ ــ أهل اليمن وقيس: من ثلثمائة إلى ألفين لكل رجل.

٦ ــ المولود في كل أسرة: مائة درهم، ثم مائتين بعد سنوات من ولادته، ثم مبلغاً أكبر إذا بلغ. ومعنى هذا أن رب العائلة كانت له تعويضات عن أبنائه، وأن بيت المال يتحمل نفقة الأطفال اليتامى في كل حال. وهناك مخصصات لأبناء المهاجرين والأنصار. وهناك من جهة أخرى بالنسبة لغير المهاجرين والأنصار، اعتبار الوضعية

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٠١. وذكر الطبري: ١٧٧/٥ ــ ١٧٩ دار الرزق على مشارف البصرة بالزابوقة.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٠٨/١٣ ــ ١٠٩.

(٣) م.س. ص ١٠٩.

الاجتماعية وحفظ القرآن والجهاد بالشام والعراق. وقد اعتبرت هذه الشروط خاصة عند انقراض أهل السوابق(١).

وكانت المبالغ المذكورة كلها سنوية، وكان للمملوكين حق الاستفادة من العطاء، وقد كان الذين حضروا منهم بدراً يتقاضون ثلاثة آلاف درهم(٢). وخصص لنساء النبي (ص) عطاء أوفى من عطاء سائر المسلمين(٣)، وبينهن أيضاً تفاضل حيث كان فيهن سبايا كجويرية وصفية وعطاؤهما نصف عطاء الأخريات ولكن عدل عن هذا التقسيم إلى التسوية بينهن. ويبدو مع هذا أن المبالغ السابق ذكرها كانت الحد الأعلى المشترك، أو أنها جاءت كمرحلة ثانية بعد تكاثر الأموال، حيث كانت مخصصات أسامة ألفين وخمسمائة ومخصصات عبد الله بن عمر ألفاً وخمسمائة مما جعله يشكو لوالده الخليفة نقص عطائه، في الوقت الذي خول لبعض كبار الصحابة كالعباس وعلي، عطاء كبير القيمة(٤).

وكانت هناك أيضاً مخصصات معينة من المواد الغذائية شهرياً يستفيد منها الرقيق أيضاً(٥). ومتى وصل وقت العطاء ثم توفي صاحبه ترك لورثته(٦).

---

(١) م.س. ص ١١٠.

(٢) بلاذري: ٦٤٤.

(٣) ن.م. ص ٦٣٨.

(٤) ن.م. ص ٦٤٠؛ والمقدسي: البدء ١٦٨/٥. وانظر تقسيمًا دقيقاً للعطاء أوفى وأكثر تفصيلاً مما سبق، في الكامل، لابن الأثير: ٣٥٠/٢؛ وهو لا يتناقض في مبادئه مع ما تقدم.

(٥) ن.م. ص ٦٤.

(٦) ن.م. ص ٦٤٥.

وبقي تنظيم العطاء كما تركه عمر من حيث الشكل، معمولاً به بعده حتى العصر الأموي حيث أحدثت تجاوزات وتغييرات[١]. على أن عثمان زاد في العطاء بسبب تكاثر الدخل[٢]، وظل يعمل بمبدأ تقسيم عمر بالرغم من أن الخليفة عمر كان قد قرّر العودة الى المساواة في العطاء مع رفع مبالغه[٣]، ولكن المنية أعجلته.

وكان أفراد الجيش صغاراً وكباراً يتوصلون بمبالغ العطاء عن طريق السلّم القيادي: من أمراء الأسباع وأصحاب الرايات إلى العرفاء والنقباء والأمناء، ومن هؤلاء إلى أسر الجيش في مساكنهم بوصفهم حاميات قارة[٤]. وإلى ذلك فإن المحاربين في الميدان يستفيدون من الغنائم والأنفال. وقد أصاب كلاً من فرسان العرب اثنا عشر ألف درهم في المدائن، وكان عددهم فيها قيل ستين ألفاً[٥] !

إن هذه الموارد الوافرة التي حصل عليها العرب لم تمنعهم من القيام بعمليات التعمير والإسهام في النشاط الاقتصادي ومواصلة نشر الإسلام، ولم يبدأ دورهم يتقلص إلا بعد أن احتضن العباسيون العنصر الفارسي ثم التركي لينعزل العرب عن الميادين القيادية دون أن يتخلوا عن ممارسة حقهم في المعرفة والفكر أخذاً وعطاء.

وقد كان أهم عناصر التنظيم الراشدي في الميادين المالية والاقتصادية هو المحافظة على توازن الفئات الاجتماعية سواء من حيث

---

(١) ن.م. ص ٦٤٣.
(٢) الطبري: ٥/٤٥.
(٣) البلاذري: فتوح، ص ٦٣٣.
(٤) الطبري: ٤/١٩٤.
(٥) ن.م. ص ١٧٧؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٣٥٨ وما بعدها.

أداء التزاماتها أو من حيث استفادتها من توزيع الثروات. وواصل التقنيون والفلاحون في البلاد المفتوحة نشاطهم دون أن يحرموا من حقوقهم في حالة عقد صلح. كما أن الإداريين بقوا يمارسون أعمال الادارة بمراقبة العرب وإسهامهم مع إشرافهم المباشر على الشؤون المالية. وظلت العملة الفارسية والبيزنطية تمثل في هذه المرحلة الانتقالية أهم نقد للتداول والتبادل، مع مراقبتها من حيث الوزن والمادة، تلافياً لزعزعة الكيان الاقتصادي في هذه المرحلة.

الفصل الرابع
النظام الإداري والإقليمي

التنظيم النبوي

اعتمد التنظيم الإداري للجهات والأقاليم على الأسس التي وضعت في العهد النبوي مع اعتبار الأوضاع الجغرافية والبيئية للأقطار المفتوحة (مسؤولون عن الري في المناطق الغنية بالماء، إقطاعات الجند، الاحتفاظ بعدد من المسؤولين الوطنيين، الخ...). وعلى كل فإن التنظيم الاقليمي في عهد الرسول عليه السلام، وفي بلد شاسع لم يكن يعرف أنظمة تشريعية ولا قضائية ولا إقليمية أو إدارية باستثناء اليمن تقريباً، يمثل طفرة بالغة الأهمية في التاريخ العربي، وإنجازاً يثير الإعجاب في الظروف التي نشأ فيها الإسلام.

وهكذا كانت السياسة النبوية تراعي ظروف الأقاليم، فهناك جهات احتفظ بأمرائها أو حكامها السابقين، وجهات عين عليها عمال جدد. والأولى تشمل على الخصوص، الجهات التي اعتنق حكامها الاسلام تلقائياً؛ والثانية تشمل الجهات المفتوحة عنوة، أو التي يرى الرسول ضرورة مراقبتها وضبطها عن طريق العمال الذين ينفذون تعاليم الإسلام، ويعينهم الرسول.

وحظيت المدينة المنورة كأول عاصمة سياسية للإسلام بأهمية

خاصة في صدر الإسلام على الرغم من أنها لم تخرج عن نطاق البساطة والاختصار في المرافق. وكانت في أول الهجرة مجرد بساتين تحجز فيها بينها حوائط دون تخطيط[1]، وإنما بدأ تخطيطها بعد استقرار الرسول (ص) بها حيث قسم البلد أحياء[2]، وأقطع بها الدور، وقد عرض عليه الأنصار من عقاراتهم ما يفضل عن حاجتهم لايواء المهاجرين، ثم بنى مسجده بعد أن ابتاع أرضاً أضافها إلى المسجد وكان يشرف عليه سعد بن زرارة من رؤساء الأنصار[3]. وأدى الثمن أبو بكر، لأن الأرض كانت ملكاً ليتيمين.

ومنع الرسول قطع الأشجار من حول المدينة، وألزم المخالفين بغرس كمية من الأشجار مكان كل شجرة مقطوعة[4]. كما أنشأ سوقاً ورفع عنه كل ضريبة واتجه إلى السكان بقوله: «هذا سوقكم لا خراج عليكم فيه». على أن السوق ما لبث أن عرف نظام التعشير بعد اتساع حركة التجارة في العهد الخليفي.

ولم تكن الحكومة النبوية تتوفر على مبان خاصة باستثناء المسجد الجامع الذي يعد مقراً لمجلس الصحابة الذين يستشيرهم الرسول ويدير مناقشاتهم، وبنفس المسجد تنعقد الاجتماعات العامة والمهرجانات الخطابية، وبه تقرر الأحكام القضائية، ومنه توجه الخطابات النبوية إلى العمال ورؤساء الدول أو ملوكها. وقد يقوم مسكن الرسول بنفس الأدوار السابقة أو بعضها عند الحاجة. ولبيت

---

(١) المقدسي: البدء ٤/١٧٧.
(٢) ن.م. ص ١٧٩.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢.
(٤) ن.م. ص ١٧.
(٥) ن.م. ص ٢٤.

المال مقر بالحرم النبوي بالمدينة لا نعرف شيئاً عن شكله ولا عن طريقة حفظ المال به غير أنه كان بسيطاً بساطة المسجد النبوي وبيت الرسول نفسه.

وكثيراً ما تقرر أشياء تهم حالات خاصة أو مصالح عامة أثناء تنقلات الرسول الكثيرة. وكان الرسول يتولى في آن واحد، مباشرة شؤون المدينة إلى جانب مهماته كرسول وقائد مجتمع ومسير نظام سياسي.

لا بد أن نعرف أن الدور التربوي والاجتماعي للمدينة كان في غاية الأهمية، لا سيما في حقل التعليم ونشر العرفة، على أن هذه المعرفة وذلك التعليم لا يتجاوزان النطاق الديني، بما يشمله من دراسة القرآن حفظاً وفهمًا، ودراسة الفقه، وتلقي الأحاديث النبوية وتفسيرات الرسول عليه السلام وكذا بعض كبار الصحابة.

وعلى كل فنحن لا نلمس في إدارة العاصمة الأولى للإسلام أي اقتباس يذكر عن الخارج في العهد النبوي على الأقل. وإنما يبدأ الاقتباس بعد إحداث الدواوين في عهد عمر والتي لها كلها صبغة مالية، بل هي ليست في المدينة إلا ديواناً واحداً.

وقد عاش النبي أكبر فترة من حياته قبل المدينة بمكة التي كانت لها أنظمة اجتماعية ودور سياسي بارز، ودار ندوة هي أشبه ما تكون بمقر برلمان من حيث مهمتها التشاورية. وأنشأها قصي بن كلاب أحد الأجداد القريبين للرسول (ص). وظلت قريش تجتمع بها إلى عهد الهجرة. غير أنها كانت ملكاً خاصاً لبعض رجالات قريش، وانتقلت في عهد الرسول (ص) إلى حكيم بن حزام بن خويلد وهو ابن أخي خديجة زوجة النبي. وكان من أثرياء قريش، ودخل في الإسلام عند

فتح مكة، وباع دار الندوة فيما بعد إلى معاوية بن أبي سفيان لأن حكيماً هذا قد امتد به العمر حتى تجاوز مائة سنة(١). وقال له الزبير معلقاً على مصير دار الندوة: «بعث مكرمة قريش!» فأجاب: «ذهبت المكارم إلا التقوى». وقيل إن عكرمة بن عامر هو الذي باعها لمعاوية أيام خلافته، فجعلها مقراً لعمالة مكة(٢).

ولما كانت المدينة ملاذ المؤمنين ومهجرهم، كما هي محتشد عسكري توجه منه الحملات ضد الوثنية وعبّاد الأصنام، فقد كانت إدارتها لا تشغر بغياب الرسول قط، بل كان يعين من ينوب عنه في تسيير أمورها وحمايتها في أيام غيابه، وقلما يتكرر استخلاف أشخاص بذاتهم. وهكذا فقد استخلف في غزوة الأبواء في السنة الأولى (وقيل في الثانية) سعد بن عبادة(٣).

واستخلف في غزوة الأبواط في السنة الثانية السائب بن عثمان بن مظعون(٤)، وقيل سعد بن معاذ(٥). وحسب ابن الأثير كانت غزوة بواط في السنة الأولى(٦)، واستخلف في غزوة السويق أبا لبابة بن المنذر، وقيل إنه استخلفه في غزوة بدر أيضاً(٧).

وفي غزوة غطفان في السنة الثانية استخلف عثمان بن عفان،

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٣٦٢.
(٢) البلاذري: ص ٧٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٢/٧٨ ـ ٧٩؛ ابن خلدون: ٢/٧٤٤.
(٤) ابن خلدون: ن. م. وص.
(٥) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٢٨١.
(٦) ابن الأثير: الكامل ٢/٧٨.
(٧) ابن خلدون: ٢/٧٥٦؛ الغلامي: أصحاب بدر، ص ١٥٤.

كما استخلف ابن أم مكتوم حين خروجه إلى نجران الحجاز[١]. وفي غزوة العشيرة استخلف أبا سلمة بن عبد الأسد[٢]، كما استخلف ابن أم مكتوم في غزوة الكدر[٣].

وفي السنة الرابعة أناب عنه ابن أم مكتوم خلال غزوة النضير[٤]، كما أناب عنه عبد الله بن رواحة، وقيل عبد الله بن أبي بن سلول، في غزوة بدر الثانية[٥].

وفي السنة الخامسة استعمل سباع بن عرفطة في غزوة دومة الجندل[٦]، ثم ابن أم مكتوم في غزوة الخندق (الأحزاب)[٧]. وقد قام ابن أم مكتوم بنفس المهمة في غزوة بني قريظة[٨].

وفي السنة السادسة غزا بني المصطلق فاستعمل أبا ذر الغفاري[٩] أو نميلة بن عبد الله الليثي الذي استعمله في غزوة خيبر أيضاً[١٠].

وفي السنة الثامنة استعمل خلال فتح مكة أبا رهم (بضم الراء) كلثوم بن حصين[١١] الغفاري.

---

(١) ابن خلدون: ٢/٧٥٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٧٨.
(٣) الغلامي: أصحاب بدر، ص ١٠٠ و ٢٨١.
(٤) ابن الأثير: ٢/١٢٠.
(٥) ابن خلدون: ٢/٧٧٢.
(٦) ابن الأثير: ٢/١٢٢.
(٧) ابن خلدون: ٢/٧٧٣.
(٨) ن.م. ص ٧٧٧.
(٩) ن.م. ص ٧٨٢.
(١٠) ن.م. ص ٧٩٥.
(١١) ابن الأثير: ٢/١٦٣.

وفي التاسعة استخلف في غزوة تبوك سباع بن عرفطة[1] ، وقيل محمد بن مسلمة الأنصاري[2] .

ويعني هذا التنويع في الأشخاص توزيع الثقة والتعبير عن التقدير لأكثر ما يمكن من العناصر المساعدة للرسول، وإن كان ابن أم مكتوم أكثرهم حظوة.

أما مكة فقد عين عليها النبي (ص) بعد فتحها سنة[3] ٨ هـ عاملاً قاراً هو عتاب بن أسيد وكان شاباً لا يتجاوز العشرين إلا بقليل. وعرف بالزهد والورع[4] ، وذلك مما يؤهله لهذا المنصب في مركز هو أعظم منطقة مقدسة في الإسلام. وقريش كانت تحصي الأنفاس على من ولي أمورها. وخصص له النبي درهماً يومياً كراتب. وكان مع هذا معتزاً بهذا المبلغ الزهيد. وأسند إليه في نفس السنة إمارة الحج، وهو أول من حصل على هذا الشرف فيما عدا الرسول وفي السنة الموالية تولاها أبو بكر. وكان نفوذ عتاب يشمل منطقة بني كنانة المجاورة[5] . وقد ظل عتاب عاملاً بمكة إلى ما بعد وفاة الرسول. وفي الفترات القليلة التي أقام فيها الرسول بمكة بعد الفتح، تولى إدارة أمورها.

وكانت مكة ترتوي من آبار يحفرها الخواص، وتمدها المياه الجوفية التي تتسرب في باطن الأرض عبر الجبال المجاورة. وفيما يخص

---

(١) ن.م. ص ١٩٠.
(٢) أصحاب بدر، ص ١٤٠.
(٣) ابن الأثير: ٢/١٧٨؛ البلاذري: فتوح، ص ٥٥.
(٤) ابن خلدون: ٢/٨١٨.
(٥) ن.م. ص ٨٥٩.

عقارات مكة فقد روي عن مجاهد[1] أن النبي (ص) قال: مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها. والحقيقة أن عدداً من الفقهاء كمالك وأبي الزناد أجازوا استغلال دور مكة[2]. وكان المسجد الحرام بدون جدار حتى سوره الخليفة عمر في خلافته بجدار قصير[3]. وقد شهدت البقاع المقدسة ترميمات وزيادات متوالية عبر التاريخ، وتضمنتها كتب عديدة.

وكانت الطائف يسكنها ثقيف، وحولها جموع هوازن. وبالطائف حصن كبير تجمع فيه السكان قبل افتتاحه على يد الرسول (ص) سنة ٨ هـ. كذلك استقر عدد من يهود اليمن ويثرب بالمنطقة، فوضعت عليهم الجزية[4]. وكانت بالطائف أملاك عديدة للبورجوازية الصغيرة القرشية تستثمرها. وتنتج المنطقة عدة غلال، كالتمر والزبيب والمزروعات. واحتفظ القرشيون بأموالهم بالمنطقة التي كانت تعد من أعمال مكة[5]. وعين الرسول عثمان بن أبي العاص الثقفي والياً عليها، كما أقر مالك بن عوف رئيساً على قومه من هوازن بضواحي الطائف[6]. ووصف عثمان بن أبي العاص بأنه كان صغير السن حريصاً على الإسلام والتفقه في الدين[7]. وقد كانت هوازن وثقيف من أشد القبائل عداء للإسلام قبل فتح الطائف وإسلامها. واشتهرت

---

(١) البلاذري: ص ٥٨.

(٢) ن.م. ص ٦٠.

(٣) ن.م. ص ٦٢.

(٤) ن.م. ص ٧٥.

(٥) ن.م. وص، وانظر أعمال مكة والمدينة في المسالك والممالك لابن خرداذبة.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٢/١٨٣.

(٧) ن.م ص ١٩٤؛ ابن خلدون: ٢/٨٢٣.

ثقيف بعمليات الربا قبل إسلامها[1]. ويبدو أن ذلك من تأثير اليهود الذين كانوا يخالطونهم من عهد قديم. واستمر عثمان بن أبي العاص على الطائف بعد موت الرسول، ومالك بن عوف على الضواحي.

إن نظام إدارة المناطق على يد أشخاص ينتمون إليها ويحظون بثقة سكانها عمل وضع قواعده الرسول (ص) بعد أن تأكد من ضرورة إسناد المسؤوليات إلى من يعرفون جيداً البيئة والسكان الذين ينظرون إلى السلطة المركزية عادة بشيء من الريبة والحذر.

وكان على البحرين عامل فارسي هو المنذر بن ساوى الذي دخل الإسلام فأقر عاملاً باسم الرسول (ص)[2]. وكان جل سكان البحرين من عبد القيس، وببواديها تميم المعروفون بروحهم الثورية. ثم عين الرسول العلاء بن الحضرمي على المنطقة[3]، واستبدله بعد ذلك بأبان بن سعيد بن العاص، وهو ممن قاد بعض سرايا النبي (ص)[4].

وفي عمان (بالضم)، كما في أقاليم أخرى، كان هناك نوع من ازدواجية السلطة؛ فقد أقر النبي مَلِكَيْها وهما جيفر وعباد، كما عين أبا زيد الأنصاري، وهو أحد جامعي القرآن، على شؤون الصلاة والتكوين العقائدي[5]، وعمرو بن العاص السهمي عاملاً

(١) البلاذري: ص ٧٥.
(٢) ن.م. ص ١٠٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٠٣.
(٤) البلاذري: ص ١١١.
(٥) ابن حلدون: ٢/٨٨٤.

إدارياً[1] ، وكان لهذا التدبير مبرر سياسي، وهو قرب عمان كجارتها البحرين من فارس.

أما اليمن فقد شهدت مرحلتين من التنظيم الإداري، حيث كانت موحدة قبل الإسلام بإشراف عاملها الفارسي بـاذان[2]. ولما أسلم أقر عليها إلى وفاته. وكان الرسول حينذاك قد انصرف من حجة الوداع. وكانت حضرموت ضمن منطقة نفوذ باذان. ولكي لا تصبح عمالة اليمن مملكة وراثية بعد باذان، فقد عمد الرسول إلى تقسيمها إلى عدة مناطق[3] على كل منها عامل:

١ ــ صنعاء: شمر بن باذان. وهناك اختلاف فيمن تعاقب عليها بعده[4].

٢ ــ مأرب: أبو موسى الأشعري.

٣ ــ همذان: عامر بن شمر الهمذاني.

٤ ــ عكّ والأشعريين: الطاهر بن أبي هالة.

٥ ــ نجران: عمرو بن حزام (أو ابن حزم) الأنصاري[5].

٦ ــ ما بين نجران ورِمَع وزبيد: خالد بن سعيد بن العاص.

٧ ــ حضرموت: زياد بن لبيد البياضي.

٨ ــ السكاسك والسكون: عكاشة بن ثور الغوثي.

---

(١) البلاذري: ص ١٠٤.

(٢) ابن خلدون: ٢/٨٤٣.

(٣) ن.م. وص.

(٤) البلاذري: فتوح ص ٩٣.

(٥) ن.م. ص ٩٤.

٩ ــ كنده: عبد الله بن المهاجر بن أبي أمية، وكندة ليست من اليمن، ولا جارتها جغرافياً، فهي في وسط شبه الجزيرة إلى الشمال، ولكنها ارتبطت في الجاهلية بحلف معها. على أن ابن المهاجر لم يلتحق بعمله إلا بعد وفاة الرسول (ص).

١٠ ــ الجند: يعلى بن أمية.

١١ ــ جُرَش (بضم ففتح)، وهي مخلاف بشمالي اليمن: أبو سفيان بن حرب(١).

وقد حدث بعض التغيير في العمال قبيل وفاة الرسول(٢) (ص)، فكان على صنعاء فيروز الديلمي ومساعده داذويه، وقيس بن مكشوح المرادي، وكانوا يتشاطرون المهام السياسية والدينية والمالية.

واحتفظت نجران برؤسائها المحليين مع منسق منهم هو قيس بن الحصين(٣)، بالإضافة إلى العامل الإداري الذي كانت مهمته دينية بالدرجة الأولى(٤). ويعتبر مرسوم تعيين هذا العامل، وقد احتفظت المصادر بنصه، حجة بالغة الأهمية في تحديد مسؤوليات العامل وحقوق المواطنين من مختلف الملل(٥).

وأسند الرسول مهمة القضاء والشؤون الدينية بعموم اليمن إلى معاذ بن جبل. وكان الرسول قد كلفه في فتح مكة بالتكوين العقائدي

---

(١) ن.م. ص ٧٩.
(٢) ابن خلدون: ٢/٨٥٩؛ ابن الأثير: ٢/٢٥٢.
(٣) ن.م. ص ٨٢٩.
(٤) ن.م. وص.
(٥) انظر النص في تاريخ ابن خلدون: ٢/٨٢٩ــ٨٣١.

للمسلمين الجدد[1] ، كذلك أسند الرسول إلى معاذ مهمة جمع الصدقات[2] (الزكوات).

ويلاحظ أن العديد من عمال اليمن أنصار، نظراً لتقارب العادات والتقاليد؛ ومنهم عمرو بن حزام وزياد بن لبيد، كما أن فيهم عناصر يمنية كعامر بن شمر، ومكية كخالد بن سعيد. وكان عامل خيبر أنصارياً، وهو سواد بن غُزَيّة (بضم الغين ففتح)[3]

ومن المناطق التي كانت تدين بالولاء للبيزنطيين واحتفظت بإدارتها المحلية مع التزامها بالجزية: أيلة، وهي من أعمال تبوك[4]، وكان المشرف عليها يوحنا بن رؤبة، وأذرح، ومقنا. وكان على دومة الجندل أمير عربي مسيحي هو أكيدر بن عبد الملك الكندي الذي اعتنق الإسلام على يد خالد بن الوليد[5]، واحتفظ بمأموريته، ثم عين الرسول عبد الرحمن بن عوف لمساندته[6].

ومن هذا العرض عن إدارة الأقاليم في العهد النبوي نستخلص:

١ ــ أن بعض التعيينات لم تتفق عليها المصادر.

٢ ــ أن عدداً من المناطق احتفظت بزعمائها أو حكامها، وأضيف إليهم عامل للشؤون الدينية يسمى عامل الصلاة أو صاحب

---

(١) ن.م. ص ٨١٨.

(٢) البلاذري: ص ٩٤.

(٣) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٢٢٥.

(٤) ابن الأثير: ٢/١٩١.

(٥) البلاذري: ص ٨٢؛ ابن الأثير: ٢/١٩٢.

(٦) أصحاب بدر، ص ٢٨١.

الصلاة. وقد يعين هذا العامل حتى في الجهات التي يوجد بها عامل إداري عينه الرسول.

٣ ـــ في المناطق الرئيسية يعين عامل آخر هو عامل الصدقة الذي يكلف باستخلاص الزكوات وصرفها في عين المكان في الوجوه المستحقة، ويرد الباقي إلى بيت المال.

التنظيم الراشدي

تعيين العمال

إن تطور الأحداث السياسية واندلاع حركة الردة ثم امتداد الفتوح عبر الشام في عهد أبي بكر، جعل من الضروري إحداث بعض التغييرات في سلك الولاة بالإضافة إلى إحداث أقاليم جديدة. فأصبح جرير بن عبد الله على نجران[١]، ومعاذ بن جبل على الجند (بفتحتين)، وعياض بن غنم بدومة الجندل، وعبد الله بن ثور بجرش[٢] وكان عليها من قَبْلُ أبو سفيان. واعتبرت المناطق المفتوحة بالشام قيادات عسكرية أو مقاطعات عسكرية بصفة مؤقتة، وقد تقاسمها أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وكلهم بقيادة خالد[٣]. وسميت كل مقاطعة جنداً، فهناك جند حمص وقنسرين، وجند الأردن، الخ[٤]. ويشمل كل جند مجموعة من المراكز الحضرية والقروية.

---

(١) الطبري: ٥١/٤؛ ابن الأثير: ٢٨٩/٢.

(٢) ن.م. س.

(٣) ن.م. س.

(٤) البلاذري: فتوح، ص ١٨٠.

وأعاد عمر بن الخطاب تنظيم الأقاليم وتشطيرها خصوصاً اليمن التي عين عليها عاملاً واحداً أو موحداً هو يعلى بن منية المتوفى سنة ٣٧، وقيل إنّه أول من أرخ المراسلات، وكان تميمياً من سكان مكة، وتقلب في مناصب إدارية(١). كما تولى أبو عبيدة بن الجراح ولاية الشام، والمثنىّ بن حارثة بنواحي الكوفة التي تولاها بعد ذلك المغيرة بن شعبه، وبالبصرة أبو موسى الأشعري، وبحمص عمير بن سعد، الخ. على أن هناك مراكز شهدت تغيير عمالها أكثر من مرة كالكوفة والبصرة، علماً بطول خلافة عمر نسبياً(٢).

ونسب إلى الخليفة عمر شروط طريفة في اختيار العمال؛ إذ كان على العامل إذا عينه:

١ ـ أن لا يركب البراذين
٢ ـ أن لا يلبس الرقيق
٣ ـ أن لا يأكل النقي
٤ ـ أن لا يتخذ بواباً(٣)

وكان عمر أشد الراشدين قسوة على العمال حيث كان يلزمهم بأقصى حدود النزاهة والتقشف. ولكن هذا لا يمنع من وجود حالات مخالفة (معاوية بالشام، عمرو بن العاص بمصر، الخ...).

واقتضى التوسع الكبير في الفتوحات تعيين المزيد من الولاة في أنحاء الامبراطورية الفارسية السابقة. وكذا الجهات الشاسعة التي

---

(١) الزركلي: الأعلام، ج ٩. وتعيين يعلى على اليمن كان من عهد عمر لا عثمان. انظر ابن الأثير ٣٠٩/٢.

(٢) انظر عن تعيينات العمال في عهد عمر: الطبري: ٤٢/٥؛ ابن الأثير: ٣٠٩/٢ و ٣٤٠ و٣، ٩ و٤٠. ابن خلدون: ٩٥٦/٢.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٥٣/١.

فتحت من الامبراطورية البيزنطية. وهناك عدة أقاليم يتم تجميعها أو تقسيمها حسب الظروف، وتبعاً لاختيارات السلطة المركزية. وعلى سبيل المثال فقد ضمت قنسرين وحمص إلى معاوية سنة(١) ٣١ هـ، ثم ضمت إليه فلسطين في عهد عثمان(٢) لمدة سنتين إلى أن عين على فلسطين علقمة بن حكيم الكناني(٣). كذلك قسمت اليمن مرة أخرى في مرحلة لاحقة من عهد عمر فعين بها عاملان أحدهما يعلى بن منية بصنعاء، والثاني عبد الله بن ربيعة بالجند. وأُمِرَّ هذا التقسم في عهد عثمان(٤).

وقد نحى علي سنة ٣٦ هـ معظم الولاة الرئيسيين الذين تركهم عثمان وعين عمالاً جدداً سبقت الإشارة إليهم في العرض السياسي من هذه الدراسة. وقد تكتلت الطبقة الأموية التي كان أغلب العمال منها أولهم صلة قرابة أو صهر بها ضد علي.

إلا أن علياً نفسه عين بعض الولاة من أقاربه كعبد الله بن عباس بالبصرة، وقثم بن العباس بمكة والطائف(٥). وبالمقابل، لم يتردد علي في مطالبة عبد الله بن عباس بأداء الحساب عن تصرفاته

---

(١) الطبري: ٥/٦٩.

(٢) الطبري: ن. ص والجزء.

(٣) ابن الأثير: ٣/٩٥.

(٤) ن. م. وص. وانظر تعيينات وتنقيلات العمال في عهد عثمان في: م. س؛ الطبري: ٥/٥٤، ٦٩؛ ابن خلدون: ٢/١٠٠٩، ١٠١٦؛ البلاذري: ص ٥٦٧؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٥٧.

(٥) ابن الأثير: ٣/١٧٧.

المالية بالبصرة حتى تخلى ابن عباس عن عمله غاضباً. ويتم تعيين العامل بعهد تولية يقرأ في مجلس عام بالمسجد الأعظم بالعاصمة، ويخبر سائر الولاة التابعين للعامل بقرار الخليفة. وينص العهد على التزامات العامل من شدة على العتاة ورفق بالمستضعفين وحكم بالحق، وإذا كانت إليه الجباية فيجب أن يباشرها طبقاً للشريعة ولالتزامات الدولة إزاء الأمة أو الأقليات. ومن عهود التولية على سبيل المثال، عهد تولية محمد بن أبي بكر على مصر في عهد علي، وهذا نصه[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر، حين ولاه مصر: أمره بتقوى الله، والطاعة في السر والعلانية، وخوف الله عز وجل في الغيب والمشهد، وباللين على المسلمين، وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبإنصاف المظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين، ويعذب المجرمين... وأمره أن يدعو مَنْ قِبَله إلى الطاعة والجماعة، فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة، ما لا يقدرون قدره ولا يعرفون كنهه، وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبى عليه من قبل، لا ينتقص منه، ولا يبتدع فيه، ثم يقسمه بين أهله، على ما كانوا يقسمون عليه من قبل، وأن يلين لهم جناحه، وأن يواسي بينهم في مجلسه ووجهه. وليكن البعيد والقريب في الحق سواء... وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط ولا يتبع الهوى، ولا يخفْ في الله عز وجل لومة لائم، فإن الله جل ثناؤه، مع من اتقى وآثر طاعته، وأمرُه على ما سواه».

---

(١) الطبري: ٥/ ٢٣١.

وكتب عبد الله بن أبي رافع، مولى رسول الله (ص) لغرة شهر رمضان[١].

وكانت كتابة العهود والمراسلات الإدارية في أغلبها على الرق الذي يرجع استعماله لأول مرة إلى حوالي قرنين قبل الميلاد[٢].

وقد يحدث أن يطالب أهل منطقة بعزل عامل معين أو برد آخر عزل، كما حدث في رد العلاء الحضرمي إلى البحرين بطلب من سكانها في عهد أبي بكر[٣]. وقد يحدث أن تتعصب منطقة لعامل معين أو أن تحميه أمام السلطة المركزية. وهناك ولاة كثيرون استقالوا من عملهم إما لكبر سن أو صَوْناً لكرامتهم عن المهانة. فقد أصر أبو هريرة على الاستقالة من ولاية البحرين في عهد عمر الذي اتهمه من غير حجة بسرقة أموال الأمة[٤]. ونادراً ما يرغم مرشح على قبول ولاية[٥].

وللعامل سلطة واسعة على منطقة عمله. ونجد هذه السلطة تتسع تدريجياً لا سيما في عهد عثمان. فالعامل هو في نفس الوقت قائد عسكري عام على منطقة عمله إن كان قاراً بها. فكان يتوسع في الفتوح، وينشىء التحصينات ويقوم بالمبادرات[٦]. وقلما يجمع إلى هذه الاختصاصات الشؤون الدينية التي يتولاها عامل مستقل[٧]. ونرى أن

---

(١) انظر نص تعيين عامل آخر على مصر هو قيس بن سعد في عهد علي: الطبري: ٥/٢٢٧.

(٢) Cavaignac, Histoire de l'Antiquité, 3: 193.

(٣) البلاذري: ص ١١١.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٥٤.

(٥) البلاذري: ص ٤٨٩.

(٦) ن.م. ص ١٧٣؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٧.

(٧) البلاذري: ص ١٩٢.

هذه الازدواجية في السلطة (زمنية وروحية) كانت أصلاً بعيداً لقيام أنظمة محلية مشابهة في العصور اللاحقة (عبد الله بن ياسين ويوسف بن تاشفين عند المرابطين؛ أبو عبد الله وعبيد الله الشيعي عند الفاطميين، الخ). ولذلك ينبغي عدم الأخذ بنظرية وحدة السلطة في النظام الإسلامي بكيفية مطلقة، لا سيما في الأقاليم.

ويتميّز الولاة القطريون في عامتهم بالمقدرة التنظيمية على الصعيدين الإداري والسياسي فضلاً عن تجربتهم العسكرية. ومن العمال القطريين:

١ ــ عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة بمصر.

٢ ــ أبو عبيدة بن الجراح ومعاوية بالشام.

٣ ــ باذان ويعلى بن منية باليمن[١].

ولم تعتبر العراق قطراً إدارياً موحداً، فكان لها عاملان رئيسيان أحدهما بالبصرة، والآخر بالكوفة. ويبدو هذا التقسيم منذ عهد عمر؛ إذ كان في الأصل مبنياً على اعتبارات عسكرية. ثم هناك بطبيعة الحال ولاة تابعون لأحد العاملين، ويعينون مباشرة أو بموافقة الخليفة[٢]. ويتولى العاملان حسب تعليمات الخليفة، القيام بعمليات الفتح أو التهدئة في الأقاليم الفارسية[٣]. وقد مضت أمثلة لذلك في العرض السياسي.

ومن عمال الأقاليم غير العربية، ربعي العنبري علي سجستان[٤]

---

(١) انظر سلسلة العمال القطريين في البلاد المذكورة، في: القلقشندي: صبح الأعشى ٤١٩/٣، ٢٦/٥؛ المقريزي: خطط ٦٦/٢؛ ابن الأثير: الكامل ١٣٥/٣؛ ابن خلدون: ١٠٩٠/٢؛ البلاذري: ص ٢٨٧.

(٢) البلاذري: فتوح ص ٤٦٤.

(٣) ن.م. ص ٥٦٧.

(٤) البلاذري: ص ٥٥٧.

في عهد علي، وصِلَـة بن زفر العبسي على أرمينية في عهد عثمان[1]، والأحنف بن قيس بخراسان[2].

عمال الصدقات والخراج

لم تكن سلطة العامل (الإداري والسياسي) تمتد الى الشؤون المالية والجبائية إلا في حالات نادرة تلافياً للاستغلال الشخصي للمسؤولية. ولذلك سار الراشدون على نهج الرسول (ص) في تعيين عمال خاصين بالجباية سموا بعمال الخراج، وآخرين اختصوا بالصدقات أي الزكوات، وربما اختلط الاختصاصان فجمعهما شخص واحد. ومن أوائل عمال الصدقات في عهد أبي بكر، عمرو بن العاص على قضاعة العليا، والوليد بن عقبة على قضاعة السفلى[3]. وتولى سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن في عهد عمر[4]. وممن جمع بين الصدقات والعمل الإداري عتبة بن غزوان عامل البصرة في عهد عمر[5]، وذلك في وقت أسندت مهمة قبض المغانم إلى مسؤول آخر هو شبل بن معبد البجلي[6]. ومن عمال الخراج بمصر في عهد عثمان سليمان التجيبي[7]، وبالكوفة في عهد عمر: عثمان بن حنيف[8].

---

(1) ن.م. ص ٢٨٧.
(2) ن.م. ص ٥٧٤.
(3) الطبري: ٤/٢٩ ـ ٣٠؛ ابن الأثير: ٢/٢٧٦.
(4) الكامل ٢/٣١٠.
(5) البلاذري. فتوح، ص ٥٤٣.
(6) ن.م. وص.
(7) المقريزي: خطط ٢/٦٧.
(8) المقدسي: البدء ٦/١٨٠.

وجمع عبد الله بن عباس في البصرة بين الإشراف الإداري وقيادة الجيش والشؤون الجبائية[1] . كما تولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مسؤولية الصلاة والخراج بمصر في عهد عثمان[2] ، ثم مسؤولية الخراج والحرب في عهد عثمان أيضاً[3]. وفي أول تعيين عبد الله بن عباس بالبصرة كان الخراج وبيت المال من اختصاص غيره[4]. وهناك عمال خصصوا لشؤون السقي (الري) في بعض المناطق الخصبة. وعلى العموم فإن تجميع الاختصاصات أو توزيعها يخضع للظروف المكانية وأحياناً لاعتبار المكانة الشخصية للعامل.

الإجراءات التأديبية

إذا كان العمال وقادة الجيش وسائر المسؤولين يتلقون تعليمات محددة وصارمة أحياناً قصد التزام الاستقامة وإعطاء كل ذي حق حقه، فإن انحرافهم عن هذا الاتجاه يؤدي إلى تأديبهم بشتى الوسائل:

١ ــ التوبيخ
٢ ــ العقاب البدني الخفيف
٣ ــ النقل
٤ ــ العزل
٥ ــ مصادرة الأموال

وقد رأينا أبا بكر ينقل خالد بن الوليد من واجهة الشام إلى الواجهة العراقية عقاباً له على مغادرة قيادته إلى شبه الجزيرة للقيام

---

(١) ابن الأثير: ٣/٢٠٠.
(٢) المقريزي: ن.م. وص.
(٣) ابن خلدون: ٢/١٠٠٢
(٤) الطبري: ٥/٢٢٤.

بأداء شعائر الحج دون إذن سابق، وأن عمر عزله عن القيادة العامة بالشام ثم عن القيادة العسكرية جملة وصادر جزءاً من أمـواله بعـد محاسبته[1]. وعندما استقبل قادة الجيش الخليفـة عمر بـالشام وهم يرتدون الديباج والحرير حصبهم وعنفهم[2]. ولم يتردد عمر في عزل قدامة بن مظعون سنة ٢٠ هـ عن ولاية البحرين وحَدِّه لشرب الخمر[3]. وكان من عادته أن يلزم العمال بموافاته في موسم الحج في سني خلافته كلها، فيتعرف أحوالهم عن كثب، ويستمع إلى ردودهم عن شكاوى المواطنين[4]. ولا يراعي عمر صحابياً كبيراً ولا مسؤ ولاً مرموقاً، وقد حبس أبا سفيان وقيده بقيد جاء به من نجله معاوية عامل الشام، وهو من نماذج القيود البيزنطية، وذلك لأن معاوية أودع أبا سفيان مع القيد مالاً لبيت المال فاحتفظ بالمال وقدم القيد لعمر[5] فكان أول من قيد به حتى رد المال.

واعتاد عمر أن يلزم العمال عند توليتهم بتقديم تصريح عن ممتلكـاتم. فإذا زادوا عليهـا من الكسب أخذ منهم شـطر الـزائـد أو كله[6]. وقليل من الدول الـراقية الآن يـطالب فيها المـرشحون للمسؤ ولية بتقديم تصريح من هذا النوع خارج التصريحات الخاصة بالضرائب.

ومن أمثلة المصادرات التي تعرض لها العمال، مشاطرة أموال

(١) ابن خلدون: ٢/٩٥٦ ــ ٩٥٧؛ الكامل ٢/٣٧٥.
(٢) الكامل ٢/٣٤٨؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٩.
(٣) ن.م. ص ٣٩٨.
(٤) الكتاني: التراتيب ١/٣٣٧.
(٥) ابن عبد ربه: العقد ١/٣٦.
(٦) البلاذري: فتوح، ص ٣٠٧.

عمرو بن العاص عامل مصر؛ فقد كتب إليه الخليفة عمر[١]: «إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن لك حين وليت مصر».

فرد عمرو بن العاص: «إن أرضنا أرض مُزْدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا».

فعقب الخليفة: «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إليّ كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق. وقد سؤت بك ظناً، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برّح الخفاء!».

وشوطر عامل مصر في أمواله حسب الإجراء الذي قرره الخليفة. واتخذ عمر إجراء مماثلاً تجاه أبي هريرة الذي تولى عمالة البحرين بعد قدامة؛ وعلى إثر ذلك رفض أبو هريرة العودة إلى الولاية[٢].

وطالب علي بن أبي طالب عاملاً له على الري باستحضار مال أخذه من الخراج، فأنكر أخذه، فضربه ضرباً خفيفاً بالسوط ثم حبسه، فتمكن من الفرار والالتحاق بمعاوية[٣]. وعندما عاد أحد القواد مهزوماً في اشتباك مع أنصار معاوية، ضربه بالسوط فغضب ولجأ إلى معاوية[٤]. وقد كان تمرد معاوية ضد علي مفتاحاً لتمرد آخرين والتحاقهم بصفوف معاوية أو تضامنهم معه. وقد فسد سلوك العمال

---

(١) البلاذري: ص ٣٠٧.
(٢) ن.م. ص ١١٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٤٧/٣.
(٤) م.س. ص ١٩١.

أو بعضهم على الأقل من أيام عثمان. ولذلك لم يكن بإمكان علي أن يعود بنجاح إلى سياسة الصرامة في أقصى حدودها تجاه الولاة مثلما كان الشأن في عهد عمر. فآخر من بقي إلى جانبه وأعزهم مكانة وهو عبد الله بن عباس عامل البصرة هجر منصبه نهائياً بعد أن أصبح موضع تهمة لدى الخليفة.

ولقد كان الراشدون يجيزون تدابير ولاتهم متى اقتنعوا بوجاهتها(1). ونجد الحرص على مصالح السكان شغلهم الشاغل في كل التعليمات التي يوجهونها. وهكذا فعندما استقر أحد الولاة بجبل الأهواز وهو منطقة وعرة كتب إليه عمر يقول(2): «بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة، فأسهل، ولا تشِقَّ على مسلم ولا معاهد. وقم في أمرك على رِجْلٍ (بسكون الجيم)، تدرك الآخرة، وتصفُ لك الدنيا. ولا تدركنك فترة ولا عجلة، فتكدر دنياك، وتذهب آخرتك».

والتزم علي في عهد تولية قيس بن سعد على مصر(3) بالعمل بما في القرآن والسنة، وشدد على العامل في الإحسان إلى المحسن والشدة على المسيء والرفق بالسكان بجميع فئاتهم.

وشرح عمر بوضوح مهمة العمال في خطاب ألقاه على جماهير المؤمنين. ومما جاء فيه:(4)«إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم، وسنتكم، فمن فعل به شيء، سوى ذلك فليرفعه إلي».

---

(1) العقد الفريد ١/١٠؛ اليعقوبي: البلدان ص ٨٢.
(2) الطبري: ٤/٢١٢.
(3) الطبري: ٥/٢٢٧.
(4) الكامل ٣/٣٠.

واتجه عمر إلى المسؤولين بقوله(1): «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم».

وشبه عمر حقوق الأمة تجاه المسؤول بقوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا: أنفقها علينا؛ فليس له أن يستأثر بشيء(2). وهذا غاية ما تقتضيه أمانة المسؤولية. وكان يقول(3): لي على كل خائن أمينان، الماء والطين.

وتعد البصرة والكوفة من أكثر العمالات تعرضاً لتغيير الولاة، تليها منطقة البحرين(4) وكل هذه المناطق شهدت تناحر العصبيات فضلاً عن شراهة بعض الولاة إلى استغلال السلطة بشكل أو بآخر(5). بل إن الذين اشتهروا بنزاهتهم من بين الولاة لم تبرئهم أصابع التهمة الشعبية أحياناً، فقد كان أبو موسى الأشعري ممن نالهم العزل عن ولاية البصرة لأنه دعا المتطوعة إلى جهاد المرتدين من الأكراد ورغبهم في السير على الأقدام ثم حمل هو أثقاله على أربعين بغلاً وسار راكباً فاتهمه المتطوعة بالاستيلاء على حقوقهم، وعمد عثمان إلى عزله(6). والواقع أن عهد عثمان دشن بانتهاج سيرة سابقه حتى إن

---

(1) ن.م. وص.
(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٥٢/١.
(3) ن.م. ص٥٣.
(4) انظر ابن الأثير: الكامل ٣٧٦/٢، ٣٧٨، و٩/٣، ١٥، ٤١، ٤٢، ٥٢؛ ابن عبد ربه: العقد ١٠/١.
(5) انظر مثالاً من شراهة عمرو بن العاص في: البلاذري: فتوح، ص٣١٣؛ وانظر الطبري: ٤٧/٥، ٤٨، ٥٤ بشأن عزل عمال الكوفة والبصرة في عهد عثمان؛ وانظر أيضاً الطبري: ٦١/٥؛ وصالحاني: رنات ٣٤٥/٢.
(6) ابن الأثير: ٤٩/٣.

أول منشور وجهه إلى العمال يذكرنا بتعليمات مشابهة من عمر. ومما جاء فيه(١):

«أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة». وقال أيضاً: «ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين، وفيما عليهم، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

وكتب عثمان منشورين مقاربين إلى كل من قادة الجيش وعمال الخراج(٢).

الشرطة

لم يكن للشرطة تنظيم خاص في العهد النبوي ولا في عهد أبي بكر وعمر. فقد كانت مهمة الشرطة يؤديها أشخاص غير قارين. وعلى العموم فقد ظل النظام عسكرياً يعتمد على حماية الجيش للأمن وتنفيذه للتدابير الإدارية والقضائية إلى أن ظهرت الحاجة إلى إنشاء تنظيم خاص بالشرطة بعد عمر. وهكذا فقد كان هذا الخليفة يقوم بنفسه مقام رئيس الشرطة خاصة بالليل في المدينة حيث يقوم بجولة لمراقبة الأمن، ويصحبه مولاه أو عبد الرحمن بن عوف(٣). ولكن حاجة العمال إلى الشرطة على كل حال آكد من حاجة الخلفاء، لأن العمال أكثر احتكاكاً بالسكان، وأقربهم إلى ممارسة التنفيذ المعجل واليومي للتدابير القضائية والادارية. ولذلك استعانوا بمن يتولى هذه

---

(١) الطبري: ٥/ ٤٤.

(٢) ن.م. وص.

(٣) المقريزي ٣/ ١٥٠.

المهمة من خواصهم حتى كان عهد عثمان فاتسع نظام الشرطة ليشمل الأقاليم. وهكذا فإن عثمان فيما قيل أول من اتخذ الشرطة من الراشدين أو على الأصح رئيس شرطة وهو عبيد الله بن قنفذ[1]. وكان صاحبا شرطة علي هما معقل بن قيس الرياحي ومالك بن حبيب اليربوعي[2]. وكان لعلي شرطة عسكرية كبيرة العدد تدعى شرطة الخميس[3]، وكانت آخر من اعترف بخلافة معاوية من مساعدي علي.

ومن أصحاب الشرطة الاقليميين عبد الرحمن بن حبيش الأسدي بالكوفة في عهد عثمان[4]، والضحاك بن قيس الهلالي بالبصرة في عهد علي[5].

وكان صاحب الشرطة الاقليمي يعمل بإشراف العامل الذي يوجد تحت تصرفه أيضاً كل من ديوان الجند وجهاز الكتاب الذي لم يطلق عليه اسم خاص. وتتسع سلطة العامل أو تتقلص تبعاً للحاجة وللظروف كما تقدم.

---

(١) العقد الفريد ٥/٣٤.

(٢) ن.م. ص٥٨.

(٣) الطبري: ٦/٩٤.

(٤) صالحاني: رنات المثالث والمثاني ٢/٣٤٥؛ وذكر المقريزي: خطط ٣/١٥٠ أن عبد الله بن مسعود تولى الإشراف على العسس (شرطة الليل) بالمدينة أيام عمر.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣/١٨١.

الفصل الخامس
النظام العسكري

تشريع الجهاد

شغلت الدعوة الإسلامية شطراً كبيراً من حياة الرسول قبل الهجرة، ثم مرت سنة ونيف بعد الهجرة دون أن يكون هناك أي رد فعل ضد قريش التي حرمت الرسول وأنصاره من حرية العقيدة واضطهدتهم حتى ألجأتهم إلى الهجرة. وهكذا فمن البعثة إلى حين أول اشتباك دموي بين المسلمين والمشركين في معركة بدر، مرت فترة تناهز ثلاث عشرة سنة تمثل كلها فترة التحدي والتفوّق القرشي، فضلاً عن الاضطهاد الذي لقيته الحركة الإسلامية والإذاية الجسدية التي مست الرسول وأنصاره. ومن ثم شرع الجهاد ضد الشرك، فشمل تسع سنوات قدم فيها القرآن والسنة لعمليات النضال والمواجهة وما يتعلق بالحرب والسلم، تعاليم كثيرة اعتمدت في التشريعات الحربية وشغلت من الفقه الإسلامي مكاناً واسعاً ضمن باب الجهاد.

وفي العصر الراشدي أنشىء ديوان العطاء الذي خصص قبل كل شيء للمجاهدين وأسرهم، ولذلك سمي أيضاً بديوان الجيش وديوان الجند، وقد استفاد منه آلاف الأسر منذ إنشائه أيام عمر بن الخطاب، سواء بالنسبة لمجاهدي شبه الجزيرة أو الذين قاتلوا الفرس والبيزنطيين.

دور الموالي

كانت الأغلبية الساحقة من الجيش الإسلامي من العرب طيلة الإسلام، ولم يكن يوجد جيش نظامي في العهد النبوي، فقد كان الاعتماد على التعبئة العامة أي استنفار القبائل أو العناصر كلما تطلب الأمر القيام بعمليات حربية أو موازية. وشغلت فئة الموالي والمعتقين مكاناً بارزاً في أطوار التعبئة جنوداً وقادة، ويعود ذلك إلى مبدأ المساواة البشرية في الإسلام، والتي لا تفرّق بين الأجناس والألوان واللغات والانتماءات الجغرافية. ووجود عناصر من الموالي في قيادة الجيش العربي تكريس لهذا المبدأ بالذات، ومن أبرز هؤلاء:

١ ـ أبو مرثد الغنوي، وهو من المهاجرين الذين شهدوا جميع معارك الرسول[١]. توفي بالشام سنة ١٢ هـ.

٢ ـ ابنه مرثد بن أبي مرثد، من المهاجرين، وشهد بدراً، وأُحُداً واستشهد يوم الرجيع، وكان قد تولى قيادة سرية إلى مكة في آخر السنة الثالثة.

٣ ـ عبد الله بن جحش، من المهاجرين، شهد بدراً، وقتل في أحد، حيث دفن مع حمزة في قبر واحد. وهو من قواد السرايا[٣].

٤ ـ عامر بن فهيرة[٤]. كان من المعذبين على يد مالكه الطفيل بن عبد الله، فاشتراه أبو بكر وأعتقه، شهد بدراً وأحداً، وقتل في بئر معونة سنة ٤ هـ.

---

(١) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٨٨.
(٢) ن.م ص ٩٠.
(٣) ن.م. ص ٩١.
(٤) م.س. ص ١٠٥.

٥ ــ بلال بن رباح(١)، مؤذن الرسول (ص)، واحد المسلمين الأولين والمهاجرين. كان عبداً حبشياً يؤذيه أبوجهل، فاشتراه أبوبكر وأعتقه. ولقي العذاب على يد أمية بن خلف، حتى كُتِبَ لبلال أن يقتله في بدر. وكان من أعز الناس لدى الرسول (ص). توفي ودفن بدمشق سنة ٢٠، شارك في مختلف المعارك النبوية.

٦ ــ صهيب بن سنان(٢)، عربي الأصل، سباه الروم في غزوهم للعراق، فعرف بصهيب الرومي، اشتراه عبد الله بن جدعان، وأعتقه. شهد جميع المعارك في العصر النبوي، توفي ودفن بالمدينة سنة ٣٨ هـ.

٧ ــ عمار بن ياسر(٣)، فارسي الأصل، لقي الأذى على يد قريش، هو وأبوه. من مهاجري الحبشة والمدينة. وهو من المستشارين الحربيين للرسول (ص). ولاه عمر الكوفة، وقتل في صفين سنة ٣٧ هـ، وكان من حزب علي.

وهذه اللائحة لا تشمل إلّا قليلاً جداً من الموالي والعبيد المعتقين الذين ساهموا في الحروب النبوية وسائر صدر الإسلام.

وكان يساهم في حروب قريش ضد المسلمين أعداد كبيرة من الأحباش يعملون في خدمة البورجوازية القرشية. وهكذا شارك الأحباش في معركة أحد ومواجهة الأحزاب وحنين، وكان عليهم رئيس من بينهم يدعى الحليس بن علقمة(٤). وقد دخل هذا الفريق في عداد

---

(١) م.س. ص ١٠٦.

(٢) م.س. ص ١٠٨.

(٣) م.س. ص ١١١.

(٤) المقدسي: ٤/١٩٨، ٢١٦، ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ٢/١٠٣، ١٢٣، ١٣٥.

الجيش الإسلامي بعد فتح مكة وساهم في الحروب خارج شبه الجزيرة.

الأسلحة وحصار المراكز المحصّنة

استخدم في صدر الإسلام جُل الأسلحة التي كانت معروفة عند جيران العرب أو عند العرب أنفسهم ومن أهمها:

١ ـ الدروع وهي سلاح وقائي استعمله الرسول نفسه في غزوة أحد[١] التي شارك فيها قريش بسبعمائة دارع[٢]، وقيل إن الرسول كان له ثلاثة دروع يحمل كل منها اسماً[٣]، وفي معركة أحد كان يرتدي اثنين منها، أحدهما يحمل اسم ذات الفضول، والآخر فضة[٤] وقد غنمه من بني قينقاع الذين كان بينهم ثلاثمائة دارع[٥]، وكان للرسول ترس يتقي به الضربات المباشرة[٦].

وفي فتح مكة ارتدى الأنصار والمهاجرون في موكب الرسول الدروع البيض[٧].

٢ ـ أسلحة الرمي، ومنها النبل، وقد استخدم في عدد من الغزوات المبكرة مثل أحد[٨]، واقتصر عليه في غزوة الأحزاب، وبه

---

(١) المقدسي: البدء ٤/١٩٩، ٢٠٢.
(٢) ابن خلدون: ٢/٧٦٢.
(٣) ابن الأثير: ٢/٢١٥.
(٤) ابن خلدون: ٢/٧٥٩.
(٥) ابن الأثير: ن.م. وص.
(٦) ابن خلدون: ٢/٨٠٦.
(٧) المقدسي: البدء ٤/٢٠٠ و٢١٧.

ترمى[1] السهام، واستعان الرسول بالرماة في أهم غزواته. وممن اشتهر بينهم، زيد بن سهل[2]، وكان ممن دافعوا عن الرسول في أحد، وشهد معه عدة معارك، وسعد بن عبادة، حامل راية الأنصار[3]. وكان تخلي الرماة عن مراكزهم في أحد من أكبر أسباب هزيمة المسلمين.

واعترف محارب فارسي شهد حرب القادسية أن النبال العربية كانت تهتك الدروع الفارسية الحصينة[4]. وفقأ العرب بسهامهم عيون الفرس في معارك حول الأنبار[5].

٣ ــ أسلحة الطعن، وأهمها الرماح والسيوف.

٤ ــ أسلحة الحصار، ومنها المنجنيق والدبابة. وقد استخدم المنجنيق بإشارة سلمان الفارسي لأول مرة في حصار الطائف[6] سنة ٨ هـ. وهو يقذف بالحجارة على هيئة المدافع. وكانت رغبة بني ثقيف أن تواجه الرسول بنفس السلاح. وقد علمت باستعداداته قبل ذلك، فبعثت رجلين يتعلمان في جرش صناعة المجانيق والدبابات[7]، ولكن الرسول لم يتمكن من اقتحام حصن الطائف، فقد استعملت كوكبة من جيشة دبابة بدائية من الجلد لنقب السور أو البحث عن ثغرة[8]،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/ ١٢٤.
(٢) أصحاب بدر، ص ٢٢٢.
(٣) ن.م. ص ٢٣٦.
(٤) البلاذري: فتوح، ص ٣٦٢.
(٥) الطبري: ٤/ ٢٠.
(٦) ابن الأثير: ٢/ ١٨١.
(٧) ابن خلدون: ٢/ ٨١٥.
(٨) البلاذري: ص ٧٤؛ المقدسي: البدء ٥/ ٧٤؛ وانظر أيضاً: الكتاني: التراتيب ١/ ٣٧٤.

فأرسل عليهم المحاصَرون (بفتح الصاد) حديداً حامياً أحرق الدبابة وأصاب الكوكبة فأفرج الرسول عن الحصن.

وحاصر المسلمون بهرشير ورموها بالمجانيق ثم فتحوها. وصمدت المدائن للحصار ثلاثة أشهر حتى أكل أهلها السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم كما يقول ابن الأثير[1]. وأخيراً فتحت المدينة، وكان ذلك في السنة ١٦ هـ. واستعمل العرب المنجنيق أيضاً في فتح معاقل أرمينية وأذربيجان[2]، كما استخدموه في حصار الاسكندرية وتترسوا بالتروس من النشاب الذي كان يرمي به البيزنطيون[3]. وحاصر المسلمون كابل شهراً ثم رموها بالمنجنيق قبل أن يتمكّنوا من فتحها، وحدث هذا أول ولاية معاوية[4].

وقد اتهم الشعوبيون العرب بالقصور والجهل باستخدام الأسلحة المتعارفة عند الفرس أو البيزنطيين، مثل الدبابات والمجانيق والدروع وغيرها حسبما ورد عند الجاحظ في «البيان والتبيين»[5]. والصحيح أن سياق الأحداث التاريخية وتواترها مراراً في الفتوح والمعارك كما رأينا وكما سيزداد وضوحاً، يؤكد أن العرب عرفوا كل الأسلحة الرئيسية وطرائق القتال الدولية منذ العهد النبوي فضلاً عن العهد الراشدي، بل إن من دلائل عناية العرب بالتسلح سواء لحفظ الأمن الداخلي أو لمجابهة القوى المعادية وجود مخازن خاصة بسلاح الدولة، ومحمل شاراتها في العصر الذي نحن بصدده[6].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٥٥؛ ابن خلدون: ٢/٩٣٦.
(٢) ابن الأثير: ٢/٤٤.
(٣) البلاذري: ص ٣١١.
(٤) ن.م. ص ٥٥٨.
(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ١٣/٣ ـ ٢٤.
(٦) كامل ٣/١٣١.

وهكذا أخذ الجيش العربي تجارب إيجابية من نظام الحصار والتطويق الذي عرف في العصر النبوي الذي استخدمت فيه أسلحة الرمي الثقيلة كالمنجنيق حسبما تقدّم، مع الصمود في تطويق الحصون ومنع دخول الماء والمؤن إليها، كما هو الشأن في حصار حصون خيبر وفدك ووادي القرى والطائف. وكانت هذه الحصون تفتح واحداً واحداً[١]، حتى لا تتوزع قوى الجيش الإسلامي عبثاً. وهكذا حوصر بنوقريظة قرابة أربعة أسابيع، وحوصر أهل وادي القرى أياماً[٢]. وكذلك تعرّض المسلمون للحصار في منطقة المدينة التي طوقتها الأحزاب المتواطئة في غزوة الأحزاب، والتي أشار فيها سلمان الفارسي على الرسول (ص) بحفر خندق يمنع المهاجمين من الزحف بخيلهم، وساهم الرسول بنفسه في عمليات الحفر تنشيطاً لأنصاره المسلمين[٣].

وفتحت مراكز كثيرة إما عنوة أو صلحاً في العهد الراشدي بعد حصار لمدة قد تقصر أو تطول، بما في ذلك جملة من المراكز الفارسية[٤]، وطوقت دمشق لمدة سبعين يوماً، وحجزت قوة الفرسان نجدة بيزنطية، وضربت دمشق بالمجانيق ثم تسلّقت مجموعة من الجند العربي بسلالم من الحبال أسوار دمشق حيث تمكّنت من مهاجمة الحامية وتسهيل دخول الجيش العربي[٥]. وخضعت حمص أيضاً لحصار طويل وحَجْزٍ لكل نجدة حتى فتحت[٦]. وضربت المدائن الغربية بعشرين

---

(١) المقدسي: البدء ٤/٢٢٥.
(٢) الكامل ٢/١٢٧.
(٣) المقدسي: م.س. ص ٢١٧.
(٤) البلاذري: فتوح، ص ٥٦٨ ـ ٥٧٤.
(٥) الكامل ٢/٢٩٤.
(٦) ن.م. ص ٣٤١.

منجنيقاً وأحضرت الدبابات لاقتحامها وطال حصارها شهرين[١]. وافتتحت الحيرة حصناً حصناً وداراً داراً[٢].

وعندما تحصن الفرس بخنادقهم حول جلولاء طوقهم المسلمون ثمانين يوماً، ثم أخذ المركز الرئيسي لجلولاء بعد ذلك وهلك عشرات الألوف من الفرس في هذه المواجهة[٣] . وقد اضطر معاوية إلى هدم مختلف التحصينات التي انجلى عنها البيزنطيون فيما بين أنطاكية وطرطوس، أثناء خلافة عثمان (رض).

حماية الثغور والمراكز المفتوحة

هناك نص بالغ الأهمية في مدى تقدير العرب لمسؤوليتهم في حماية المراكز المفتوحة، وقد أورده البلاذري منسوباً إلى صاحبه حيث يقول[٤] : «أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل، فكتب إليه في مرمة (ترميم) حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها». وهذا التدبير الوقائي على نطاق واسع ودقيق، من الحرص على الترميم وشحن المحارس واتخاذ النيران للإشارات الاصطلاحية يأتي من مسؤول يعيش عيشة البدو، إنما يعطي معنى عميقاً لديناميكية الثورة الإسلامية التي انطلقت يقظة وبناءة عكس الفكرة الخلدونية التي تتخذ من تحديات النقض والهدم

---

(١) ن.م. ص ٣٥٥؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون: ٩٣٦/٢؛ والمقدسي: ١٧٧/٥.

(٢) الطبري: ١٢/٤.

(٣) ابن خلدون: ٩٤٠/٢ ـ ٩٤١.

(٤) البلاذري: ص ١٧٥.

عند بني هلال بعد قرون، صورة شبه عامة عن طبيعة المجتمع العربي البدوي.

وقد جدد عثمان بن عفان بعد توليته، تعليمات عمر بشأن حماية السواحل وتعميرها وتوزيع أراضيها المجلوّ عنها للمستحقين(١). ومن الاحتياطات العسكرية التي اتخذها عمر لحماية المراكز المفتوحة، تخصيص عدد معين من الخيل في كل من المراكز الثمانية الكبرى كالبصرة والكوفة لتكون تحت تصرّف الحاميات والجيوش المحاربة(٢). وكلما فتح مركز جديد خصص له من الحامية ما يلزمه وأقطع الجيش ما يتوفر من الأراضي المجاورة لاستغلالها والاستقرار بها قريباً من المركز المجاور(٣). وهذا نظام له سوابق عند الوندال والرومان وغيرهم. وبلغ من اهتمام عمر بن الخطاب بحماية السواحل والعناية بها مدنياً وعسكرياً أن عينّ عليها عاملاً خاصاً هو عبد الله بن قيس(٤).

ويبدو أن نظام المرابطة بالثغور البحرية والبرية قد عرف طريقه رسمياً لأول مرة في عهد عمر قبل أن يصبح شائعاً على النطاق الشعبي التطوعي، وهكذا وجه عمر إلى أبي عبيدة أمراً بتخصيص مجموعة من المرابطين بحصن انطاكية لحمايتها(٥) قبل أن تصبح المرابطة بالثغور شعبية في نفس العهد. والواقع أن نظام المرابطة الرسمي ما هو إلّا شكل من نظام الحامية، فقد كانوا مرتزقة تؤدى لهم رواتب معينة كما هو الشأن بأنطاكية والاسكندرية(٦) ثم خصصت لهم إقطاعات. وقد

---

(١) البلاذري: ص ١٧٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٧١؛ وانظر الطبري: ٥/٤٥.
(٣) البلاذري: ص ١٧٥.
(٤) الطبري: ٤/٢٠٣.
(٥) البلاذري: ص ٢٠١.
(٦) ن.م. ص ٣١٣؛ وانظر بشأن مرابطة الاسكندرية أيضاً ص ٣١٠.

كان اهتمام العرب شديداً بثغور الشام والجزيرة نظراً لما للبيزنطيين من قوة برية وبحرية معاً[١]، كما حرص الخلفاء على تحصين الاسكندرية وشحنها بالعتاد لنفس السبب.

الأسطول والقتال البحري

يظهر أن أول محاولة للقتال البحري أو بطريق النقل البحري على الأقل كانت في العهد النبوي، حيث بعث الرسول سرية إلى الساحل بمراكب الحبشة سنة ٩ هـ، من دون أن تصادف حرباً[٢]، واستعملت السفن في نقل الجنود من أمغيشيا إلى الحيرة بالعراق بقيادة خالد بن الوليد في عهد أبي بكر[٣]. ولم يكن العلاء الحضرمي أول من ركب البحر للغزو كما يقول المقريزي[٤]، وقد نقل الجيش من البحرين إلى فارس عبر البحر وكان ذلك في عهد عمر. أما القتال البحري نفسه بأسطول عربي فبدأ في أول خلافة عثمان على يد معاوية بن أبي سفيان، حيث تمكّن من استرداد سواحل الشام من يد البيزنطيين ثم حاصر طرابلس براً وبحراً وقطع عنها الميرة إلى أن انجلى الروم عنها تلقائياً[٥]. وقد استعملت السفن لنقل الجنود عبر دجلة إلى المدائن لفتحها سنة ١٦ هـ. وقيل إن محاولة لغزو سواحل الحبشة سنة ٢٠ أو ٣١ تمت بقيادة علقمة المدلجي[٦]، لكن المسلمين تكبدوا فيها خسائر مما جعل عمر يصر على أن لا يغزو أحد من الجيش في البحر بعد ذلك، وهذا على القول بأن المحاولة كانت سنة ٢٠.

---

(١) ن.م. ص٢٧٨؛ ابن خلدون: ٩٤٧/٢.
(٢) المقدسي: البدء ٢٣٩/٤.
(٣) كامل ٢٦٥/٢؛ ابن خلدون: ٨٩١/٢.
(٤) المقريزي: خطط ١٠٣/٣؛ وانظر ابن الأثير: الكامل ٢٥١/٢، و٢٧٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٢٩٦/٢.
(٦) ن.م. ص٣٩٨.

وفي عهد عثمان تم فتح قبرص بقيادة معاوية والي الشام، ولكنهم أعانوا الروم بسفنهم ضد المسلمين فغزاهم معاوية ثانية بخمسمائة مركب وفتح قبرص عنوة سنة ٣٢ وشحنها باثني عشر ألف مقاتل نظامي(١). وكان الأسطول الإسلامي تحت القيادة المباشرة لأمير البحر عبد الله بن قيس، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر الذي كان قائداً بحرياً عظيماً(٢).

وكانت معركة ذات الصواري باتجاه الاسكندرية أهم وقعة بحرية تواجه فيها المسلمون والبيزنطيون في العهد الراشدي. وقد سبق تفصيلها في أحداث عهد عثمان(٣). ووصف شاهد عيان هذه المعركة فقال(٤): «رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج، وإن عليه لمثل الظّرب العظيم من جثث الرجال، وإن الدم لغالب على الماء، ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذاً صبراً لم يصبروا في موطن قط». وقد واجه المسلمون ما بين خمسمائة وستمائة سفينة للروم، بحوالي مائتين أو تزيد، وكانت قيادة الأسطول الإسلامي لعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

ومن أمراء البحر في صدر الإسلام(٥):

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٢٠٨؛ وقيل سنة ٣٣. الذهبي: العبر ١/٣٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣/٤٨.

(٣) انظر كذلك: الطبري: ٥/٦٨؛ ابن الأثير: الكامل ٣/٥٨؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٠؛ المقريزي: ٣/١٠٤؛ الحافظ الذهبي: العبر ١/٣٤.

(٤) الطبري: ٥/٧٠.

(٥) انظر بعض ما يتعلق بهذا الموضوع في: الكامل ٣/٤٨ ـ ٤٩؛ الخطط ٣/١٠٤؛ الطبري: ٥/٥٢، ٦٩.

١ ــ علقمة المدلجي الذي غزا سواحل البحر الأحمر وسواحل الحبشة.

٢ ــ عبد الله بن قيس فاتح قبرص الذي قيل إنه وفق في خمسين غزوة ما بين بحرية وبرية.

٣ ــ عبد الله بن سعد الذي ساهم في إعادة فتح قبرص وفي فتح مصر كما قاد الأسطول في معركة ذات الصواري.

٤ ــ عقبة بن عامر الجهني الذي تولى غزو رودس وكان تابعاً لمعاوية والي الشام.

وإذا كان للعرب مراكب للنقل على طول سواحل شبه الجزيرة تقريباً، فإن أهم الموانىء والترسانات هي التي تخلت عنها الإدارة البيزنطية كالاسكندرية وعكا وأنطاكية، غير أن بناء البصرة جعل للإدارة المركزية موقعاً مائياً عظيم الأهمية في الميدانين التجاري والعسكري، وبالطبع كان تجهيزه لصالح التجارة الدولية والمحلية لأنه يتصل بالأنهار الداخلية بالعراق أيضاً.

تنسيق العمليات والاستخبارات

إذا كان المسؤول الأول في الدولة الإسلامية يتولى تقرير الحرب أو السلم فإنه لا يلجأ إلى ذلك إلّا بعد استشارة أركان حربه. وهكذا فإن معركة بدر لم يتم البت فيها إلّا بعد استشارة الرسول عليه السلام للقادة والمستشارين كأبي بكر وعمر والمقداد بن الأسود وسعد بن عبادة[1].

---

(١) المقدسي: البدء ٤/١٨٧ ــ ١٨٨.

وتولى الرسول بمبادرة انفرادية التفاوض مع غطفان على أن يتنازل لها عن ثلث غلات المدينة إذا تراجعت الأحزاب عن اكتساح البلد[1]، ثم استشار الرسول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فرفضا هذا العرض وأشارا بمجابهة الأحزاب. وعمل الرسول بهذا الرأي، ولا ريب أنه أخبر غطفان بتراجعه عن عرضه المذكور.

وكان من عادة الرسول أن يستشير أبا بكر وعمر وعلياً في الأسرى، فاستشارهم في أسرى بدر[2]. فأشار عمر بقتل من استحق القتل، ووافقه عبد الله بن رواحة، فعمل الرسول برأيهما. وكان رأي أبي بكر الفداء بالنسبة إليهم كغيرهم، فلم يعمل به، وقبل الفداء عن آخرين.

وعندما قرر عمر الاستعداد لمواجهة كبرى ضد الفرس في العراق سنة ١٤ استشار الجماهير في مرافقة المقاتلين أو بقائه في العاصمة فكان رأيهم قيادة المحاربين بنفسه[3]. ويبدو أن العامل النفساني تغلب على العامل العسكري في وجهة نظر الجمهور، لأن قيادة الخليفة للجهاد فيه تحميس للمقاتلين. غير أن عمر استشار بعد ذلك وجوه الصحابة ممن يؤخذ برأيهم في الميادين العسكرية والسياسية، ومنهم علي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير، فأشاروا ببقائه[4] وتوجيه قائد مقتدر مكانه فإن وفق فذاك، وإلّا بعث مكانه آخر حتى تتضح النتائج، فعمل برأيهم ووجه سعد بن أبي وقاص[5].

---

(١) ابن الأثير: ٢/١٢٤.
(٢) ن.م. ص ٩٥.
(٣) ن.م. ص ٣٠٩.
(٤) ن.م. وص.
(٥) ن.م. ص ٣١٠.

ودعا عمر هيئة أركانه إلى الإدلاء بوجهة نظرهم فيما يخص توجهه إلى فارس سنة ٢١ للقيام بهجوم حاسم على الفرس. كما طلب منهم أن يأخذوا الكلمة دون إسهاب حتى تبقى آراؤهم مركزة حول النقطة التي استشارهم من أجلها. وقد عمل برأي من أشار ببقائه وإسناد القيادة إلى وال جديد على الكوفة التي تظل محتشداً وخطاً للرجعة عند الاقتضاء(١).

وتخضع تحركات القادة والجيش من واجهة إلى أخرى لتعليمات محددة أو لإذن خاص من الخليفة الذي يحرص على تتبع هذه التحركات كتابة وبدقة(٢). ويتولى القائد الرئيسي بالواجهة إنذار السلطة العليا بالمنطقة قبل المواجهة. وعلى سبيل المثال نرى خالد بن الوليد يوجه إلى حكام الفرس والموالين لهم بالعراق خطاباً للدخول في الدعوة الإسلامية أو لتحمل عواقب رفض هذه الدعوة(٣): «... فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونَجُزْكُم إلى غيركم، وإلاّ كان ذلك وأنتم كارهون، على يد قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

ويدعو عمر سعد بن أبي وقاص إلى مفاوضة يزدجرد لنفس الغاية، ويأمره أن يوجه إليه وفداً. وكان الأمر كذلك، وأصر يزدجرد على متابعة الحرب(٤). ومن تعليمات عمر إلى سعد أن لا يتسرع إلى مهاجمة الحشود الفارسية عند القادسية(٥)، كما نصحه وهو يعيّنه على رأس القيادة العربية بالواجهة الفارسية أن يتتبع سنة الرسول في

---

(١) الطبري: ٤/٢٣٧ ــ ٢٣٨.
(٢) ابن خلدون: ٢/٨٨٧.
(٣) ابن خلدون: ٢/٨٩٢؛ الطبري: ٤/١٨.
(٤) ن.م. ص ٨١٩؛ ابن الأثير: ٢/٣١٥.
(٥) ابن الأثير: ٢/٣١٩.

الحرب[1]. وعندما عينّ عتبة بن غزوان على البصرة كلفه أيضاً بالقيادة العسكرية للأراضي المتاخمة ونهاه أن يهتم بما تدره الحرب من غنائم وأمره أن يعمل لأجل الصالح العام[2].

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام بوصايا عميقة المعاني وتدل على تبصّر ومعرفة نافذة بظروف الحروب ومتطلباتها. ومما ورد فيها[3]:

«يا يزيد، سر على بركة الله، فإذا دخلت بلاد العدو، فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء، ولا تقاتل بمجروح، فإن بعضه ليس منه، الخ. . .».

ومن تعليمات عمر لأبي عبيدة بن الجراح وقد عينه قائداً عاماً بالجبهة الشامية[4]:

«اسمع من أصحاب النبي (ص)، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً، بل اتئد، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلّا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف».

وكلما عقد عمر لواء نهى عن الجبن عند اللقاء، وقتل الهرم والمرأة والصبي والتمثيل بالقتلى[5]. وكان حريصاً على عدم الزج بالجيش في مغامرات يبعد فيها عن محتشداته ومراكز إمداده[6]. ونجد

(١) ابن خلدون: ٢/٩١٧.
(٢) ابن الأثير: ٢/٣٣٨؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٨٦.
(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/١٠٨؛ ابن الأثير: ٢٧٦ ــ ٢٧٧.
(٤) ابن خلدون: ٢/٩٠٨.
(٥) عيون الأخبار ١/١٠٧.
(٦) الطبري: ٤/١٨٢، ٢٣٢، ٥٤.

تعليماته في منتهى الدقة أثناء الاستعداد لحرب القادسية، وهو ينصح القائد سعد بن أبي وقاص بوضع المسالح في أماكن معينة، وترتيب المحاربين في مواقع محددة، ويلح عليه في تزويده بمعلومات عن تجمعات العدو وتحركاته[1] .

ومن تعليمات علي لجيشه في حرب صفين[11] :

«لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس» .

ولم تكن التعليمات الخلافية وحدها مداراً للاحتياطات العسكرية الواجب اتباعها من لدن الجيش، فقد كان لا بد من التعرّف عن طريق مخبرين إما مسلمين أو من الأعداء على مكامن الضعف والقوة لدى الطرف الآخر، ونرى اللجوء إلى الاستخبارات مما يطرد إجراؤها باستمرار في العهد النبوي ثم الراشدي، فإن الرسول عليه السلام لم يكن يقوم بأي تحرك نحو المواجهة إلّا بعد عملية استطلاعية يندب لها مخبرين أكفاء، وهكذا بعث علياً والزبير ليتعرفا على أحوال المعسكر القرشي في بدر[2]، فوجدا سقّاءً من هذا المعسكر، زوّد الرسول بمعلومات وافية عن تجهيزات قريش. وقبل ذلك بعث بمخبرين اثنين هما عدي بن أبي الزغباء، وبسبس بن عمرو، ليتعرفا على وقت مرور

---

(١) ن.م. ص ٨٩ــ٩٠؛ وانظر نموذجاً آخر في دقة تعليمات عمر: ابن الأثير: ٣/٢٥ .

(٢) ابن الأثير: ٢/٨٣.

القافلة التي يقودها أبوسفيان، وفعلاً أدّيا مهمتهما[1]، بل إن الرسول وجه بمخبرين آخرين إلى طريق الشام، وهما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد وعادا يوم بدر، من غير أن يشتركا فيها، ولكن نالا سهمهما من الغنائم كما لو شاركا فعلاً[2].

وفي غزوة الأحزاب بعث النبي (ص) بسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوان بن جبير، ليتعرفوا على نوايا بني قريظة الذين كانوا في معاهدة سلم مع الرسول، فوجدوهم قد تهيأوا للغدر ومجابهة القوى الإسلامية، وبذلك اطلع الرسول مقدماً على حقيقة أمرهم[3]. وشاءت الأقدار أن تهب ريح عاصف على مخيم قريش وغطفان، فأقلعت خيامهم وأثاثهم[4]، فبعث الرسول حذيفة بن اليمان ليستخبر عن نواياهم، فأتاه بخبر رحيلهم، وحذيفة هذا من الموالي الذين تولوا منصب القيادة في الفتوح الإسلامية[5].

وقبل فتح مكة، اتخذ العباس بن عبد المطلب مبادرة باستطلاع أحوال قريش وموقفهم من الحرب أو السلم، وتمكن من أن يستميل أبا سفيان حتى يعتذر عما سلف منه ويسلم. وكان الأمر كذلك، حيث إن إسلام أبي سفيان كان له أثر كبير في عدم مجابهة قريش للنبي بالحرب في فتح مكة[6].

---

(١) المقدسي: البدء ٤/١٨٦؛ ابن عبد البر: الاستيعاب ١/١٩٠.
(٢) الغلامي: أصحاب بدر ص ٦١.
(٣) ابن خلدون: ٢/٧٧٤.
(٤) ن.م. ص ٧٧٧.
(٥) الاستيعاب ١/٣٣٤.
(٦) ابن خلدون: ٢/٨٠٤.

وأرسل النبي عليه السلام قبل غزوة حنين، عبد الله بن أبي حدود الأسلمي ليستعلم عن معسكر ثقيف، وهوازن وما يروج بشأن الحرب[1]، وقام أنيس بن مرثد بمهمة[2] مماثلة.

وقبل غزوة أحد، بعث النبي بأنس بن فضالة وأخيه مؤنس، بعد أن اقتربت قريش من أحد «فأخبراه خبرهم وعددهم ونزولهم حيث نزلوا»[3] ، واختلطا بمعسكر قريش كأنهما منه[3] .

وممن تولوا إخبار الرسول بأوضاع قريش في مكة خلال الاستعداد لصلح الحديبية، بُشْر بن سفيان[4] .

وحينما تولى خالد قيادة جبهة الشام بث المخبرين في المنطقة كما وزع فرق المراقبة العسكرية[5]. وقد استعان المثنى بن حارثة في تعرفه على طريق سوق بغداد بمجموعة من الأدلاء أخذهم من الأنبار[6]. ومعظم معاهدات الصلح التي تتم بين الطرف الإسلامي والجهة المفتوحة تنص على أن يلتزم المغلوبون بتزويد الفاتحين بأخبار الجهات المعادية. ولكي يقتحم الجيش الإسلامي موقعاً آمناً من دجلة في بعض حروبه، استعان قائد الجيش، سعد بن أبي وقاص بخبراء من الفرس[7].

---

(١) ن.م. ص ٨١٢.
(٢) استيعاب ١/١١٤.
(٣) ن.م. ص ١١٢.
(٤) ن.م. ص ١٦٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٨٤؛ ابن خلدون: ٢/٩١٣.
(٦) ن.م. ص ٣٠٦.
(٧) المقدسي: البدء ٥/١٧٧.

وكان للجيش كلمة سر خاصة بكل معركة، ومن شعارات السر زمن الرسول في بدر: يا منصور، وفي حنين: حم، لا ينصرون[1].

وعملاً بالرخصة الشرعية، ومحافظة على معنوية الجيش واستعداده البدني فإنه يفطر خلال الغزوات والحروب[2]. ويتم تصفيف الجنود عند التأهب للمعارك وقد يزجر القائد من لا يلزم صفه[3]. أما تموين الجيش فيختلف حسب الظروف، فقد يتزود رأساً من العاصمة، وقد يكون عليه أن يقوم بعمليات النهب في الأسواق والحظائر مما يدخل في عمليات الحرب البسيطة[4].

غير أن الحاجة إلى المال في العهد النبوي كانت آكد منها في العهد الراشدي الذي اتسعت فيه الفتوح ونمت الموارد. ويظهر أن غزوة مؤتة تطلبت استعداداً مادياً كبيراً، فقد كان عدد الجند يقدر بثلاثة آلاف جندي، وأهاب الرسول بالصحابة أن يكتبوا بقسط من أموالهم لتجهيز الجيش[5]، فأنفق أبوبكر ما توفر لديه من مال، وصرف عثمان نفقات ضخمة قدّرت بألف دينار وعدد كبير من الإبل ونحو خمسين فرساً[6]. وسمي هذا الجيش جيش العسرة، لأن الناس كانوا في عسر وهم ينتظرون غلاتهم. واكتتب عبد الرحمن بن عوف بأربعمائة دينار لكل واحد من مائة رجل عاشوا بعد معركة بدر[7].

---

(١) الكتاني: التراتيب ٣٢٨/١.
(٢) الطبري: ٧١/٤؛ ابن الأثير: ٢٧٤/٢.
(٣) الطبري: ٧١/٤، ٧٣، ٧٤.
(٤) البلاذري: فتوح ص٣٥٧؛ الطبري: ٢٧/٤؛ ابن الأثير: ٣١٤/٢، ٣١٦.
(٥) ابن الأثير: ١٨٩/٢ ـ ١٩٠.
(٦) الغلامي؛ أصحاب بدر ص٥٣؛ ابن خلدون: ٨١٩/٢.
(٧) الغلامي: ن.م. ص٦٩؛ ابن الأثير: ٨٤/٢.

ولم يكن اللجوء إلى التجنيد الإجباري إلّا في حالات نادرة وخاصة بشبه الجزيرة، فإن ارتداد معظم سكانها اضطر الخليفة أبا بكر إلى إلزام المراكز القليلة الباقية على الإسلام بتقديم أعداد معينة من المجندين لمجابهة الردة[1]. وإذا كان الرسول عليه السلام قد تولى بنفسه قيادة الغزوات فإن مشاركة أبي بكر في الحروب اقتصرت على بعض أنحاء الجزيرة في حروب الردة[2]، بينما قاد علي بن أبي طالب عدة حملات ومواجهات قبل الخلافة وبعدها.

وإذا تم التنسيق والتعاون بين القواد أو بينهم وبين العمال في ظروف حسنة فإن ذلك يضمن نتائج إيجابية على المستوى العسكري كما حدث في حروب فارس[3].

أعداد الجيش

وإذا كان الجيش الإسلامي ضعيف العدد في مواجهاته الأولى أيام الرسول (ص) فإن أعداده ستنمو باطراد تبعاً لاتساع الرقعة المفتوحة، فإن معركة بدر لم يساهم فيها أكثر من ٣١٤ رجلاً مقابل ٩٥٠ لدى قريش. وفي أحد ألف مقاتل مقابل ثلاثة آلاف لقريش، وفي مؤته ثلاثة آلاف في مواجهة مائة ألف إلى مائتي ألف[4]! وفي فتح مكة عشرة آلاف، وفي حنين ١٤ ألفاً[5] وفي تبوك ثلاثون ألفاً، منها

---

(١) ابن خلدون: ٢/٨٦٣.

(٢) ن.م. ص ٨٦٦.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٥٤٦.

(٤) المقدسي: البدء ٤/٢٣١؛ وعند ابن خلدون: ٢/٩٠٠، كانوا مائتين وأربعين ألفاً.

(٥) ن.م. ص ٢٣٦.

عشرة آلاف فارس، واثنا عشر ألف راكب (جمل) وثمانية آلاف راجل[١].

على أنه لا يمكن الاطمئنان للأعداد المروية إلا بصورة تقريبية، خصوصاً مع اختلاف الروايات. ومن تقديرات جيش الشام قبيل وفاة أبي بكر: ٤٦ ألفاً[٢]، وجيش القادسية من تسعة آلاف إلى عشرة آلاف[٣] مقابل مائة وعشرين ألفاً، وقيل نصف هذا العدد بالنسبة للفرس، وقيل ثلثه[٤]!. وحضر وقعة جلولاء حوالي ١٢ ألفاً[٥]. وقيل إن المحاربين في نهاوند كانوا ثلاثين ألفاً مقابل ١٥٠ ألفاً[٦]. وإن المحاربين في مصر كانوا زهاء ١٥ ألفاً[٧]. وفي إفريقية ١٠ آلاف مقابل ١٢٠ ألفاً من أنصار جرجير[٨]. ومن تقديرات جيش علي في حرب صفين ٩٠ ألفاً وفي جيش معاوية بضعة وثمانون ألفاً[٩]. ويظهر أن هذا أكبر عدد حشد في أية معركة من الجانب الإسلامي في صدر الإسلام، لولا أن الحرب حرب إخوة كما يقال.

---

(١) ن.م. ص ٢٣٩.

(٢) ابن خلدون: ٩٠١/٢.

(٣) البلاذري: ص ٣٥٧.

(٤) الذهبي: العبر ١٩/١.

(٥) البلاذري: ص ٣٦٨؛ والمقدسي: ١٧٨/٥.

(٦) ابن الأثير: ٣/٣ ــ ٤.

(٧) البلاذري: ص ٣٠٠ و ٣١٠.

(٨) ابن الأثير: ٤٥/٣.

(٩) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨٠/٥.

الرايات

إن الرّمز الأساسي لفرق الجيش هو الراية واللواء. والراية أو العلم يحملها القائد الرئيسي المباشر للمعركة أو مساعده. ويعهد بحمل الراية إلى من عرف بالشجاعة وروح التضحية وهو قبل المعركة يرشد الجيش إلى المسالك، وفي الحرب يضمن التفاف الجيش حوله. والعادة أن الطرف المعادي يوجه طعناته إلى حامل الراية قبل غيره حتى يثبط من عزيمة الجيش ويعمل بذلك على اختلال صفوفه.

أما اللواء فراية تعقد دليلاً على الإذن بانطلاق الجيش نحو الحرب، وعقد اللواء من التقاليد الحربية القديمة لدى الشعوب. والرايات كما قال الجاحظ خرق سود وحمر وصفر وبيض(١). ويظهر أن كل هذه الألوان قد راجت في رايات وألوية الجيش منذ أوائل العهد الإسلامي(٢)، لا سيما البياض والسواد. وقيل إن الرسول عليه السلام عقد لبعض الفرق راية سوداء عليها هلال أبيض، وإن كان الهلال رمزاً قديماً للبيزنطيين ثم أخذه عنهم العثمانيون فيما بعد، ومن طريقهم انتشر بين الأقطار الإسلامية(٣).

وكان الرسول (ص) إذا وجه سرية عقد لواء وسلمه إلى قائدها ومساعده. وأول لواء عقد في العهد النبوي سلم لحمزة بن عبد المطلب في السنة الأولى في غزوة ودان التي تسمى أيضاً بالأبواء(٤). ولم يحدث

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/١١٩؛ ابن هشام: سيرة ٢/١٨٦.
(٢) الكتاني: الترتيب ١/٣٢٠ ـ ٣٢٢.
(٣) ن.م. ص ٣٢٠.
(٤) المقدسي: البدء ٤/١٨١؛ ابن خلدون: ٢/٧٤٤؛ وفي السيرة لابن هشام: ٢/١٧٠ ـ ١٧١ بعض الخلاف.

فيهـا قتـال (مـع قـريش). وكـان لـواء حمـزه أبيض، وقيـل حمله أبو مرثد[1].

وفي غزوة بدر، حمل اللواء مصعب بن عمير، وراية المهاجرين علي بن أبي طالب، وحمـل أنصاري رأيـة الأنصار[2]، وربمـا كانت الرايتان سوداوين[3]. وفي غزوة أحد حمل اللواء مصعب بن عمـير أيضاً[4]. فلما قتل حمله علي بن أبي طالب. وبعد واقعة أحد استعد بنو أسد لغزو المدينة، فوجه إليهم النبي سرية بقيادة أبي سلمة الذي عقد له لواء[5].

وعند افتتاح أحد حصون خيبر عقد النبي راية لعلي[6] الذي ظل يؤدي هذه المهمة إلى جانب النبي خلال فتح سـائر حصـون خيبر[7]، كما أنه حمل الراية في غزوة بني قريظة[8].

وفي معركة مؤتة التي واجه المسلمون فيها بجيش صغير قوات ضخمة من الروم وأنصارهم العرب عين الرسول ثلاثة قادة يتولون حمل الراية على التوالي، كلما استشهد واحد خلفه الذي يليه[9] .

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٧٧ ـ ٨٨.
(٢) ن.م. ص ٨٣.
(٣) ابن خلدون: ٢/٧٤٩.
(٤) ابن الأثير: ٢/١٠٨.
(٥) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٢٨١.
(٦) البدء ٤/٢٢٦.
(٧) ابن خلدون: ٢/٧٩٥.
(٨) ن.م. ص ٧٧٧.
(٩) البدء ٤/٢٣٠؛ ابن الأثير: ٢/١٥٩؛ ابن خلدون: ٢/٨٠٠.

وفعلاً قتل زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة.

وفي غزوة تبوك حمل الراية أبو بكر[1] . وعلى العموم يظهر علي بن أبي طالب كحامل للراية في جل المواجهات الكبرى، كما يظهر سعد بن عبادة حاملاً راية الأنصار[2] .

وعند قتال المرتدين عقد أبو بكر أحد عشر لواء بحسب الفرق العسكرية التي وزعها على أنحاء شبه الجزيرة[3] . وفي الحروب الأولى بالشام زمن أبي بكر عقد لواء ليزيد بن أبي سفيان وحمله معاوية قبل أن يتولى خالد القيادة العامة، وأوصى القادة أن يعقدوا لكل قبيلة لواء. وعندما اقترب خالد من دمشق عند ثنية العقاب نشر راية سوداء كانت للرسول (ص)[4] . وفي المعارك التي نشبت ضد مسيلمة كان لكل من الأنصار والمهاجرين حامل راية خاص بالإضافة إلى الرايات المميزة للقبائل[5]. وهكذا طاف المثنى حول حملة الرايات في حروب العراق يحرض المجندين على الجهاد والثبات[6] .

وعند افتتاح الصدام في المعارك يتولى حامل الراية الإعلان عن الهجوم بالتكبير. وقد يتكرر التكبير مرات ثلاثاً يستعد الفرسان في

---

(١) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٢٨١.
(٢) ن.م. ص ٢٣٦.
(٣) ابن خلدون: ٢/٨٦٦.
(٤) البلاذري: ص ١٥٠ ــ ١٥٤؛ ابن الأثير: ٢/٢٨١.
(٥) ابن الأثير: ٢/٢٤٥.
(٦) ابن خلدون: ٢/٩١٢.

الأولى على جيادهم وفي الثانية يشرعون أسلحتهم وفي الثالثة يحملون كتلة واحدة[1] على العدو.

وشاركت بكر في حرب صفين إلى جانب علي فأسند قيادتها إلى حضين (بالضاد المعجمة) وكانت له راية سوداء، وضم كل ألوية بكر تحت رايته[2]، وقد نوه بها علي بن أبي طالب شعراً.

تقسيم فرق الجيش

إن التنظيم العسكري عند الفرس والروم يقتضي توزيع الجيش في المعارك إلى مقدمة وساقة وميمنة وميسرة وقلب. وقد أخذ التنظيم النبوي بهذا التقسيم من عهد مبكر بالرغم من أن العرب في شبه الجزيرة لم يكونوا ينظمون حروبهم في العهد الجاهلي. وفي فتح مكة كان على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة الزبير وعلى المقدمة أبو عبيدة[3]. وكان على الساقة في غزوة بدر، قيس بن أبي صعصعة الأنصاري[4]. وفي غزوة مؤتة كان على الميمنة قطبة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري[5].

وقد استمر هذا التوزيع بصورة أكثر دقة في العصر الراشدي تبعاً لظروف الحرب والحاجة، فبالإضافة إلى التقسيم المذكور، هناك

(١) المقدسي: البدء ١٨٢/٥.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨٢/٥.
(٣) ابن خلدون: ٨٠٠/٢ و٨٠٦.
(٤) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٢٢٧؛ ابن الأثير: الكامل ٨٣/٢.
(٥) الكامل ١٥٩/٢ (وفيه عباية عوض عبادة)؛ ابن خلدون: ٧٤٩/٢.

من جهة أخرى قائد على كتيبة الفرسان وآخر على الرجالة [١]، وهكذا، كما نلمس ذلك في حروب المسلمين بفارس.

ووزع خالد جيش الشام توزيعاً بيزنطياً فجعله كراديس أي كتائب كل منها ألف مقاتل [٢]. وقد يستعمل اصطلاح المجنبين أو الجناحين عوض الميمنة والميسرة [٣]. وهناك الطلائع التي تسبق المقدمة وتقوم بدور الاستكشاف. ويصحب الجيش عادة قاض وداعية، أي مرشد ديني وكاتب وحاسب لتقسم الغنائم [٤]. وقد يتدخل الخليفة في توزيع فرق الجيش بالنظر لأهمية المواجهة كما حدث في معركة جلولاء، حيث أعطى الخليفة تعليماته بتعيين قادة معينين على أقسام الجيش [٥].

والأغلب أن يختص الخليفة بالقلب إذا حضر القتال. وينطبق هذا خصوصاً على علي [٦]. ومن البديهي أن يكون القلب مكوناً من عدة فرق أو مجموعات قبلية. ويختص القراء بقائدهم الذي يكون منهم، وقد يتعدد قادة القراء [٧].

وإذا لم تكن فرق الجيش كافية فإنها تتلقى الإمدادات رأساً من

---

(١) البلاذري: ص ٥٣٥، و٥٤٩؛ ابن الأثير: ٣١١/٢؛ الطبري: ٢٤٠/٤؛ ابن خلدون: ٩٧٤/٢، و١١٠٢.
(٢) ابن خلدون: ٩٠١/٢.
(٣) ابن الأثير: ٨/٣.
(٤) ابن الأثير: ٣١١/٢.
(٥) الطبري: ١٧٩/٤.
(٦) ابن خلدون: ١١٠٤/٢.
(٧) ن.م. ص١١٠٣؛ ابن الأثير: ١٥١/٣.

المدينة أو من الجهات الأخرى. ونجد حركة الإمدادات لا تنقطع خلال الفتوح [1] وفي حروب معاوية ضد علي [2].

القـــواد

تميز صدر الإسلام بإسناد القيادات العسكرية في معظمها لأكفاء يؤهلهم حماسهم للنضال وثقة المسؤولين الأعلين أو خبرتهم العسكرية لتحمل أعباء القيادة. ويقدم العهد النبوي أمثلة جيدة من الصنفين. فقد كان الرسول عليه السلام يسند قيادة السرايا إلى عناصر أغلبيتها من الشباب الذين يتوقدون عزماً وحماساً. ومن بينهم عكاشة بن محصن [3] في سرية الغمر (أو الغمرة) وهي في الطريق بين مكة والعراق، وأبو عبيدة بن الجراح في ذي القصة (بفتح القاف) على ٢٤ ميلاً من المدينة [4]، وزيد بن حارثة بوادي القرى حيث توجد جالية يهودية، وهي في الطريق بين المدينة ودمشق، وعبد الرحمن بن عوف بدومة الجندل التي توجه إليها خالد بن الوليد أيضاً، وهي فيما بين المدينة ودمشق، وعبد الله بن رواحة بخيبر، وعمر بن الخطاب بتربة (بفتح الراء)، وهي واد قريب من مسلة [5] ينبع من جبال السراة، وعلى ضفتيه واحة تمتد على مسافة كبيرة، وعمرو بن العاص بذات السلاسل بالشام [6]، وقد اتبعت هذه السرية بأخرى بقيادة أبي

---

(١) المقدسي: البدء ٥/١٧١؛ ابن الأثير: ٢/٢٨٦، ٣١٠، ٣٤٧؛ ابن خلدون: ٢/٨٨٨.

(٢) الطبري: ٥/٢٣٧؛ ابن الأثير: ٣/١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٣٢.

(٤) ياقوت: معجم البلدان (قصة).

(٥) البدء ٤/٢٢٧.

(٦) ن.م. ص ٢٣٢.

عبيدة، ومعه أبو بكر وعمر، لأن عمرو بن العاص جبن عن المواجهة وحده[1]، وعلقمة المدلجي، إلى ساحل البحر الأحمر[2] وهي سرية فريدة في العهد النبوي، لأن مهمتها كانت الغزو عبر شاطىء البحر الأحمر، وأسامة بن زيد إلى البلقاء بفلسطين[3]، وحمزة بن عبد المطلب إلى جهينة، وهي من قبائل قضاعة على ساحل البحر الأحمر شمالاً[4].

وأعظم سرية هيأها الرسول دون أن يبقى على قيد الحياة لتتبع أحوالها هي سرية أسامة التي خصصها للبلقاء. وأثار تعيين هذا الشاب على رأس المهاجرين والأنصار انتقادات عدد منهم. ومع ذلك فقد نفذ أبو بكر وصية الرسول بشأنها بمجرد استخلافه.

وتعد حروب الردة محكاً دقيقاً لكفاءة القادة الذين ساهموا فيها والذين عملوا بإشراف أبي بكر لأول مرة كشرحبيل بن حسنة والعلاء بن الحضرمي وخالد بن سعيد بن العاص. ومن أبرز القادة عمرو بن العاص الذي ساهم في حروب الردة والشام وفتح مصر، وأبو عبيدة بن الجراح الذي أتم فتح الشام بعد خالد، وسعد بن أبي وقاص الذي فتح العراق وجزءاً آخر من الامبراطورية الساسانية.

وعدد كبير من قادة الجيوش تولوا في نفس الوقت مهمات سياسية إدارية كأبي عبيدة الذي تولى عمالة الشام بعد استتمام فتحها ومعاوية بن أبي سفيان وآخرين. وبعضهم يتخذ المبادرة بالتوسع في الفتح إذا لم يكن هناك خطر على الجيش[5]. وقد يغامر بالتوغل في

---

(١) ابن الأثير: ٢/١٥٦.
(٢) ن.م. ص ٢٣٩.
(٣) ن.م. ص ٢٤١.
(٤) الغلامي: أصحاب بدر، ص ٧٤.
(٥) البلاذري: ص ٥٤٤.

أرض العدو مما يسبب تعرض الجيش للخطر[1]، وإن كان هذا نادراً.

وليس من حق القائد العام أن يعين المساعدين له باستمرار، لأن الخليفة ينظر إلى المصلحة العسكرية بمنظار أوسع، ومن ثم فهو يفرض على القائد العام قواداً معيّنين على فرق الجيش، وهم عادة ممن لا يمكن الطعن في أهليتهم[2]. وإذا برهن أحد القواد عن كفاءته في حرب بإحدى الواجهات فقد يدعى إلى القيادة في واجهة أخرى أو أكثر[3]. ونجد في فتوح فارس وخراسان وكابل قائداً محنكاً هو عبد الله بن عامر بن كريز[4] الذي سانده قواد لا يقلون عنه خبرة كالأحنف بن قيس وعبد الله بن حازم السلمي[5]. وواجه معاوية علياً في حرب صفين بقواد أكفاء كما فعل علي، وجلهم ممن عركوا الحروب والفتوح[6]. ويتكاثف القواد بجيوشهم في الحروب كما حدث في فتح قبرص والشام وغيرهما.

ويُعَدُّ خالد بن الوليد أبرز القادة العسكريين في صدر الإسلام. ولا مراء في أنه من أعظم القادة العسكريين في تاريخ الخلافة الإسلامية جملة. وقد برز وهو بعد في صف المشركين بغزوة أحد، ثم أسند إليه الرسول مهمة فتح مكة إلى جانبه. وظهرت عزيمته ومبادراته العسكرية في حروب الردة ثم بالعراق والشام. واعترف أبو بكر

---

(١) ابن الأثير: ٢/٣٧٦.
(٢) الطبري: ٤/١٧٩.
(٣) البلاذري: ص ٢٧٧ و ٢٨٧.
(٤) المقدسي: البدء ٥/١٠٩؛ ابن خلدون: ٢/١٠٠٩.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٥٧.
(٦) ابن الأثير: الكامل ٣/١٥٠.

الصديق بمقدرته في أمر وجهه إلى أبي عبيدة بالشام وفيه يقول[1]:

«. . . أما بعد، فإني قد وليت خالداً قتال العدو بالشام. فلا تخالفه، واسمع له وأطع، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك؛ أراد الله بنا وبك خيراً، والسلام».

وكتب خالد إلى أبي عبيدة كتاباً في غاية الرقة والاحترام والتواضع وهو يخبره بقرار الخليفة[2] بتعيينه قائداً عاماً بجبهة الشام. وكانت وفاته بسوريا[3] سنة ٢١. وقد عزله عمر بن الخطاب عن القيادة سنة ١٧ وعامله بشيء من القسوة كما أوضح ذلك ابن الأثير[4]. ومهما يكن من أمر، فإن عمر لم يغفر لخالد بن الوليد بعض التصرفات التي انتقدها في عهد أبي بكر. ولما كان عمر قليل التسامح بطبيعته فهو لا يحتمل أخطاء القواد بالقدر الذي احتمله سابقه[5]، ولا يتردد في عزل قائد إذا بدا منه ما يعده هو تقصيراً. وهو لم يتردد في عزل شرحبيل بن حسنة من كبار القادة ثم يجد له عذراً في مجلس عام ويقول: إني لم أعزله عن سَخَطة، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل![6].

---

(١) دحلان: الفتوحات الإسلامية ١/٣٩.

(٢) ن.م. وص.

(٣) انظر: الزركلي: الأعلام (خالد بن الوليد)، ومراجعه.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٧٥.

(٥) الطبري: ٤/٢٨.

(٦) ابن الأثير: ٢/٣٩٣.

وقد يتم عزل القائد خضوعاً لضغط الجيش أو السكان كما حصل في عزل أبي موسى الأشعري[1] وغيره.

وكثير من القادة عزلوا مرة أو أكثر ثم عادوا إلى مهماتهم أو عينوا في مهمات جديدة كما هو الشأن بالنسبة لعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وآخرين

طرائق القتال

إذا كان بيت المال يتحمل نفقات التسليح والتجهيز العكسري فإن لكل من أفراد الجيش أن يحمل زاده الخاص إن رغب في ذلك، وله أن يحمل بعض الأدوات الضرورية، بل إن أحد القواد في فتوح فارس كان يلزم جنده بأن يحمل كل منهم بالإضافة إلى درع وترس وبيضة، مسلة وإبراً وخيطاً ومخصفاً ومقراضاً ومخلاة وتليسة[2] (!)

وعلى القائد أن يحمس الجيش للجهاد والقتال خصوصاً في المواجهات الحاسمة[3]. وعند انتظام صفوف الجيش هناك طريقتان إذا تمت المواجهة مباشرة ضد عدو في ميدان واحد، البدء بالمبارزة ثم إتباعه بالهجوم، أو الهجوم دون مبارزة، ونظام المبارزة أو البراز قديم الاستعمال قبل الإسلام. ومن أشهر المبارزين في صدر الإسلام حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب[4]، ومحمد بن مسلمة

---

(١) ابن خلدون: ٢/١٠٠٩.

(٢) البلاذري: ص ٤٤٥.

(٣) الطبري: ٤/٢٤٢؛ ابن الأثير: ٢/٢٨٢ و٣٢٨.

(٤) المقدسي: البدء ٤/٢١٨؛ ابن الأثير: ٢/١٢٤.

والزبير بن العوام[1]. ولجأ المتحاربون في حرب صفين إلى نظام المبارزة فترة قبل الاشتباك العام[2].

ويكبر القائد أو الجيش عند بدء الهجوم[3]. وقد يستخدم التكبير حتى في الهجوم على المدن واقتحامها[4]، أو في مجرد الهجوم المباغت[5]. أي من غير تعبئة تقليدية. وللتكبير مفعول روحي عظيم إذا اقترن بالعزيمة. فعندما صمم المسلمون على الهجوم على جحافل الروم أمام سبيطلة «كبروا وحملوا حملة رجل واحد، حتى غشوا الروم في خيامهم، فانهزموا وقتل كثير منهم»[6].

ولما كانت الخدعة في الحرب مما يدخل في نطاق التخطيط العسكري فقد لجأ اليها المسلمون منذ العهد النبوي أكثر من مرة. وهكذا كان الجيش يتجه بأمر الرسول (ص) وجهة معينة، ثم يغير اتجاهه بعد مسافة حتى يفاجأ العدو. وكذلك عمل الرسول على التفريق بين الأحزاب عن طريق نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أسلم خلال ائتلاف الأحزاب دون علمها، فعمل على خلق الريبة فيما بينها حتى مزق وحدتها بالخدعة[7].

وقبل فتح مكة عمد الرسول إلى توجيه تعليماته إلى الجيش بأن

---

(١) ابن الأثير: ٢/١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) ن.م. ص٣/١٥٠؛ ابن خلدون: ٢/١١٠٣.
(٣) الطبري: ٤/٢٤٢؛ ابن الأثير: ٣/٥؛ ابن خلدون: ٢/٩٣١.
(٤) ابن الأثير: ٢/٣٤٢، و٣/١٢؛ ابن خلدون: ٢/٩٠٥.
(٥) ابن الأثير: ٣/٤٦.
(٦) ابن خلدون: ٢/١٠٠٤ ـ ١٠٠٥.
(٧) البدء ٤/٢١٩؛ ابن الأثير: ٢/١٢٥.

يوقد كل محاربين اثنين نارين عظيمين، إيهاماً لقريش بضخامة الجيش الإسلامي. وأثر ذلك في معنوية قريش فعلاً [١].

ومن باب الخدعة نصب الكمين، كما فعل خالد في وقعة الولجة حيث هاجم الفرس من أمامهم، ونصب لهم كميناً في ناحيتين ففوجئوا بهجوم آخر من الخلف وانهزموا بسببه [٢].

وقد اتخذ القتال على الماء صورة ملحاحاً خلال صدر الإسلام وما بعده، وذلك إما لمنع العدو من ورود الماء أو للدفاع عنه أو لمجرد عبوره. وفي العهد النبوي حاولت بعض عناصر قريش منع جيش المسلمين من الاقتراب من حوض أقاموه بوادي بدر، فبادر حمزة إلى شخص منهم فقطع رجله، وتلا ذلك مباشرة عملية مبارزة بين المعسكرين[٣]. وقاتل الجيش النبوي بني المصطلق وهم على موقع ماء يدعى المريسيع[٤]. وبعث الرسول بسرية يقودها زيد بن حارثة لتعترض قافلة لقريش على موقع مائي يدعى الفردة، في منطقة نجد باتجاه العراق[٥].

وحدثت معارك عديدة على ماء دجلة والفرات في العهد الراشدي كما حدث في وقعة الجسر والقادسية وفي فتح المدائن.

---

(١) بدء ٤/٢٣٣.
(٢) ابن الأثير: ٢/٢٦٤؛ الطبري: ٤/٨.
(٣) ابن الأثير: ٢/٥، ٨.
(٤) ن.م. ص٢١٦.
(٥) ن.م. ص١٠١.

دور المرأة

عالجت كتب الأدب وأخبار العرب التقليدية كثيراً من أوضاع المرأة العربية في الجاهلية والعهود الأولى من الإسلام[1]. ولذلك لا مجال للتوسع في هذا الموضوع هنا حيث يلزم الاكتفاء بما يتعلق بقضايا الحرب وحدها.

وتظهر المرأة في صدر الإسلام غازية ومداوية للجرحى ومساعدة في أعمال الحرب. وممن ساهمن في الحرب بالشام أم حكيم بنت الحارث التي أعرست في معركة مرج الصفر وقتل زوجها ثم التحقت على التو بصفوف المقاتلين فصرعت فيها قيل سبعة من الأعداء[2]. وساهمت أم عمارة بنت كعب في حروب الردة بقيادة خالد، فقطعت يدها في المعارك ضد مسيلمة، وجرحت أو طعنت في أكثر من موضع من جسدها. وقيل إن ولدها عبد الله هو قاتل مسيلمة[3].

وساهمت النساء في معركة اليرموك فأبلين بلاء حسناً[4]، كما تولين مع الصبيان حفر القبور في حرب القادسية[5]؛ والتحقن بصورة مفاجئة بقوات المسلمين قرب الفرات بالمرغاب في العراق وقد اتخذن خمرهن رايات، فهزمن مع الرجال جموع الفرس[6].

---

(١) منها: الأغاني للأصبهاني، والعقد والفريد، والكامل للمبرد. ومن المؤلفات الحديثة: أعلام النساء لعمر رضا كحالة، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفي.

(٢) ياسين العمري: مهذب الروضة الفيحاء، ص ١٨٥.

(٣) ن.م. ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٤) ابن الأثير: ٢/ ٢٨٤.

(٥) ابن خلدون: ٢/ ٩٣١.

(٦) ن.م. ص ٩٤٣.

وتجمعت المعارضة السياسية ضد علي بزعامة عائشة وأدت إلى مواجهة عسكرية (معركة الجمل). واتخذ بعض نساء الرسول الأخريات موقفاً محايداً أو مناصراً لعلي كما سبق في عرض أحداث هذه الموقعة. وفي إطار المعارضة السياسية تبرز المرأة بين جموع الخوارج منذ نشأة حركتهم. ويكاد يكون تخصيص المرأة في صدر الإسلام بدراسة على حدة من قبيل الاحتجاج لواقع معروف من قبل، أي منذ العهد الجاهلي، فلم يكن صدر الإسلام إلا استمراراً بالنسبة لدور المرأة وإن أصبحت هنا تدافع عن عقيدة أو تعارض اتجاهاً سياسياً معيناً.

نتائج الانتصار

إذا تأكد انتصار المحاربين في موقعة أو فتح بادر القائد بإرسال البشير إلى الخليفة يبلغه الخبر. وكان الراشدون يتتبعون أحوال المعارك والتحركات العسكرية إما من طريق مخبرين خاصين أو حسبما يرويه القادمون في القوافل، حتى إن عمر بن الخطاب ظل طيلة حرب القادسية يستخبر الركبان يوميّاً حتى وصله البشير(١). وهو عادة غير من يحمل أخماس الغنائم(٢)، لأن هذا أثقل حملاً وأبطأ سيراً.

وتقدم الروايات أرقاماً ضخمة عن قتلى الأعداء، فقدروا قتلى الفرس في وقعة البويب بمائة ألف وقالوا قد أُحصي مائة محارب قتل كل منهم عشرة(٣). وأُحْصِي من قتلى الفرس في يوم عماس من حرب القادسية عشرة آلاف قتيل، ومن العرب ألفان(٤). وقتل من جيش

---

(١) ابن الأثير: ٢/٣٣٧.

(٢) الطبري: ٤/١٨٧؛ ابن الأثير: ٣/٢٤٣.

(٣) ابن الأثير: ٢/٣٠٥.

(٤) ن.م. ص ٣٣١.

الروم في فتح قيسارية مائة ألف[1]. واحترق أو قتل من الفرس في فتح نهاوند أزيد من مائة ألف[2]. ونجد نفس التقدير يتكرر مرة أخرى في معركة الفراض وهي من تخوم الشام والعراق والجزيرة. وقاد الحرب خالد بن الوليد ضد الروم[3]. وقتل منهم في فحل (بكسر الفاء) ثمانون ألفاً، وذلك في طريق دمشق[4]. وفي معركة الجسر قتل من الفرس مائة ألف (أو يزيدون!)[5] في مقابل أربعة آلاف قتيل من المسلمين[6].

وفي جل المواجهات وفتوح العنوة أو الصلح يحصل المحاربون على غنائم وسبايا وأسرى ويتعين إجراء الصلح إن وقع، طبقاً لعهود ملزمة للطرفين:

١ ـ الغنائم

يتم تقسيم الغنائم والأنفال في عين المكان أو بعد مغادرة أرض المعركة[7]. وقد تبلغ الغنائم قيمة مالية كبيرة. ومن الغنائم الكبرى الأولى في الإسلام غنائم هوازن وحنين حيث أصاب المسلمون «من النعم والأموال ما لا يحصى»[8]. ويخصص الخمس لنظر الإمام حيث يتعين توزيعه على المستحقين. وقد سبق ذكر بعض المبالغ التي حصل

---

(١) ن.م. ص ٣٤٦؛ ويقابل بما عند ابن خلدون: ٢/٩٤٧.

(٢) ابن الأثير: ٣/٦.

(٣) ابن خلدون: ٢/٨٩٧.

(٤) ن.م. ص ٩٠٥.

(٥) ن.م. ص ٩١٣.

(٦) ن.م. ص ٩١١؛ وبالنسبة للدفن راجع بعض النماذج: البدء ٤/٢٠٥؛ ابن الأثير: ٢/٩٠ ٣٠٥؛ ابن خلدون: ٢/٧٧٩، ٩٣٤.

(٧) البدء ٤/١٩٢.

(٨) ن.م. ص ٢٣٧.

عليها المسلمون في عدد من معاركهم نقداً أو عيناً (فصل ٢، قسم ٢). وقالوا إن سهم الفارس في معارك القادسية بلغ اثني عشر ألف درهم[١]. وفي جلولاء تسعة آلاف وتسع دواب[٢]. وقدرت مخلفات بيت المال في المدائن بثلاثمائة ألف قنطار من الدنانير[٣]! وقدرت راية الفرس الكبرى وحدها بمليون ومائة ألف، وقد غنمت في القادسية.

وبيع سفطان مما حصل عليه المسلمون في فارس، بالمزاد العلني فبلغ ثمنهما مليونين من الدراهم وضعا في بيت المال، ثم قبض المشتري فيهما الضعف بعد ذلك[٤].

ولما حمل خمس أفريقية وحدها اشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار ثم حطها عنه عثمان، وكان ذلك مما انتقد عليه[٥]. وحمل بساط لكسرى مرصع باليواقيت ومنسوج بالذهب إلى عمر، فتم تقسيمه وبيعت قطعة منه حصل عليها علي بعشرين ألفاً[٦]. وبلغ سهم الفارس في نهاوند ستة آلاف، والراجل ألفين[٧]. وكان سهم الفارس في سبيطلة ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألفاً[٨].

ويتم تجميع الغنائم على يد قابض. أما نقل الخمس

---

(١) ابن الأثير: ٢/٣٦٠.
(٢) ن.م. ص٣٦٣؛ وابن خلدون: ٢/٩٤١.
(٣) ابن خلدون: ٢/٩٣٢؛ ويقابل بما عند المقدسي: البدء ٥/١٧٧.
(٤) ابن الأثير: ٣/٧.
(٥) ن.م. ص٤٦.
(٦) ابن خلدون: ٢/٩٣٩.
(٧) ن.م. ص٩٧٧.
(٨) ن.م. ص١٠٠٥.

الخاص بالادارة المركزية فيكون على يد مسؤول آخر، بينما يتم قسم الأربعة أخماس الأخرى على يد حاسب وهو غير القابض. وتبلغ نتائج المعركة إلى الخليفة على يد مبشر غير هؤلاء[1].

ويبدو الطابع الاشتراكي واضحاً في عملية تقسيم العائدات الحربية. وهو ينسجم مع العقلية العربية القديمة التي كانت تميل إلى العمل الجماعي داخل النطاق القبلي. ولكن تقسيم الغنائم والأنفال في صدر الإسلام يبدو أكثر ضبطاً ودقة بالنظر لتوزيع المسؤوليات.

٢ ـ السبي والأسرى

كان سبي النساء والأطفال والرجال مما يدخل في عمليات إضعاف معنوية العدو. وإقرار التشريع النبوي للسبي الذي كان شائعاً في الجاهلية يدخل في نطاق الأعراف الدولية كما ظل الأمر كذلك حتى عهد قريب.

وقد تم سبي أطفال بني قريظة بعد مساهمتهم في غزوة الأحزاب، كما سبيت نساؤهم، ومنهن ريحانة القرظية إحدى نساء الرسول[2] (ص). وأجري السبي في أسر بني الملوح من المشركين سنة[3] ٨ هـ. ووقعت في السبي من نساء هوازن أخت للرسول من الرضاعة، فمن عليها وردها مكرمة[4].

وساق المسلمون من هوازن ستة آلاف شخص في غزوة

---

(١) الطبري: ٤/١٧٨؛ ويقابل بما في الصفحات: ١٨٢، ١٨٧، ٢٤٣، ٢٤٤.
(٢) البدء ٤/٢٢٠، ٢٢١؛ ابن الأثير: ٢/١٢٧.
(٣) البدء ٤/٢٣٠.
(٤) ابن الأثير: ٢/١٨٠.

حنين[١] . وقامت سرية أسامة في البلقاء بعمليات السبي والإحراق[٢]. وفي غزوة بني المصطلق سبيت عدة نساء قسمن بين المحاربين، وعرض الرسول على إحداهن وهي جويرية بنت الحارث الزواج فقبلت، وكانت قد رغبت من قبل في فداء نفسها[٣] .

وعند فتح خيبر أصاب المسلمون من سبايا اليهود، ومنهن صفية بنت حييّ بن أحطب شيخ يهود خيبر[٤] ، وقد صارت من نساء الرسول (ص).

ومن أشهر السبايا إحدى بنات حاتم طيّىء، في سرية قادها علي بن أبي طالب قبل غزوة تبوك، وقد من عليها الرسول، وأعادها إلى الشام بين قومها مع مال ومؤونة[٥]، كما أسلم أخوها عدي الذي قدم على الرسول.

وحصل المحاربون على ألف امرأة من السبايا في حروب الردة باليمن[٦]، وبلغ سبيهم في بعض فتوح فارس أربعين ألف شخص[٧] (!). واجتمع السبي لدى المحاربين في أجزاء مختلفة من البلاد كالعراق[٨] ومصر[٩]. وعندما خاطب بعض الأقباط من رجال الدين

---

(١) ابن خلدون: ٨١٦/٢.
(٢) البدء ٢٤١/٤.
(٣) ابن الأثير: ١٣١/٢؛ ابن خلدون: ٧٨٢/٢.
(٤) ابن الأثير: ١٤٨/٢؛ ابن خلدون: ٧٩٥/٢.
(٥) ابن خلدون: ٨٢٦/٢.
(٦) ن.م. ص ٨٦٥.
(٧) البلاذري: ص ٥٥٥؛ ابن الأثير: ٦٥/٣.
(٨) البلاذري: ص ٣٥١.
(٩) ن.م. ص ٣٠٣.

عمرو بن العاص في سبايا مصر حتى يردهن رفض مخاطبتهم في الموضوع وأمر بطرد من حضر منهم (!). إلا أن الخليفة عمر قرر أن ترد سبايا من لم يقاتل أو من أُمِّن وأخذ منه السبي خلال الخمسة أيام الأولى[١]. أما علي بن أبي طالب فكان مذهبه أن لا يهتك ستراً ولا يأخذ مالاً من خصومه المسلمين[٢].

ويتم توزيع السبايا على المحاربين مثلما توزع الغنائم بعد تقويمها. وكذلك يتم توزيع الأسرى مع معاملتهم بالإحسان. ويقدم التشريع النبوي نماذج مختلفة من طرق معاملة الأسرى حسب مواقفهم وظروفهم. فكثير من الأسرى في العهد النبوي كانوا من أقارب الرسول وأصهاره. وإذا كان الرسول يستوصي بهم خيراً فقد يقتضي الحال أيضاً فداءهم وإطلاقهم أو إعدامهم. فعندما استشار الرسول (ص) مجلس الصحابة في أسرى بدر، وجلهم من ذوي الرحم مع الرسول، أشار أبو بكر بإطلاق سراحهم، وأشار عمر بإضرام النار عليهم في حفرة جماعية لإيذائهم للنبي. فاتخذ عليه السلام حلاً وسطاً، وهو أن يفدوا أنفسهم بالمال. وألزم عمه العباس بفداءين[٣]، أحدهما عن ابن أخيه عقيل، كما ألزمه بفداء أشخاص آخرين من قريش، حتى خشي الفقر لذلك. وبالمقابل، أمر بإعدام عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث[٤]، ممن كانوا شديدي الأذى على المسلمين.

ونظراً لموقف بني قريظة، حيث أسهموا في غزوة الأحزاب، مع موادعتهم للرسول، وتآمروا على قتله، فقد نفذ حكم الإعدام في

(١) ابن تغري: النجوم الزاهرة ٢٥/١.
(٢) ابن الأثير: ١٣١/٣.
(٣) ن. ٩٣/٢.
(٤) البدء ١٩٢/٤.

سبعمائة رجل منهم، وهو عدد كبير لم يعرف في حرب أخرى انتصر فيها الطرف النبوي(١) .

وبعد بدر، بعث النبي سرية بقيادة عمير بن عدي الأنصاري لقتل عصماء بنت مروان، وكانت تتآمر على المسلمين، وتهجو الرسول مع بذاءة لسانها، فنفذ أمر الرسول فيها، وهذه من الحالات المحدودة التي تم فيها إعدام امرأة معادية(٢) .

وأطلق النبي بعض الأسرى في بدر بلا فداء، ومنهم أبو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح، واشترط عليه أن لا يناصر أعداء الإسلام، فنقض عهده وحارب في أحد، فأسره المسلمون وأعدمه الرسول(٣).

وقد قسم عمر أربعة آلاف من أسرى حرب قيسارية بعد إنزالهم بالجرف قرب المدينة على يتامى الأنصار، وبعضهم وزعوا على بعض المرافق العامة(٤). وهكذا فقد استغل الأسرى في الأعمال المنزلية وفي المراعي أو الزراعة وأعمال البناء وغير ذلك، وهؤلاء الأسرى هم الذين كونت غالبيتهم طبقة المسلمين من غير العرب في مرحلة صدر الإسلام وبينهم أعداد كبيرة من الموالي الذين فضلوا إثبات انتمائهم بالولاء إلى ملاكهم القدامى بعد إعلان إسلامهم.

٣ ــ عهود الصلح والأمان

انتظمت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أسس مضبوطة منذ

---

(١) ن.م. ص ٢٢٠.
(٢) ن.م. ص ١٩٤.
(٣) ابن خلدون: ٢/٨٦٧.
(٤) البلاذري: ص ١٩٣.

أن حل الرسول بالمدينة ووادع اليهود كعنصر يحظى بكيان اجتماعي خاص ودين سماوي يحترمه الإسلام. وتناولت الموادعة التزامات من الطرفين تضمنها نص شامل(١). أما أول صلح عقد بين المسلمين والمشركين فهو صلح الحديبية الذي حرره علي بن أبي طالب بمحضر الرسول (ص) ومبعوث قريش. وجاء فيه(٢): «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

وعلى هذا فإن عهد الصلح أو الهدنة قد يمتد مفعوله إلى عشر سنين في أقصى الحالات، بينما عهد الأمان يكون من طرف واحد هو الطرف الإسلامي وهو يعطي مهلة للمستأمن للدخول في الإسلام أو لتنفيذ التزامات معينة(٣).

ومن أوائل عهود الأمان النبوية، العهد الذي عقد خلال هدنة الحديبية لخزاعة، على يد رئيسهم رفاعة بن زيد(٤).

وتلتزم عهود الصلح في صدر الإسلام بحماية أهل الذمة مقابل أداء هؤلاء للجزية، وهي تنص على المقادير التي يلتزم بها الذميون للطرف الإسلامي(٥). وقد تضم أسماء الشهود أيضاً(٦). وقد يتعرض

---

(١) هذه الموادعة كانت موضع بحث جامعي قيم لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية للاستاذ خليفة محفوظي (صيف ١٩٧٩م)، الرباط.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٦/١٤.
(٣) ن.م. ج ١٣، ص ٣٢١؛ وج ١٤، ص ٨.
(٤) القلقشندي: ٣٢٣/١٣.
(٥) الطبري: ١٦/٤.
(٦) ن.م. ص ١٧.

البلد المفتوح إلى تقتيل المقاومين وإلى استباحته إذا رفض شروط الإسلام (اعتناق الإسلام، أو أداء الجزية)، بل قد يتم تخريب منشآته العمرانية كما حصل بعد افتتاح قنسرين عنوة[1].

وعلى العموم تتضمن عهود الصلح حرية ممارسة العقيدة بالنسبة لأهل الكتاب وحرية الرعي والتجارة وغيرها مما يهم معاش الطرف المغلوب[2].

وبعض عهود الصلح تلزم المصالحين بإصلاح الطرق وإطعام الجنود المارين بهم وإيوائهم يوماً وليلة[3] وتجنب سب المسلم وإلا عوقب المتهم وإذا تجاوز سب المسلم إلى ضربه أبيح قتل الجاني[4]. ومثل هذه الشروط القاسية لا تتكرر إلا نادراً في صدر الإسلام؛ بل نرى أن بعضها في غاية الاعتدال كعهد الصلح الذي كان بين عمرو بن العاص وأهل مصر[5] وعدد من عهود الصلح الخاصة بالمراكز الأرمينية[6].

أما نقض العهد فيؤدي إلى استحلال قتل من نقضه. وقد ثبت أن الرسول (ص) أباح قتل من نقض العهد إلا أهل مكة الذين عفا عنهم[7]. وكان عمر بن الخطاب قد اشترط على أهل نجران أن

---

(١) ابن خلدون: ٢/٩٤٥.
(٢) البلاذري: ص ١٧٧.
(٣) الطبري: ٤/٢٤٥.
(٤) ن.م. ص ٢٤٨.
(٥) ابن تغري: ١/٢٤.
(٦) البلاذري: ص ٢٨٢ ــ ٢٨٤.
(٧) ن.م. ص ٢١٢.

لا يأكلوا الربا فلما نقضوا عهدهم اكتفى بإجلائهم[1] لأن التعامل بالربا يؤدي الى تورط المسلمين فيه، أي الذي يتعايشون معهم. ولما انتقضت اصطخر من بلاد فارس في عهد عثمان حوصرت ورميت بالمجانيق ثم فتحت عنوة وقتل عدد كبير من سكانها وأسرها الارستقراطية[2]. غير أن مراكز كثيرة أعيد فتحها على نفس شروط الصلح السابقة.

ويتضمن باب الجهاد في الفقه والحديث النبوي تفصيلات مهمة عن التشريع الإسلامي في الفترة التي نحن بصددها. ويتضح من سياق الأحداث التاريخية أن العمل العسكري في صدر الإسلام أخذ في نفس الوقت ببعض التقاليد العربية القديمةوبعض الأساليب الفارسية والبيزنطية مثلما قدم أشياء جديدة في مجال التنسيق العسكري وتوزيع الغنائم ومعاملة الأقطار المفتوحة.

---

(١) ن.م. ص ٢١٣.

(٢) ابن الأثير: ٣/ ٥٠.

القِسْمُ الثَّالِثُ
المجتَمَع

الفصل الأول
الحياة الاجتماعية

مجتمع شبه الجزيرة

إذا استندنا إلى النقوش العربية والنصوص الشعرية، ثم إلى روايات الإخباريين والنصوص القرآنية، وإلى الظروف التي انتشر فيها الإسلام داخل شبه الجزيرة، نستطيع أن نستخلص من كل ذلك أن عرب شبه الجزيرة ظلوا لأجيال عديدة قبل الإسلام وبعده يكونون ثلاثة مجتمعات رئيسية:

١ ـــ مجتمع الرعاة، وهو يمثل أغلبية السكـان الذين يتنقلون مؤقتاً بمواشيهم إلى أماكن الخصب بحثاً عن الكلأ والماء. وهنا نتذكر أشعار الجاهلية التي تبكي الأطلال ومبارحة الديار. فالعامـل، أي عامل النزوح يظل اقتصادياً، وقد يكون سياسياً (غـارات الأعداء) وأغلبية القبائل تنتمي إلى هذه الفئة التي يستحيل أن يوضع لتطوراتها تاريخ دقيق، فهي وإن تركت أحياناً نقوشاً في القديم فإن تنقلاتها المتوالية تمنع تتبع أطوارها التاريخية. ويعيش هذا المجتمع في خيام متقاربة تكوِّن حياً له شيخ ومستشارون؛ ثم تتعدد الأحياء متباعدة أو متقاربة، فتكوّن قبيلة أو فخذة من القبيلة، حسب الأهمية العددية والظروف المكانية. ومجتمع الرعاة هو مجتمع سذّج، وقد لا يخلو من

غلظة وخشونة في الطبع والسلوك، ولكن لا يعدم نساؤه رقة عاطفة وعفة نفس. والمرأة في هذا المجتمع شريكة الرجل في حياته تتحمّل معه شظف العيش وتناقشه شؤون الأسرة. وللقبيلة أعراف وعادات خاصة في الزواج والأفراح والطعام وما إلى ذلك، ولكن المواشي التي تعد ملكاً جماعياً للأسرة أو للحي أو للأفراد حسب نظام القبيلة لا تخضع ملكيتها لضريبة مقررة تستغل لصالح الجماعة، وإن كان على القبيلة أن تتحمل دية المقتول أحياناً بصفة جماعية.

وقد أصبح لمجتمع الرعاة انعكاسات بالغة الأهمية على مستقبل العرب والإسلام:

١ ــ نقلوا نزاعاتهم المحلية التي أساسها الكلأ والماء والدواب إلى مواطن النزوح بعد الإسلام، وفي فترات وجهات مختلفة.

٢ ــ لم تتفق طبيعتهم مع وجود سلطة إدارية خصوصاً إذا انحرفت عن الجادة.

٣ ــ سيكونون منذ صدر الإسلام كتلاً خارجية تبحث عن وضع ديموقراطي إسلامي أفضل.

٤ ــ سيشكل مجتمع الرعاة عنصر صراع طبقي ضد المدن التي استبدت بخيرات الفتوح وموارد الثروة خلال العهد العثماني (عثمان بن عفان).

ونجد لدى هذا المجتمع غضباً يتفجر بصور مختلفة. لكن استسلامه للقدر أيضاً، ويأسه من جود السماء هيأه بالذات ليخوض معارك داخلية طاحنة، تارة من أجل انتزاع القوت وطوراً من أجل الشرف؛ كما هيأه ليخوض حروب الفتح الإسلامي بشجاعة واستماتة.

ولن نثير هنا مكارم الأخلاق ولا المثالب السلوكية بتفصيل، لهذا المجتمع الرعوي الذي لم يحظ من الأنظمة الإسلامية في أغلب الفترات والبلاد، بالاهتمام الذي يستحقه، من حيث ضمان أسباب العيش البسيطة، والعناية بأوضاعه الخاصة.

٢ ــ مجتمع الواحات، ويتميّز قبل كل شيء بطبيعته الصحراوية. فالواحات التي تزدهر بنخيلها الذي قد يبلغ آلافاً عديدة، كثيراً ما تقع في أعماق الصحراء منقطعة عن العمارة لمسافة بعيدة، وهي تمثل على أي حال، نموذجاً من نماذج النشاط الزراعي الذي تقل مناطقه بجزيرة العرب لأسباب مناخية. وهكذا فالواحات توجد بقرب مواقع المياه، لا سيما المياه الجوفية التي يتم استنباطها من طريق الحفر. ويتميز سكان الواحات بالتعلّق بالأرض والرغبة في الأمن، حباً في تنظيم الإنتاج وسلامته. ومجتمع الواحات مع ذلك، وسط بين المجتمع الرعوي ومراكز الاستقطاب الحضاري الآتي ذكرها. فالزراع هم في ذات الوقت مربو مواش، وإن كانوا بدرجة أقل من الرعاة. وهم ينظمون أسواقاً محلية يقدم إليها سكان الصحراء رعاة ومستقرين، وفيها يتم تسويق المنتجات المحلية وتبادل المنافع بين فئات المجتمع. وقد نقلوا طرقهم الزراعية إلى الجهات المفتوحة في صدر الإسلام وبعده (البصرة، الجريد، سجلماسة، الخ...).

والواقع أن الإسلام اهتم اهتماماً فائقاً بشؤون الزراعة وخص الماء بتقدير بالغ، لأنه مادة أساسية لها (وجعلنا من الماء كل شيء حي/ الآيات المتعلقة بالسحاب ونزول المطر وري الأرض وجريان الماء في أنهار الجنة، الخ...).

٣ ــ مجتمع الاستقطاب الحضاري. فهذا المجتمع يضم المدن والمراكز ذات الكيان السياسي والاقتصادي المتكامل. إنه مجتمع يمثل

تطورا عالياً للفئتين السابق ذكرهما. فإذا كانت المراكز الزراعية والمجتمعات الرعوية تعيش في ظل نظام قبلي يتميز فيه المجتمع الزراعي بحسن التعايش والانضباط أكثر من المجتمع الرعوي فإن مجتمع الاستقطاب الحضاري يمثل مصباً لروافد ذلك الكيان الذي يضم خليطاً من العناصر المتساكنة بعضها أو كثير منها تنتمي إلى جهات أخرى أصلاً. وعلى سبيل المثال فإن مكة لم تكن تضم العنصر القرشي وحده، فهناك أخلاط من الحبشة وشرقي افريقيا وعناصر عربية خارج قريش. ومراكز الاستقطاب الحضاري أصبحت تضم في صدر الإسلام بالإضافة إلى الصنّاع والتجار والمترددين من البدو رحلاً ومستوطنين لتبادل المنافع، حراس أمن وموظفين وجنداً وغيرهم.

أما أهم العناصر الاجتماعية خارج شبه الجزيرة فهم:

- العرب بالشام والعراق وسائر المراكز المفتوحة.
- الفرس، ويكوّنون أكثر الشعوب غير العربية سكاناً.
- القبط بمصر.
- الروم.
- البربر (ليبيا وإفريقية).

المدن والسكان

أهم ظاهرة في الفتوح العربية في صدر الإسلام هي حرص المسؤولين على تجميع عائلات الجند والقبائل المهاجرة خارج شبه الجزيرة في مراكز معينة قد يتم تشييدها مباشرة كالبصرة والكوفة، أو تمر بمرحلة المعسكر المشيد خياماً قبل أن يتحول إلى مدينة كالفسطاط. وعند الاقتضاء يشغل الفاتحون منازل المراكز المفتوحة عنوة أو التي انجلى عنها أصحابها كما حدث في عدد من مدن فارس

والشام. وتسير هذه السياسة بموازاة إقطاع الأراضي المفتوحة عنوة أو التي انجلى عنها أهلها[1]. وتوجد المدن التي هي مراكز تجمع السكان على مقربة من هذه الأراضي وبعضها بعيد. وفي هذه الحال يظل الملاّكون القدامى أو المستوطنون الأصليون أجراء للمستغلين الجدد، ومع ذلك كان عمر بن الخطاب يخشى من انشغال العرب بالزراعة طالما كانت أعطياتهم قائمة[2]!

وقد امتلك المهاجرون والأنصار وقريش أموالاً طائلة خارج شبه الجزيرة، إلاّ أن كلاً من الخليفتين عمر وعثمان حجرا عليهم الانتقال إلى البلاد المفتوحة درءاً لما قد يحدث من انصرافهم إلى التفرغ الكلي للعمل الدنيوي وتنمية ثرواتهم في الوقت الذي ينظر فيه الآخرون إليهم نظرة القدوة[3]. غير أن عثمان مالبث أن سمح لهم بالنزوح عن شبه الجزيرة.

وقد حددت المراعي للسكان الجدد في الأقطار المفتوحة، فكان لكل مجموعة قبلية مربعها الخاص[4]. على أن العرب الوافدين على مصر لم يقطنوا القرى إلاّ بعد عدة أجيال من فتح البلاد، فاقتصروا على الاسكندرية والفسطاط، واحتفظ الروم والأقباط بمنازلهم حيث لم ينتشر الإسلام بمصر إلاّ بعد نهاية القرن الأول[5]. وواصل هؤلاء مقاومة الوجود الإسلامي إلى ما بعد القرن الثاني[6].

---

(١) البلاذري: فتوح ص ١٧٥ و ١٧٩.
(٢) المقريزي: خطط ٣/٢٠٨.
(٣) الطبري: ٥/١٣٤.
(٤) المقريزي: ٣/٢١٠.
(٥) ن.م. وص.
(٦) ن.م. ص ٢١١.

ويذكر المقريزي نقلاً عن القضاعي أن القبائل التي تكوّن الجيش في أول الفتح الإسلامي لمصر، تم إسكان قسم منها بالجيزة إلى أن رغب عمرو بن العاص في توطينها بالفسطاط فامتنع بعضها وأدى ذلك إلى استشارة الخليفة عمر بقصد البت في المسألة، فأمر ببناء حصن لحمايتهم، ثم وقع تخطيط تجزئة سكنية حسب القبائل، ومعهم طائفة من الحبشة[١].

كذلك تم اختطاط البصرة والكوفة بالعراق لدواع عسكرية وسياسية واجتماعية، إلّا أنها شهدتا تحولاً سريعاً ومدهشاً على الصعيد الاجتماعي. فقد نشأت بهما طبقة من المولدين لا سيما بالكوفة تأثرت كثيراً بطبائع الفئات التي اختلط بها عرب الجزيرة، فأصبحت توسم بالبخل والغدر والتوتر النفسي[٢]. ولم تكد بغداد تستقبل سكانها الأولين حتى انتقل إليها كبار تجار البصرة، والكوفة وأعيانها[٣].

والواقع أن المسؤولين في العهد الراشدي أظهروا عناية تثير الإعجاب بقضايا السكان من كل الفئات الاجتماعية. ولذلك وجدنا العناية بشؤون الري وحفر الترع وحماية المراكز السكانية وتخطيط المدن وضمان حسن سيرها تؤدي إلى إعادة تكييف المجتمع العربي على أنماط الحياة الإسلامية التي لا بد أن يكون لها طابعها وتقاليدها الخاصة. وكانوا يذهبون في اهتمامهم بشؤون السكان إلى حد التدخّل في حسم النزاع على رياسة هذه القبيلة أو تلك، تلافياً لاضطراب الأمن في منطقة سكانية مهما صغرت[٤]. وقد شكا أهل البصرة إلى

(١) ن. ج ١/٣٦٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٣/٨.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص ٥.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/١٠٨.

عمر ما كانوا يجدونه من ضيق في الأرض والموقع مع كثرتهم وخصب منطقة الكوفة وغناها فاستمع إلى شكواهم وأقطعهم مزيداً من الأرض سداً لحاجاتهم(١) وزادهم في العطاء مائة دينار بعد أن وافق أهل الكوفة على ذلك(٢). وكان توزيع العطاء على الجيش طبقاً للتسلسل العسكري وخدمات المحاربين(٣).

وخصص للضيوف والوفود منازل لاستقبالهم في عدد من المدن. وقد بدأ هذا الإجراء منذ العهد النبوي حيث كان يوجد بالمدينة دار للضيافة أنشأها عبد الرحمن بن عوف لاستقبال الوافدين على الرسول (ص)(٤)، ودار أخرى واسعة حولها نخل وهي دار رملة بنت الحارث النجارية(٥)، وكذلك أنشأ الخليفة عمر دوراً للضيافة مجهزة بالتموين وما يحتاج إليه الغريب والمنقطع، وذلك فيما بين مكة والمدينة، وفيما بين الحجاز والشام(٦) وبالكوفة.

وأنشأ الرسول (ص) صُفّة بالمسجد النبوي بالمدينة خصصها للقراء الصحابة الذين لا مال لهم ولا مأوى. وهم مع هذا يتفرغون للعبادة، ولذلك تعتبر الصفة أصلاً للزوايا في الإسلام(٧). وبالمقابل، فإن المعابد في غير الإسلام تستقبل زواراً من الفئة نفسها قبل الإسلام وبعده.

---

(١) الطبري: ٤/٢١٠.
(٢) ابن الأثير: ٣/١٥.
(٣) الطبري: ٤/١٩٤.
(٤) الكتاني: التراتيب ١/٤٤٥.
(٥) ن.م. وص.
(٦) ن.م. ص ٤٤٧.
(٧) ن.م. ص ٤٧٣.

وقد أنشأ الخليفة عثمان مزيداً من دور الضيافة خاصة بالكوفة(١). ووقف علي بن أبي طالب من ماله ضيعتين على فقراء المدينة وزوارها الغرباء، وفي إحداهما عين جارية حفرها بنفسه، وقد احتفظ المبرد بنص هذا الوقف(٢).

ولما كانت أسواق المدن تشتغل باستمرار أي طيلة أيام الأسبوع فقد أحدث منصب صاحب السوق لرقابتها والإشراف عليها. وقد شغل هذا المنصب عمر بالمدينة في عهد الرسول وتولاه بنفسه وهو خليفة بها. وعينّ الرسول سعيد بن سعيد بن العاص على سوق مكة، وتولت إحدى السيدات من الأنصار الحسبة في أحد أسواق المدينة في عهد عمر(٣). وحينما أراد أبولؤلؤة أن يشكو المغيرة إلى عمر، وجد الخليفة وهو يطوف بالسوق(٤)، أي أنه كان يؤدي مهمة الحسبة. وقد أدى هذا المنصب خدمات جلّى للأسواق الإسلامية بصرف النظر عما كان يحدث من سوء تصرف في بعض الجهات بعد صدر الإسلام.

وبالإضافة إلى إنشاء نظام أمني عسكري لحماية المدن خاصة في البلاد المفتوحة توجد حراسة ليلية أو عسس. وقد كلف بهذه المهمة في عهد أبي بكر، عبد الله بن مسعود، وتولاها عبد الرحمن بن عوف، إلى جانب عمر في خلافته(٥). وقد سبقت الإشارة في نهاية الفصل الرابع (قسم ٢) إلى أن نظام الشرطة قد تطور في عهد عثمان ليشمل مختلف

---

(١) الطبري: ٥/٦٠؛ زيادة على دار خصصت أيام الخليفة عمر (البلاذري: ص ٣٩١).
(٢) المبرد: الكامل ٣/١٢١.
(٣) الكتاني: التراتيب ١/٢٨٥ ـ ٢٩٠.
(٤) ابن الأثير: ٢/٢٦.
(٥) الكتاني: م. س. ص ٢٩٢.

الأقاليم، إلّا أن مهمة الشرطة لم تكن ترتبط بشؤون الأسواق بشكل مباشر، وإنما يتم تدخّلها عندما تدعى إلى ذلك.

ولم يشهد صدر الإسلام تطوراً كبيراً في الغذاء اليومي للأسر العربية، بالنظر لحرص الحكام على عزل الجيش والأسر عن سكان البلاد المفتوحة لا ترفعاً، ولكن لأسباب أمنية من جهة، ولعدم الرغبة في التنازل عن العادات والتقاليد الأصيلة. ولـذلك نجـد الأطعمة العربية تحتفظ بأنماطها البسيطة وتعتمد في جلها على الدقيق حنـطة وشعيراً، والدسم والألبـان والتمر. ولا يستهلك اللحم إلّا بـدرجة محدودة. أما الخضر فتأتي في آخر درجة، وهي خاصة بقليل من سكان المدن. على أن دخول النساء والجواري غير العربيات إلى بيوت الأسر فرض على العرب تطوير عاداتهم الداخلية تدريجياً. ومن أجل ذلك دخلت المؤثرات الفارسية والبيزنطية هذه العادات، وأصبح على العرب أن يتعرفوا إلى تحضيرات جديدة للأطعمة والأشربة(١)، لا سيما بالنسبة لسكان المدن.

ولكي نعرف الأطعمة النموذجية التي تقدّم في أكبر البيـوتات العربية نسوق هذه القصة التي يرويها عبد الله بن عامر كشاهد عيان حيث يقول(٢):

«كنت أفطر مع عثمان في شهر رمضان، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر. قد رأيت على مائدة عثمان الدَّرْمَك الجيـد، وصغار الضأن كل ليلة، وما رأيت عمر قط، أكل من الدقيق منخولاً،

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٨/٢ــ ٥ و ٢٤ ــ ٤٣؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار ١٩٧/٣ــ ٢٢١.

(٢) الطبري: ١٣٦/٥.

ولا أكل من الغنم إلاّ مسانّها. فقلت لعثمان في ذلك. فقال: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟!».

ولقد استطاعت شخصيات عربية كثيرة أن تمتلك ثروات خيالية بفضل الفتوح والعطاءات التي كانت تتجاوز حاجتها وإن كان لبعضها نشاط تجاري واسع. ونستطيع أن نجزم بأن سياسة توزيع العائدات واستغلالها كانت بحاجة إلى إعادة نظر شاملة بعد وفاة عمر وظهور الفئات الغاضبة بالمدينة وخارجها. وهكذا فإن طبقة أغنياء الحرب التي كان يخشى عمر نشأتها وامتداد سطوتها قد برزت إلى الوجود بشكل علني بعده وسمحت لنفسها بأن تمارس حياة مترفة لم تكن معتادة في الوسط العربي قط بالرغم من أن بينها من تنازل عن شطر من أمواله لأعمال البر، ومن أفراد هذه الطبقة:

١ ــ طلحة بن عبيد الله وقد ترك ثلاثمائة قنطار ذهب، فضلاً عن أملاك أخرى[١].

٢ ــ الزبير بن العوام، وقدرت ثروته بأكثر من خمسين مليون دينار، وكانت له أملاك بالبصرة والكوفة والاسكندرية والفسطاط والمدينة، وبنى أسواقاً ومتاجر بالبصرة[٢].

٣ ــ عمرو بن العاص، وكانت ضياعه تدرّ مائتي ألف دينار سنوياً وكانت ضيعته بالطائف تشتمل على مليون عمود كرم[٣]!

(١) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص ٢٠٩.
(٢) ن.م. ص ٢٠٣.
(٣) ن.م. ص ٢٠٦.

٤ ــ سعد بن أبي وقاص وكانت له أموال كثيرة بالعراق والمدينة[١]، وهو من العمال الذين شاطرهم أموالهم الخليفة عمر.

المجتمع غير الإسلامي

إذا كان الإسلام لم ينتشر في صدر الإسلام إلّا بكيفية محدودة خارج شبه الجزيرة، فإن المجتمع غير الإسلامي خضع بصورة أو بأخرى للحكم الجديد الذي أنقذه على أية حالٍ من استغلال بشع مارسه الحكام السابقون، وذلك في الإطار الجغرافي الذي شمله نفوذ الحكام الجدد.

على أن الأسر العربية التي اعتنقت الإسلام وضمت إليها عشرات الألوف من الأرقاء استطاعت أن تعزز صف الإسلام بدخول أعداد كبيرة منهم في الإسلام بصفة تلقائية حيث لا يوجد مبرر شرعي لحملهم على الدين الجديد وهم في الرق. وإذا كان إسلام هذه الطبقة من البائسين لا يعني تحريرهم بالضرورة، فإن أعداداً كبيرة جداً تمكّنت من استرداد حريتها تكرماً من مالكيها القدامى. وهكذا فإن الرسول (ص) أعتق ٦٣ مملوكاً، وعائشة ٦٩، والعباس ٧٠، وعبد الله بن عمر ألفاً، وعبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألفاً[٢]! وكان لعمر مملوك يهودي دعاه إلى الإسلام فرفض، فقال له: لا إكراه في الدين، ثم اعتنق اليهودي النصرانية، وقد أعتقه الخليفة عمر وهو نصراني[٣]. ووجد بخط الحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي نص عقد مملوك للرسول

---

(١) ن.م. وص.
(٢) الكتاني: التراتيب ١/٢٩.
(٣) ن.م. ص١٠٢.

(ص)، وهو في غاية الأهمية حيث يمثل المعنى الحقيقي لحقوق الإنسان في الإسلام[1].

وعندما كان أبو موسى الأشعري يتولى فتح منطقة السوس من فارس بعث إليه قائد مقدمة يزدجرد، واسمه سياه يطلب الدخول في الإسلام مع جماعة من الأساورة على أن يكون عطاؤهم في مرتبة مشرّفة، فكان جواب أبي موسى أن يكون لهم نفس حقوق الفاتحين وعليهم نفس الواجبات. ثم كتب إلى الخليفة بعد أن رفضوا عرض أبي موسى، فما كان من عمر إلّا أن كتب إليه: «أعطهم جميع ما سألوا». وقد خصصت لهم تجزئتهم السكنية بالبصرة فيما بعد، وقد دخلوا الإسلام معززين، والتحق بهم الزط وغيرهم[2].

وإذا كان جلاء اليهود عن مراكزهم بشبه الجزيرة إلى الشام وبعضهم إلى العراق كنجران[3] لأسباب بعضها يرجع إلى نكث عهودهم وبعضها لحفظ البقاع المقدسة ممّا يحللونه ويحرمه الإسلام (الخمر الربا، الخ) فإن معاملتهم خارج هذه المنطقة كانت على قدم المساواة مع سائر أهل الكتاب ومن في رتبهم. ومن ذلك عهد الصلح الذي دخل فيه أهل «دبيل» من أرمينية على يد القائد حبيب بن مسلمة، ونصّه[4]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من حبيب بن مسلمة، لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها، شاهدهم وغائبهم:

---

(١) ن.م. ص ٢٧٤.
(٢) البلاذري: فتوح ص ٥١٩ ــ ٥٢٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٣٩٨/٢.
(٤) البلاذري: ص ٢٨٢.

إني أمنتكم على أنفسكم، وأموالكم، وكنائسكم، وبيعكم، وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد، ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج.

شهد الله، وكفى به شهيداً، وختم حبيب بن مسلمة».

وسائر عهود الصلح التي تشمل أهل الكتاب على هذا المنوال.

وقد كان جلاء نصارى ويهود نجران حدثاً مثيراً حقاً في التاريخ العربي والإسلامي، فهم بعد العهد الذي عقدوه مع الرسول (ص) والذي يتضمن التزامات دقيقة وصريحة بالمحافظة على حريتهم العقائدية والتجارية وحماية ممتلكاتهم وأموالهم ودفع كل ظلم عنهم مقابل التزاماتهم المادية والمعنوية تجاه الإسلام(1)، نرى عمر بن الخطاب يجليهم عن شبه الجزيرة (النصارى إلى الشام، واليهود إلى العراق) بعد فترة طويلة نسبياً مرت على وفاة الرسول الذي قيل إنه أوصى في احتضاره أن لا يترك بجزيرة العرب غير الإسلام ديناً(2)، غير أن عمر طبقاً لوصية أبي بكر منحهم أراضي في مهجرهم، كالتي كانت لهم بنجران(3)، وإنما انتظر فرصة حدوث نزاع بينهم أدى إلى طلبهم للجلاء تلقائياً فنفذ رغبتهم حتى مع تراجعهم، وذلك بالإضافة إلى ما نسب إليهم من الرجوع إلى المراباة.

وقد وقف نصارى العرب في الشام والعراق موقفاً معادياً من إخوانهم الفاتحين(4)، فكان ذلك مما جعل هؤلاء يثخنون فيهم قتلاً

---

(1) ن.م. ص ٨٧ ـ ٩٠.
(2) ابن خلدون: ٢/٩٠٨؛ الطبري: ٤/٦٢.
(3) الطبري: ن.م. وص.
(4) ابن خلدون: ٢/٨٩٠، ٨٩٤، ٨٩٨.

وأسراً وقد كانوا لا يرضون الأسر والسبي(١)، غير أنهم كثيراً ما انضموا إلى صفوف المسلمين لقتال الحكام السابقين(٢).

على أننا نجد في بعض مواقف الحكام المسلمين من الشدة على أهل الذمة ما يعتبر استثناء ومنافياً لتسامح الإسلام. وعلى سبيل المثال كان أهل الذمة بمصر يختم في رقابهم بالرصاص، ويتعين عليهم أن يظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ما عدا النساء والولدان، ولا يسمح لهم بالتشبه بالمسلمين في ملبوسهم(٣)! هكذا كانت تعليمات الخليفة عمر إلى عامل مصر عمرو بن العاص. ومن المؤكد أن الأقباط لم يحتملوا الحكم الإسلامي بسهولة كما دلت على ذلك مقاومتهم لهذا الحكم أجيالاً على ضعفها. وهذا ما يفسر جيداً موقف عمر.

على أن بعض القادة كانوا يمنعون على أهل الذمة إحداث مؤسسات دينية جديدة، كما هو الشأن في سكان الرقة بسوريا والذين منع عليهم إحداث بيعة أو كنيسة جديدة(٤). ولما رغب أهل النوبة في الصلح سنة ٣١ أجابهم إليه عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وتكاد تكون بنود الصلح متكافئة إلّا ما كان من التزام أهل النوبة بأداء ٣٦٠ من الرقيق كل سنة، إلى عامل مصر، كما التزموا بعدم التعرّض للمسجد الذي شاده المسلمون ببلاد النوبة بأي أذى(٥). وسياسة البحث عن المزيد من الرقيق لطبقة الحكام نجدها

(١) ن.م. ص ٩١٤، ٩٤٧، ٩٥١، ٩٥٤.
(٢) ن.م. ص ٩١٢.
(٣) المقريزي: خطط ١/١٣٧.
(٤) البلاذري: ص ٢٣٨.
(٥) المقريزي: خطط ١/٣٥٢ـ٣٥٣.

تطبق من الولاة الذين ينتمون إلى الأسرة الأموية كابن أبي سرح وعقبة بن نافع، وسيتسع نطاق هذه السياسة بعد العصر الراشدي.

إننا نلمس بالرغم من بعض السلبيات المحدودة في هذا العصر بالذات من حيث السياسة المتبعة تجاه المجتمع غير الإسلامي روحاً أخلاقية عالية في معاملة هذا المجتمع. وعلى العموم فإن الفاتحين المسلمين يفون بعهودهم. وقد كانت قبرص من جملة المناطق التي دخلت في حكمهم، وكانت مع هذا تتعرض لغزو الروم بعد صدر الإسلام حتى قال أحد الفقهاء: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، وعلينا أن نحميهم ونمنعهم(١). وقد حافظ جل الخلفاء على عهودهم لأهل قبرص في صدر الإسلام وبعده. وعندما قدم عمر إلى الجابية من دمشق رأى في الطريق جماعة من المجذومين من النصارى فأجرى عليهم من الصدقات والقوت ما يحتاجون إليه(٢). وكتب عمر لنصارى القدس أماناً يشملهم وأموالهم وكنائسهم، وجلس في صحن كنيسة القيامة، فلما حان وقت الصلاة خرج إلى الدرجة التي على بابها وصلى وحده وقال للبطريك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدي. ثم ترك منشوراً يحرّم على المسلمين الصلاة والأذان في الكنيسة، ولا يسمح لهم بالصلاة إلّا منفردين على بابها(٣).

وقصة جبلة بن الأيهم تكاد تتخذ طابعاً دراميا فيما رواه ابن عبد ربه من تفاصيل عنها مثيرة لا حاجة إلى إعادة ذكرها هنا(٤)،

---

(١) البلاذري: ص ٢١٠.

(٢) ن.م. ص ١٧٧.

(٣) المقريزي: ٣/٣٩٥.

(٤) ابن عبد ربه: العقد ١/٢٥٩ ـ ٢٦٣.

فإذا كان جبلة قد احتفظ بكثير من مظاهر الملك ودخل الإسلام في عهد عمر ثم التحق بالقسطنطينية مرتداً بسبب ما حكم به عمر في شأن لطمه أعرابياً في الحج، فإن عمر قد أظهر ندماً شديداً على تسرعه وبعث إليه يسترضيه بكل الوسائل ليعود إلى الإسلام فاشترط شروطاً تزعم القصة أن عمر التزم بالوفاء بها، ولكن المهم أن عمر كان حريصاً على أن يعود جبلة إلى الإسلام، ولو شاء أن يبعث من يغتاله لتم ذلك. ومن ثم فلم يكن أهل الكتاب يخضعون لضغط أو تهديد من أجل حملهم على الإسلام.

الأمراض والشؤون الصحية

لم يكن هناك أي تطور في الميدان الصحي بالنسبة لما قبل الإسلام، وذلك من حيث العلاج ووسائله والتشخيص وطرقه، والتطبيب ينبني قبل كل شيء على الوصفات النباتية والكي والحمية. وتقدّم الأحاديث النبوية نصائح عملية في ميادين الوقاية والعلاج. ومن الخضر والمنتجات الغذائية التي أوصى بها الرسول (ص): الكمأة والسفرجل والزبيب والعسل[1]. وقد أوضح مميزات كل منها. وألحّ أكثر من مرة على تناول العسل وزيت الزيتون الذي اعتبره علاجاً للباسور.

وأشهر أطباء العرب هو الحارث بن كلدة الذي قضى شطراً من حياته ببلاد الفرس، وهو الذي اكتشف أنه تناول مع الخليفة أبي بكر سمّاً في طعام[2] قدّمه اليهود. وهو ممن كان يوصي بالحمية، كما أوصى

---

(١) ابن عبد ربه: العقد ٧/ ٢٦٤ ــ ٢٦٧.

(٢) ن.م. ص ٢٦٨؛ الكتاني: التراتيب ١/ ٤٥٦.

بها الرسول قبله(١). واشتهر ابن كلدة عند الفرس والعرب ومعاً، وقد تلقى دراسته بجند يسابور(٢). وكل الأطباء الموصوفين كانوا من غير العرب إلّا القليل. والواقع أن نفس الظاهرة نراها تستمر في سائر العصور الإسلامية، وقد اعتمد معاوية بالشام على طبيب نصراني اسمه أبو الحكم كان معجباً بطبه فاتخذه طبيبه الخاص، كما كان ابن أثال يقوم بتركيب أدويته(٣).

ومن أطباء العرب في صدر الإسلام النضر بن الحارث نجل الحارث بن كلدة، وابن أبي رمثة التميمي الذي مهر في علاج الجراح(٤).

وعرف الرسول (ص) أخطار الأوبئة فنهى عن مغادرة المصابين المنطقة الموبوءة التي هم فيها، ونهى عن استقبالهم لأصحاء. وطبقت وصيته بعده(٥). وأخطر الأوبئة وأشهرها ذكراً في صدر الإسلام هو طاعون عمواس الذي حدث سنة ١٨ هـ وشمل الشام وامتد إلى البصرة وهلك فيه خمسة وعشرون ألفاً منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان. وقد دخل عمر الشام والطاعون ما يزال ضارباً، ثم انصرف وقد استمع إلى عبد الرحمن بن عوف يذكره بحديث نبوي ينهى عن الاختلاط بالمصابين بالوباء. ولا نعرف على

---

(١) العقد ٨/١٤.
(٢) التراتيب ١/٤٥٧.
(٣) ن.م. ص ٤٦١.
(٤) ن.م. ص ٤٦٣.
(٥) العقد ٣/١٢٧.

التحقيق نوع هذا الطاعون الذي كان الوجع الشديد من أهم أعراضه(١). وعمواس منطقة قرب بيت المقدس بها نشأ هذا الوباء.

وقبل طاعون عمواس نشأت مجاعة في نفس السنة بالشام والحجاز(٢) حيث عم القحط والجفاف وضمرت الدواب حتى لم تعد صالحة للغذاء بعد ذبحها، واضطر الخليفة عمر إلى الاستنجاد بالأقاليم لتغذية سكان المدينة الذين تضرّروا بصورة خاصة. وكانت أهم الإمدادات الغذائية من مصر. وقد سمي هذا العام بعام الرمادة حيث كانت تهب ريح تثير غباراً كالرمادة. وذكرت بعض المصادر تواريخ مخالفة، لحدوث هذه المجاعة وطاعون عمواس، والأرجح أن الوباء اتسع نطاقه بتأثير هذه المجاعة أيضاً.

المرأة وقضايا الأسرة

قد يكون من تكرار القول هنا إثارة موقف القرآن والسنة من قضايا المرأة والأسرة حيث تنص الآيات والأحاديث على حسن معاملة المرأة واختيار الزوجة الصالحة والمحافظة على حقوقها وتربية الأطفال تربية صالحة والتعاطف بين أفراد الأسرة والأقارب، على أن أحسن مثل ضرب في صدر الإسلام لإكرام المرأة وتقديرها هو الرسول عليه السلام الذي كان بالرغم من تعدد نسائه لأسباب اجتماعية معروفة، يفيض على جو الأسرة روحاً من الحنان ويفض المشكلات النفسية لدى الغيُورات من نسائه بلطف وفي جو مرح. ولا ريب أن أبرز نسائه

---

(١) الطبري: ٢٠١/٤؛ ابن الأثير: الكامل ٣٩٠/٢؛ الحافظ الذهبي: العبر ٢١/١ ـ ٢٢؛ ابن خلدون: ٩٦٩/٢.

(٢) الطبري: ٢٢٢/٤؛ المقدسي: البدء ١٨٦/٥؛ ابن الأثير: ٣٨٨/٢؛ الذهبي: العبر ٢٠/١؛ ابن خلدون: ٩٦٩/٢؛ المقريزي: ٢٨/٣.

وهما خديجة وعائشة يدلان على مدى الشخصية والنفوذ الاجتماعي الذي يمكن أن تبلغه المرأة العربية، وإن كان من الحق أن يقال إن معاملة العربية في العصر الجاهلي، حتى وإن كانت دون مستواها في صدر الإسلام، كانت في أغلب الحالات معاملة كريمة. وقد أسهمت هي أيضاً في ميادين الأدب والتجارة وفي الحرب والعمل الاجتماعي. ومن قوة شخصيتها أن كثيراً من النساء دخلن في الإسلام دون إذن أزواجهن، وبعضهن حافظن على وثنيتهن بينما أسلم رجالهن، كما أسلم أخريات إلى جانب أقاربهن من الرجال كأم فروة أخت الصديق(١) وسهلة بنت سهيل التي أسلمت مع زوجها وهاجرا هجرة الحبشة(٢). وممن سبقن رجالهن إلى الإسلام زوجة عكرمة بن أبي جهل وابنتان لأبي جهل(٣).

ورغب علي أن يخطب أخته أم هانىء للرسول (ص) فقالت: والله لهو أحب إلي من سمعي وبصري، ولكن حقه عظيم، وأنا مؤتمة (أي ذات يتامى)، فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامي، وإن قمت بأمرهم قصّرت عن حقه(٤)! فنوه الرسول بحسن عهدها ورعايتها لأسرتها كما نوّه بنساء قريش عامة.

على أنه بالرغم من كثرة أعداد الجواري والسرايا ممن دخلن الأسر العربية في صدر الإسلام فما زال للعربيات مقام مفضل وسلطة أكيدة على الأسرة، وإنما ستتضعضع هذه المكانة مع قيام الحكم العباسي وانتقال السلطة الإدارية والسياسية إلى الفرس.

---

(١) العمري: مهذب الروضة الفيحاء، ص ١٨٣.
(٢) ن.م. ص ١٩٥.
(٣) ن.م. ص ١٨٦.
(٤) ابن عبد ربه: العقد ٧/ ٨٣.

وهكذا حافظ المجتمع العربي على شخصية المرأة وعززها في العهد الذي عالجه. ومع وجود رقيق ومعتقين فإن هذا لم يمنع إقامة ارتباطات زوجية وأسروية بينهم وبين العرب. وعندما خطب سلمان الفارسي بنتاً لعمر بن الخطاب رحّب به ولكن سلمان عدل عنها[1]. وكذلك تزوج بلال بن رباح وأخوه وهما حبشيان من أسرة عربية[2]. ومثل هذه الحالة متعددة في صدر الإسلام وتدل على تطوّر سريع في العقلية الاجتماعية لدى العرب. وامتازت المرأة العربية بوفائها على العموم. وقد خطب معاوية أرملة عثمان فقطعت أناملها وقالت: «والله لا قعد مني أحد مقعد عثمان أبداً!»[3].

وفي الواقع فإن الإسلام أعاد للمرأة اعتبارها في المجتمع الفارسي أيضاً وهو أكبر المجتمعات التي انضمت إلى الحكم الإسلامي، فالمذاهب التي كان لا يزال أثرها سارياً في هذا المجتمع والتي تجعل من المرأة ملكاً مشاعاً قد واجهها الإسلام بتكريم للمرأة واعتبارها قبل كل شيء ربة أسرة ومنبعاً للرحمة والعطف. ومع ذلك فقد انزلق العرب تدريجياً نحو حياة قوامها المتعة الجسدية والتنقل من أجلها بين الجواري ولا سيما فئة القادة والمسؤولين.

وتحتفظ المرأة العربية بقوة شخصيتها في شتى المجالات. حقاً إنها لا تتولى المسؤوليات العليا التي ظلت وقفاً على الرجال قروناً في التاريخ العالمي عموماً، ولكنها تظهر في السياسة والحرب والأدب كما سبق. وقد قادت عائشة ألوفاً من خصوم علي بعد أن قامت بمجهود سياسي واسع النطاق في الحجاز لجلب المزيد من الأنصار. وظهرت المرأة في

(١) ن.م. ص ٨٤.
(٢) ن.م. ص ٨٥.
(٣) ن.م. وص.

صفوف الخوارج تناهض سياسة التحكيم وتتآمر ضد علي[1]. وقد أسندت مهمة الحسبة في بعض أسواق المدينة إلى امرأة في عهد عمر، وهي حالة نادرة[2].

وقاتلت النساء في اليرموك ببسالة وبينهن هند بنت عتبة[3] التي سبق أن لاكت كبد حمزة في معركة أحد، وكانت من أجرأ النساء وأقواهن قلباً وقيل إن أم حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل قتلت في مرج الصفر بطريق دمشق سبعة من جند الروم[4]. وسقطت أم حرام عن دابتها أو صرعتها وهي تطىء شاطىء قبرص بنية الغزو مع زوجها[5]. ونسب قتل مسيلمة إلى امرأة في قصة ملحمية مثيرة[6]. والمرأة إذا حضرت الحرب ولم تقاتل فهي تضمد الجرحى أو تسقي الماء أو تقدّم عملاً لمصلحة المحاربين.

وأغلب نساء الرسول (ص) عشن إلى ما بعد العصر الراشدي، ولكن لا يظهر من بينهن في الميدان السياسي والفكري من يداني عائشة التي لها تأثير في الحديث رواية وشرحاً. وسيأتي ذكرها في هذا المجال. وقالت في خطبة لها في أنصارها قُبيل معركة الجمل[7]: «كان الناس يتجنّون على عثمان ويزرون على أعماله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك، فنجده بريئاً تقياً نقياً وفياً، ونجدهم فجرة غدرة

---

(١) مهذب الروضة الفيحاء، ص ٢٧٦.
(٢) ن.م. ص ١٠٥.
(٣) البلاذري: فتوح، ص ١٨٤.
(٤) ن.م. ص ١٦٢.
(٥) مهذب الروضة الفيحاء: ص ١٥٦.
(٦) ن.م. ص ١٥٧.
(٧) ابن الأثير: ٣/١٠٩.

كذبة، وهم يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلّوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام».

وقد سن عمر تخصيص تعويضات سنوية للمواليد وتعلو هذه التعويضات بحسب تدرّج السن[1]. ولم يحرم اللقطاء من هذا الحق فقد كان ولي اللقيط يأخذ هذا التعويض عنه. «وكان يوصي بهم خيراً، ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال»[2].

وقدمت أسر عديدة إلى المدينة عام الرمادة وهي تشكو الجوع والحاجة، فتولى عمر تموينها وتفقدها بنفسه[3]. وكان يتوجه بلائحة سيدات خزاعة وبناتها فيتولى تقديم عطائهن شخصياً[4]. ويحوّل عطاء الهالك إلى أسرته. وقد أوصى عبد الله بن مسعود الزبير بالنظر في شؤون بيته فتولى في عهد عثمان أخذ عطاء الهالك من بيت المال والذي حوّل لعائلته[2]. وقد أفاد نظام الوقف الذي شرع منذ العهد النبوي في ضمان موارد ثابتة لأسر الهالكين، وهو وإن كان نظاماً قديماً في التاريخ، فإنه يتميز في الإسلام بتشريع دقيق.

النشاط المعماري

شهد صدر الإسلام حركة عمرانية نشيطة خصوصاً خارج شبه جزيرة العرب. وشملت هذه الحركة بناء المساجد والدور السكنية وبعض المدن التي تم إنشاؤها لدوافع سياسية واجتماعية:

---

(١) البلاذري: ص ٦٣٤ و٦٤٣.
(٢) البلاذري: ص ٢٣٥.
(٣) ابن الأثير: ٣/٣٢.
(٤) البلاذري: ص ٦٣٤.

١ ــ لاتخاذها محتشداً يتجمع فيها الجيش.

٢ ــ لتجنب مساكنة أكثرية غير إسلامية في عواصم البلاد المفتوحة.

٣ ــ لاختيار مواقع قريبة الشبه بالبادية العربية، حيث يتوفر المرعى والماء.

وأشهر المدن التي تم تخطيطها هي البصرة والكوفة والفسطاط وكلها في عهد عمر بن الخطاب.

ومن المؤكد أن تخطيط هذه المدن كان في غاية البساطة وإن لم تخل من مقومات الحياة المدنية التي يتطلبها إسكان مجموعات من القبائل والعناصر التي تختلف عاداتها وتقاليدها وحتى لغتها حيث نجد بينها مجموعات إسلامية غير عربية:

١ ــ البصرة

تم اختطاطها على يد عتبة بن غزوان الذي استأذن الخليفة عمر في إنشاء مركز تجمع للجيوش العربية الغازية بالعراق. وهكذا تم اختطاط أول مدينة إسلامية خارج شبه الجزيرة سنة ١٤. وكان بموقعها قصر قباذ الذي هدمه وجدده الحجاج بن يوسف[١]. ولم تنشأ البصرة لتكون ميناء تجارياً أو حربياً أي ترسانة عسكرية، بالرغم من وجود حركة ملاحية مع الهند والصين حيث كان يوجد هناك مرفأ قليل الأهمية قبل بناء المدينة[٢].

وشهد موقع البصرة وضواحيها نشاطاً متواصلاً في تنظيم حركة

---

(١) العمري: المسالك والممالك ١/٢٤٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٣٩.

الري من حفر الترع وتحويل الروافد(١). وكان موضع البصرة معسكراً في أيام الأكاسرة فضرب العرب محلتهم به أيضاً منذ سنة ١٤.

وتم تخطيط البصرة طبق نظام محكم، وعلى يد مشرف تولى إنزال المجموعات السكانية بمختلف الأحياء. وقسمت إلى مناهج أي شوارع سعتها أربعون ذراعاً، وأزقة ذرعها سَبْعُ أذرع(٢). وكانت عمليات تنظيم الري من نصيب خبراء اليمن وتقنييها الذين لهم معرفة دقيقة بهذه العمليات.

ومن جهة أخرى فقد شهدت البصرة حركة سياسية وثقافية نشيطة منذ أوائل نشأتها، وأهم أحداثها على الخصوص موقعة الجمل التي جرت بقربها سنة **٣٥** هـ. وقيل من بين أسباب تسميتها أن البصرة بمعنى الأرض الغليظة أي الصلبة. وقد أنشئت حولها غابات حقيقية من النخيل الذي بالإضافة إلى أهميته الاقتصادية والتزيينية يمثل خير نموذج للمحافظة على البيئة الطبيعية ولا سيما من حيث تلطيف الجو ومنع انجراف التربة. وقد قدّرت مساحتها منذ تدشينها بفرسخين في واحد(٣). وأنشئت فيها أسواق وحمامات عمومية(٤).

٢ ــ الكوفة

سبب اختطاطها وخم المدائن التي سكنها العرب بعد فتحها سنة ١٦ هـ فأمرهم الخليفة عمر باختطاط مدينة جديدة توفر لهم ظروفاً صحية أنسب. وتم اختيار موقعها بإشراف سعد بن أبي وقاص. وبعد

---

(١) البلاذري: ص ٤٩٧.
(٢) ابن الأثير: م.س. ص ٣٦٨.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ٨٠.
(٤) ياقوت: مادة (البصرة).

تردد بين عدة أماكن قبل اختيار مكانها[1] الذي تولى اختطاطه عمرو بن مالك بن جنادة. وكانت أهم المجموعات السكنية تتكون من أهل اليمن في اثني عشر ألفاً، وعرب الشمال في ثمانية آلاف[2]. وبعد أن كان بناء البصرة والكوفة بالقصب أذن الخليفة عمر في البناء باللبن على إثر حريق نشب في كلتا المدينتين[3]. وتقع الكوفة على الفرات بجوار الحيرة. وحظت شوارعها وأزقتها على سعة سكك البصرة. وبدأ التخطيط بالجامع الأعظم الذي يتوسط المدينة[4]. ومن مركزه تتفرع شوارع البلد[5]. وقد أصبح هذا التخطيط عرفاً متبعاً في كل المدن الإسلامية. وإلى جانب الجامع قصر العامل. أما القبائل فقد استوطنت كل منها مع رئيسها[6]. وقيل إن حامعها الأعظم كان يتسع لأربعين ألفاً[7]. وقيل في أصل تسميتها روايات عديدة[8]. وقد تأثرت الكوفة بالتأثير الفارسي وصارت عاصمة في عهد علي. وكان لها ميول شيعية. وقد تم تدشينها سنة ١٧ على الأرجح.

٣ ــ الفسطاط[9]

وصف المقريزي بدقة موضع هذه المدينة التي كانت في الأصل

---

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٨٨.
(٢) ن.م. ص ٣٨٩.
(٣) ابن الأثير: ٣٦٨/٢.
(٤) ن.م. ص ٣٦٩.
(٥) الكتاني: التراتيب ٢٨٢/١.
(٦) اليعقوبي: البلدان ص ٦٩ ــ ٧١.
(٧) ياقوت: مادة (البصرة).
(٨) ن.م. مادة (الكوفة).
(٩) ياقوت: مادة (الفسطاط)؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣٢٥/٣ ــ ٣٣١؛ المقريزي: خطط ٤١/٢ ــ ٦٥؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ٦٥/١؛ اليعقوبي: م.س. ص ٨٦.

مزارع تمتد بين النيل وجبل المقطم. وكان هناك قصر ينزل به حاكم مصر البيزنطي إذا قدم من الاسكدرية وعندما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ أقام فسطاطه حول هـذا القصر. وعـزم على اتخاذ الاسكندرية عاصمة بعد فتحها. غير أن الخليفة أمره بتأسيس عاصمة جديدة حيث نصب فسطاطه بعد أن تعرف على طبيعة المكان. وعلى هذا فالفسطاط تحمل اسم الخيمة الكبرى التي نصبها عمرو بن العاص وهي من جلد أو شعر. وقد تولى اختطاطها لجنة من أربعة خبراء على رأسهم معاوية بن حـديج. وتكـاد الفسطاط تمثل مجموع العنـاصر العربية من قريش واليمن والأنصار ولخم وجذام. ولكن يبدو أن آكثر نزلائها الأولين من العناصر اليمنية. ومعهم أيضاً مجموعة من الفرس الذين كانوا منذ العهد النبوي مع باذان عامل اليمن. وكذا مجموعات بيزنطية انضمت إلى العرب بمصر. وقدر السكـان في هذه المـرحلة بخمسة عشر ألفاً. وكان عدد الأقباط بمصر حوالي ستة ملايين. وهكذا فإن الأغلبية الساحقة من سكان المدن الإسلامية الجديدة كانوا من العرب المستوطنين أصلاً في المرحلة التي تعالجها هذه الدراسة.

وقد تم تشييد الجامع العتيق بمركز المدينة وإلى جانبه دار العامل التي كانت أيضاً مقراً للحكم كما هو الشأن في دور الولاة والخلفاء في صدر الإسلام. وشاد عدد كبير من الصحابـة دورهم بالفسـطاط، كالزبـير، .ومسلمة بن مخلد، وسعـد بن أبي وقاص، وعبـد الله بن عمر.

واختطت الأسواق (الخناطي أو المجموعات الحرفية والتجارية) إلى جانب الجامع الأعظم شرقي النيل، وخصص لكل قبيلة عريف ومحْرَس، كما أنشئت مسلحة أي موقع دفاعي عسكري لحماية المنطقة، وحصن بالجيزة غربي النيل.

وسبقت الإشارة إلى أن البناءات في أول الأمر كانت بالقصب، بل إن سقوف المباني بالمدينة ظلت من الجريد إلى عهد عمر[1]. ولما كان عهد عثمان أصبح البناء من اللبن والآجر والساج والحجارة كما هو الشأن في مسجد المدينة الذي أعيد بناؤه وتم توسيعه[2]. وإذا كان لكل خطّة أو حي مسجد، فإن المسجد الأعظم أو العتيق يظل ملتقى لسائر المؤمنين يوم الجمعة حسبما كانت تعليمات عمر إلى عامله بمصر[3]. غير أنه أمر بالاقتصار على مسجد واحد بكل مدينة بالشام[4].

وإلى عهد عمر أيضاً ينسب بناء مدينة جديدة باسم الحديثة وهي قرية مسيحية قديمة أعاد هرثمة بن عرفجة والي البصرة بعد عتبة تخطيطها وأسكنها قوماً من أهل الأنبار، كما بنى مدينة الموصل التي كان بموقعها حصن وبعض المؤسسات الدينية المسيحية ومحلة لليهود[5]. وقد سكن الموصل قبائل من العرب.

الحياة الدينية

يظل المحرك الديني طيلة صدر الإسلام أساساً لمظاهر الحياة على تعددها. إن البذخ والخلاعة والمجون أشياء لا يمكن تصورها في وقت لا يزال فيه الدين وليداً يحتاج إلى رعاية واحتياط على صحته وسلامته. إلا أن هناك حالات استثنائية لا تنقص أبداً من الطابع الديني العميق

---

(١) الكامل ٣/٣٠.
(٢) البلاذري: ص ١٢؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٦.
(٣) المقريزي: ٣/١٨٧.
(٤) ن.م. ص ١٨٨.
(٥) البلاذري: ص ٤٦٥ ــ ٤٦٦.

الذي يسود الحياة العامة مهما كانت الظروف السياسية وحقاً لقد انتعشت وضعية العرب المعاشية وارتفعت قدرتهم الشرائية لا سيما المحاربين. وبصفة أخص فئة القادة، ولكن التطور الاجتماعي ظل في حدود الاستقامة الدينية والأخلاقية بالرغم من الحالات المحدودة والشاذة.

وإذا كان العرب الوثنيون قد افتقدوا المعابد والتجمعات الدينية المنظمة فقد علمهم الإسلام كيف ينتظمون جماعياً في المسجد الذي سيظل لعدة قرون أهم حلية لا للتأطير الروحي فحسب، بل وللعلمي والاداري أيضاً، فضلاً عن دوره في المجالات السياسية والقضائية.

وبقطع النظر عن المساجد التي دشنت في العهد النبوي، فقد واصل الراشدون تشييد عشرات المساجد في خارج شبه الجزيرة وفي كل مكان وطئته أقدامهم كالبصرة والكوفة والفسطاط[1] وبيت المقدس حيث أسس على الخصوص مسجد الصخرة بأمر عمر[2]، واللاذقية[3].

وقد تم حل مشكلات مكان الأذان والإمام وما إلى ذلك من ملحقات المسجد بكيفية تدريجية. وقيل إن أصل المنارة كان مربعاً حيث كان يوجد بمنزل حفصة زوجة الرسول (ص) برج مربع يؤذن

---

(١) وصف المقريزي جامع الفسطاط بتفصيل: خطط ٣/١٨٧ ـ ١٩٠؛ وانظر: ابن تغري: ١/٦٦.

(٢) ابن خلدون: ٢/٩٤٩.

(٣) البلاذري: ص ١٨١؛ ابن الأثير: ٢/٣٤٣.

منه المؤذن. أما المنائر الشرقية الأخرى فقد اقتبست عن البيزنطيين كما اقتبست القباب من الفرس وغيرهم. وقيل إن أول محراب مجوف لم يظهر إلا في العهد الأموي[1]. أما المنبر فمعروف من العهد النبوي[2]. وجرت العادة أن يقتدي المؤذنون بأذان المسجد الأعظم طبقاً لما كان عليه الأمر زمن الرسول (ص)[3]، وأن يتكىء الخطيب على عصا أو قضيب تقليداً لسنة النبي (ص). وكان الأذان يعد شرفاً حقيقياً وقد تتولاه أسرة بالتوارث في مسجد معين[4]. وكان التشدد في صلاة الجماعة لا يقبل تهاوداً. ولذلك أحدث منصب عامل الصلاة منذ العهد النبوي. وممن تولوا هذا المنصب بالعراق عمار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص[5]. وعندما استعمل الرسول عتاب بن أسد عاملاً على مكة تشدد في أمر الصلاة حتى هدد بالقتل من تخلف عن الجماعة[6]. وهكذا كان الأعوان يحملون السياط لزجر المتهاونين في أدائها[7].

والمسجد أهم مكان لاتصال المسؤولين بالسكان، ولتعبير هؤلاء عن رغباتهم الإجماعية أو الخاصة. والخطب الدينية تتصل بحياة الناس اليومية وسلوكهم في المعاش وليست وعظاً مملاً وتهديداً بالقذف في جهنم. وقد لخص شاهد عيان ومستمع خطبة جمعة ألقاها عمرو بن

---

(١) المقريزي: م.س. ص ١٨٩.
(٢) الكتاني: التراتيب ١/٦٧؛ وانظر أيضاً: الطبري: ٤/١٧٧.
(٣) التراتيب ١/٧٧.
(٤) المقريزي: م.س. ص ٢٢٤.
(٥) ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٧٥؛ ابن خلدون: ٢/٩٤٠.
(٦) التراتيب ١/٨٩.
(٧) المقريزي: م.س. ص ٢٠٩.

العاص بجامع الفسطاط، فحض على الزكاة وصلة الأرحام وأمر بالاقتصاد ونهى عن الفضول وكثرة العيال[1].

وسن الرسول صلاة التراويح في رمضان التي أصبحت جماعية حول قارىء واحد بالتناوب أحياناً، ثم بصورة نهائية من زمن عمر[2]. ولما كان يمنع رفع الأصوات في المسجد فقد أنشأ الخليفة عمر رحبة خاصة بمن يريد أن يلفظ أو ينشد شعراً بعيداً عن بيت الصلاة[3].

وإذا كانت المساجد تحظى بالحرمة في الإسلام، فإن أقدسها هو المسجد الحرام بمكة والذي تتجه إليه في كل صلاة قلوب الملايين من المؤمنين عبر القرون. وحظيت الكعبة منذ بناها النبي ابراهيم عليه السلام بتعظيم العرب الذين كانوا يحجون إليها كل عام ويهدون إليها الأموال والتحف حتى لقد قدر ما وجد بها من ذهب في العهد النبوي بما يناهز مليونين اثنين من الدنانير، ولم يمسسها أحد حتى خلافة المأمون[4]، حيث استولى عليها الطالبيون في ثورتهم ضد العباسيين.

وكان يتم الاحتفال بستر الكعبة في عاشوراء. وقد تولى سترها كل من الرسول (ص) وأبي بكر وعمر الذي كان يأمر بصنع كسوتها من ثياب بمصر تدعى القباطي نسبة إلى القبط[5]. كما كساها كل من عثمان ومعاوية بعده.

---

(١) ن.م وص؛ وأورد ابن عبد ربه نماذج جيدة من خطب الراشدين: العقد ٤/١٢٨ ـ ١٣٨.
(٢) التراتيب ١/٧٣.
(٣) ن.م. ص ٩١.
(٤) ابن الزبير: الذخائر ص ١٥٥.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة ١/٢٥٢.

وكانت إمارة الحج مهمة سامية قام بها الرسول وسائر الراشدين. وتولى إمرة العمرة في صلح الحديبية، الرسول (ص). وإمرة الحج في سنة ٨ هـ عتاب بن أسيد، وفي ٩ هـ أبو بكر، وفي السنة العاشر النبي (ص)[١]. ثم تولى أبو بكر إمارة الحج في خلافته[٢] كما تولاها عمر في كل أعوام خلافته[٣]. وحج عثمان معظم سني ولايته ووكل إمارة الحج سنة ٣٥ إلى عبد الله بن عباس في ظروف الاضطراب والفتنة[٤]. كذلك أناب علي عنه عبد الله بن عباس في ٣٦ و٣٧ هـ وقثم بن عباس سنة ٣٨[٥]. أما في سنة ٣٩ فكان الخلاف بين علي ومعاوية في ولاية الحج، فاصطلحا على إنابة شيبة بن عثمان[٦] سادن الكعبة. وفي العام الذي اغتيل فيه علي، تولى إمارة الحج المغيرة بن شعبة باسم معاوية[٧].

وتقتضي مهمة أمير الحج أن ينظر في شؤون الحجاج ومصالحهم على نطاق عام، وأن يقوم بإدارة شعائر الحج على نطاق جماعي ويتولى ستر الكعبة والصلاة بالناس وإلقاء خطبة ذات طباع ديني. وتعد خطبة الوداع التي ألقاها الرسول عليه السلام نموذجاً لخطب الحج.

وتمثل أعمال البر جزءاً من الحياة الدينية والواقع الاجتماعي،

---

(١) الكتاني: التراتيب ١/١٠٩.
(٢) ابن خلدون: ٢/٨٩٧.
(٣) ابن الأثير: ٢/٣٠٩.
(٤) الطبري: ٥/١٤٠.
(٥) الطبري: ٥/٢٤٤ و٦/٥١ و٧٧.
(٦) الطبري: ٦/٧٩؛ ابن الأثير: ٣/١٩٠؛ الذهبي: العبر ١/٤٥؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/١١٨.
(٧) الطبري: ٦/٩٢.

فإذا كان العربي كريماً بطبعه وتبعاً لتقاليده، فكرم الطعام ليس هو الكرم المنظم والمستمر الذي تمثله أعمال الوقف ووجوه البر الإيجابية. ولذلك نظم الإسلام أعمال البر في شكل أوقاف عقارية ومستغلات زراعية وما إلى ذلك مما ينتفع به أفراد أو جماعات، وهذا إلى جانب الزكاة وإطعام الجائعين وكسوة العارين والتطوع للتعليم والإرشاد فضلاً عن الجهاد التلقائي الذي لا يتجه إلى تحقيق كسب معين.

ومن ثم كانت الحياة الدينية تمثل واقعاً جديداً أملته شريعة لم يكن العرب ليخرجوا من تخلفهم بدونها. وكذلك فإن التعاطف والتعاون مع العناصر المساكنة مسلمة وغيرها مما يؤكد إنسانية الإسلام وانفتاح العرب على التعايش الإنساني بفضله. وأهم شيء أكسب صدر الإسلام بوجه خاص قيمته الإنسانية المثلى هو تشبث الحكام بوجه عام، بروح العدل ومحاربة الظلم حيث تمتزج الروح الأخلاقية والواجب الديني امتزاجاً لم تصل إلى مستواه أية عقيدة أخرى.

الفصل الثاني
الحياة الفكرية

طابع الحياة الفكرية

اختص القرآن بكونه الكتاب السماوي الوحيد الذي نزل ليكون كتاب علم وعمل بمجرد نزول الآيات الأولى منه (سورة العلق). وقد نزل القرآن ليضع حداً للتخلف الحضاري الشامل والذي اختلفت درجاته وأوضاعه بحسب الأمم. غير أن ما يثير الاهتمام حقاً، هو أن هداية هذه الأمم تنطلق من إحدى أشدها تخلفاً، ثم تكون على يد شخص لا يقرأ ولا يكتب. ومن ثم فإن طابع الحياة الفكرية في صدر الإسلام ينطلق من التوعية في إطار المعرفة والتوجيه الشامل للإنسان في أخلاقه ومعاشه واكتسابه للخبرات واستقرائه للجزئيات وربط حياته المادية بالروحية. لقد اجتاز صدر الإسلام مرحلة النشوء الفكري المبني على تجميع الجزئيات والارتباط في الوقت ذاته بالنصوص وبالواقع السياسي والعقلي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي، لأن العرب ليسوا وحدهم في الميدان. وعملهم قبل كل شيء السير مع القافلة التي تحمل البضاعة الفكرية للجميع والتي يظل القرآن والسنة هاديها الأمين والعقل مفتاح تقدمها المكين. وهكذا روي عن الرسول وخلفائه عديد من الأحاديث أو الأقوال في تقدير العلم وما يتعلق بالفكر كقوله (ص): إذا أعطي الناس العلم ومنعوا العمل وتحابوا بالألسن

وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم[1]. وقال: فضل العلم خير من فضل العبادة. وقال علي: محبة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه[2]. ومن أقوال عمر: تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله[3]. ولا يكاد صحابي بارز أو مثقف ذو عطاء في الإسلام لم يرد له قول في اكتساب المعرفة إذا لم يكن من صناعها. وذلك إلى جانب التقدير العظيم الذي خص به العلم وأصحابه في القرآن: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. . . يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات)، إلى غير ذلك من الآيات العديدة.

وبهذه الروح انطلقت التوعية الفكرية والدينية في الإسلام من مسجد الرسول وبيته ومجالسه ثم من الصحابة والقراء الذين أصبحوا يعدون بالآلاف ويمارسون حقهم في النضال المذهبي. وهكذا فإن أول نواة للجامعة في الإسلام هي المسجد النبوي بالمدينة والذي قام بدور الجامعة الشعبية والدينية، كما كـون آلاف الأطر في صـدر الإسلام وبعده.

تنوعت المعرفة في العصر الراشدي إلى فرعين:

١ ـ معرفة مكتسبة بالفطرة والتجارب السابقة للعرب.

٢ ـ معرفة تخضع للحاجة المباشرة والبيئة العـامة للمجتمـع الإسلامي وهي في صدر الإسلام من عمل العرب، مع مساهمة طيبة

(١) ابن عبد ربه: العقد ٢/ ٨٠.
(٢) ن.م. ص ٦٩.
(٣) ن.م. ص ٧٦.

لعناصر من غيرهم. ويمكن أن ندخل في الصنف الأول، الفراسة والقيافة وعلم الانساب وحتى الشعر، بينما يشمل الصنف الثاني دراسة القرآن حفظاً وتفسيراً والحديث والفقه والفلسفة الدينية والسياسية.

وكان لدى العرب من قديم معرفة طيبة بالأنواء وطبائع الحيوان والنبات واستخراج المياه الجوفية وما يتعلق بالطبيعة التي تحيط بهم عموماً. وستدون هذه الأشياء تدويناً دقيقاً، ابتداء من أواخر القرن الأول الهجري لتكون معتمداً لدارسي اللغة وواضعي المعاجم. ومن ثم فصدر الإسلام لم يكن بحاجة ملحة إلى دراسة اللغة بكيفية مباشرة، حيث ترك ذلك لمعلمي القرآن، فيتعلم الأعاجم العربية عن طريق حفظه أو بمخالطة العرب. واحتاج العرب إلى الحساب ولكنه اقتصر على الموظفين المحاسبين يتعلمونه عمن يتقنه. ولم يلتفت صدر الإسلام إلى نشر أو تلقين علوم لا تخدم العقيدة والمعاملات الشرعية اليومية. ولذلك نستطيع أن نطمئن إلى أن الدور الذي قامت به النظريات المذهبية من خارجية وشيعية وغيرها، سيكون على بساطته شكلاً ومنطلقاً، ذا تأثير عظيم في الانفتاح تدريجياً بعد صدر الإسلام، على الفلسفة بمفهومها العميق والفكر العلمي بمعناه الواسع.

كذلك فإن تلقين المعرفة يظل خارج نطاق المصحف القرآني، مقصوراً على الرواية والسماع والحفظ الشفوي. ولذلك فإن المشقة كانت كبيرة في نشر المعرفة على بساطتها شكلاً ومحتوى، إذ لا أحد تقريباً يتناول كتاباً فضلاً عن أن يؤلفه، خارج المصحف. فمن غير المعقول أن نتحدث عن نهضة أو انطلاقة علمية واسعة النطاق بالمفهوم الصحيح للعصر الوسيط. ولكن لا جدال في أن ما انتشر من معرفة عن طريق الإسلام في صدر الإسلام هو بالذات ما كان العرب يحتاجون إليه في ظروفهم الزمنية والمكانية، بل هو شيء عظيم وطفرة

مدهشة إذا قيست بالتخلف العربي المتجذر قبل الإسلام. فلأول مرة بالنسبة لأغلبية العرب ستتحول المعرفة إلى جهد يبذله العقل في التفكير والضبط والموازنة والتعليل والتعمق وإلى أشياء ترتبط بالاقتصاد والزراعة والحرب والتجارة والزواج والميراث والحقوق والواجبات؛ إن كل ذلك يُرَدَّدُ نصوصاً، ولكنه يفهم ويطبق، وهذه مرحلة من العلم ليست بالشيء الهين.

القـرآن

ليس من شأن هذه الدراسة أن تستعيد قضايا جمع القرآن بتفصيل وما قيل في تدوين المصحف من روايات، فإن المتفق عليه باختصار أن القرآن تم تدوينه في ثلاث مراحل:

١ ـ العهد النبوي الذي كان للرسول (ص) فيه كتّاب وحي يدونونه كتابة من غير أن يدونه أحدهم مجموعاً.

٢ ـ عهد أبي بكر الذي استعيد فيه التدوين في مصحف كامل انتقل إلى عمر في خلافته ومنه إلى ابنته حفصة.

٣ ـ عهد عثمان الذي تبين فيه اختلاف الروايات بين الحفاظ، ومن ثم أعيد التدوين من جديد بمقابلة الروايات المختلفة مع صحائف حفصة، وأعطيت الأولية للهجة قريش بوصفها أفصح اللهجات العربية. وساهم في هذه المرحلة النهائية من حيث كتابة المصحف العثماني كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. ولا ندري ما وجه اختيار هؤلاء الصحابة بالذات لكتابة المصحف وليس فيهم من الأنصار إلا واحد هو زيد بن ثابت، وهو على كل حال أعلاهم كفاءة وأشدهم

اتصالاً بالرسول (ص). ولم يكن الإجماع تامّاً على ترتيب السور؛ فإن لابن مسعود ترتيباً مخالفاً، ولأبي بن كعب ترتيباً آخر، وكلا الترتيبين ذكره ابن النديم في الفهرست. وعلى كل فترتيب السور لا يخضع لأي اتجاه محدد. وكان عبد الله بن مسعود يناهض عملية فرض المصحف العثماني على الأمصار، لأن الخليفة عثمان أمر بإحراق المصاحف التي تخالفه، ورفض ابن مسعود تنفيذ تعليمات الخليفة في الكوفة.

وعلى أية حال فإن معظم الروايات تم التنسيق بينها في المصحف العثماني بالرغم من خلاف جزئي في القراءات، حيث يظهر أن الأمصار لم تفرط في بعض القراءات الخاصة تمشياً مع حفاظها والملقنين لها. وفي جميع الأحوال يظل القرآن سليمًا في محتواه من أي تحريف أو نقص أو تزيد. وقد تمت عملية تدوين المصحف العثماني سنة ثلاثين[١].

وقد اتسع نطاق تحفيظ القرآن من عهد الخليفة عمر الذي كان يراعي في توزيع العطاء مقدار المحفوظ من القرآن[٢]، واشتد في ذلك في الحواضر والبوادي حتى كان يأمر بعقاب من لا يحفظ منه شيئاً، بل إن بعض البدو ماتوا تحت ضربات السياط من أجل عدم حفظ نصيب من القرآن[٣].

واحتاج القرآن مع حفظه إلى مفسرين يشرحون ما غمض منه،

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٤٥؛ ابن الأثير: الكامل ٣/٥٥؛ ابن خلدون: ٢/١٠١٩؛ علي حسن عبد القادر: نظرة عامة في الفقه الإسلامي، ص ٩٠ ــ ١٠٥.

(٢) ابن عبد ربه: العقد ١/٢٦٦.

(٣) صالحاني: رنات المثالث والمثاني ٢/٢٧٣.

وإن كان فهم العرب في هذه الفترة لمحتواه أقرب وأوضح من فهم الأجيال اللاحقة، وكلهم أو جلهم يعرف لهجة قريش التي هي أهم لهجات القرآن من حيث محتواها كمًّا.

وكان المفسر يدعى بالقاص. وكان أشهر المفسرين وأول من دون تفسيره هو عبد الله بن عباس الذي كان يلقي دروس التفسير على منبر البصرة[1]. وكان القصاص يصحبون الجيوش في تنقلاتها لتفسير الآيات التي تتعلق بقضايا الجهاد والحياة اليومية.

الحديث والفقه

السنة النبوية تشمل أقوال النبي وأفعاله؛ وأقواله هي الأحاديث التي ألقاها في مجالس عامة أو خاصة أو سمعها منه أفراد منفردون، وهي تتمم القرآن من حيث التفاصيل. وتبدو السنة في مجموعها ضرورية للتعرف على الخطوط الأساسية للفقه الإسلامي من حيث العبادات والمعاملات. وإذاً فالفقه يظل في صدر الإسلام فقه قرآن وسنة بالدرجة الأولى، ولكن دور الاجتهاد فيه مع ذلك دور طيب. والمحدثون في العصر الراشدي كثيرون، منهم أبو هريرة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت والخلفاء الأربعة وعبد الله بن عمر وآخرون كثيرون رجالاً ونساء. ولكن أبرز رواة الحديث عائشة بنت أبي بكر وزوجة الرسول (ص).

والواقع أن الفقه كان لا يزال بعيداً عن التجميع والتدوين، بل إن مما يلفت النظر، أن يسبق تدوين الفقه تدوين معظم مدونات الحديث الأساسية، لأن النوازل كثيرة والمسلمون قد صاروا بحاجة إلى

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٤٥.

دراسات مفصلة لما يهمهم من القوانين الدنيوية، وكل هذه الأشياء ستتأخر إلى بداية العصر العباسي وما وراءها.

وقد اعتبر علي حسن عبد القادر(1) أن مصادر التشريع في العهد النبوي كانت هي: العرف العربي، والقرآن واجتهاد الرسول.

وإذا راعينا وجود أعراف أخرى بالبلاد المفتوحة في العصر الراشدي تصبح مصادر التشريع حينئذ، هي:

١ ــ العرف لدى المجتمعات الإسلامية
٢ ــ القرآن
٣ ــ السنة
٤ ــ اجتهاد الصحابة وآراءهم

وهنا لا ينبغي أن يعتبر إلا الذين برهنوا عن تمرسهم بالقرآن والحديث وممارسة الأحكام، إذ ليس كل من نطق برأي أو حكم أو روى حديثاً يضاف إلى سلسلة الأئمة.

ولما كان الاجتهاد يفتح باباً للخلاف عند تعدد الآراء، فقد نشأ الخلاف بين كبار الصحابة أيضاً في أمور معينة تتعلق بالعادات والعبادات. ورد هذا الخلاف عند بعض المتأخرين إلى مدى اجتهاد الصحابي في فهم القرآن أو الحديث أو أعمال النبي(2) (ص). ومن ثم فلا يوجد عملياً إجماع حقيقي للصحابة في كل الأحكام والنوازل.

---

(١) علي حسن: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، ص ٥٤.
(٢) ن.م. ص ٨٧ ــ ٨٨.

ولكن يمكن اعتبار رأي الأغلبية إجماعاً[1]، وبدون ذلك لا يصح أن يقال إن هناك اجتهاداً في هذا العصر.

الفلسفة الدينية والسياسية

لم تبدأ أسس الفلسفة الدينية بالقرن الرابع الهجري ولا بالعصر العباسي الأول الذي ظهر فيه المعتزلة والأشاعرة ولا بالعصر الأموي الذي تجسمت فيه عقائد الخوارج. بل تنطلق هذه الفلسفة من القرآن الذي جادل أهل الكتاب والمجوس والطبيعيين، وعلل الظواهر العلمية وربطها بالعقل والروح وأعطى للتصوف منطلقاً من نبذ مباهج الدنيا أو عدم الاغترار بها، وزكى قيمة العقل والفكر في كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر الكون والحياة. إن الفلسفة الدينية هي قبل كل شيء فلسفة بيئية وتاريخية. فهي بيئية لأنها ارتبطت بواقع المجتمع الإسلامي والمجتمعات التي تتعايش معه وتناهضه في الفكر والعقيدة. وهي تاريخية لأنها تناولت المنطق الجدلي حول قضايا الايمان والعقيدة لشعوب بينها من باد وانقرض وبينها من تطور أو حافظ على مفاهيمه القديمة. فليس عجيباً والحالة هذه أن يكون عصر الراشدين بما ضمه من تناقضات سياسية على الأخص، عصر مراجعة لا فحسب لفلسفة الحكم التي لم يحدد العهد النبوي صيغتها كاملة خارج نطاق فكرة الشورى، بل كذلك لموقف المسلم من الحياة ومن هؤلاء الذين لا يعتقدون اعتقاده في إطار مذهبي معين. إن هذه المراجعة في العصر الراشدي لا تبطل أسس الإسلام كما وضعت في العهد النبوي، ولكنها تقدم مفاهيم جديدة تختلف خدمتها للإسلام بين السلب والإيجاب:

---

(١) ن.م. ص ٨٩ ـ ٩٠؛ وراجع سلسلة الرواة عن النبي (ص) في المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ص ٣٦ ـ ٦٥ ومن النساء: ن.م. ص ٨١ ـ ٨٧.

١ ـ الفكر الصوفي

نجد هذا الفكر ينطلق إذاً:

ـ قبل كل شيء من القرآن الذي يحذر المسلمين من الاغترار بنعيم الدنيا ويعدهم بحياة أسعد في الآخرة إذا استعدوا لها بالعبادة والعمل الصالح. وفي كل حال ليست دعوة القرآن والإسلام أصلاً إلى التقشف المطلق.

ـ ثانياً: سنة الاعتكاف الذي هو ملازمة المسجد أياماً معدودة للعبادة والانقطاع للتأمل والذكر.

ـ ثالثاً، الدعوة الملحة من الراشدين بعد دعوة الرسول إلى احترام المنقطعين للعبادة من غير المسلمين وإلى عدم الاطمئنان إلى خيرات الفتوح والمغانم، والتعامل المستمر مع الآخرة من طريق الإحسان وبناء المساجد والتطوع للجهاد مجرداً عن أي غرض دنيوي.

فالتصوف الإسلامي الأصيل هو تصوف سنيّ من عطاء الحضارة القرآنية وليس مجلوباً من أفكار الهنود ولا الفرس. وإنما الذي طرأ أن هذه الأفكار وغيرها ستأتي في فترة لاحقة من طريق الدراسات الفلسفية وسيتأثر بها الفكر الصوفي في المشرق أكثر مما يتأثر بها الفكر المغربي.

ومع عودة الرسول وأغلب الصحابة الرئيسيين إلى الاقتصار من متع الحياة على ما لا يصرف المؤمن عن اهتماماته الدنيوية والاجتماعية ولا عن تخصص وقت كاف للعبادة التي هي مجاهدة نفسية، فإن أبا ذر الغفاري انفرد بنظرية إلزام المجتمع بالزهد والتخلي عما عدا الحد الأدنى من القوت اليومي لصالح الجماعة التي هي بحاجة إليه. ولم تمر هذه الدعوة كصيحة في واد، فقد أحدثت دوياً في أوساط المجتمع الإسلامي، وكان لها أثرها المباشر والبعيد.

وأبو ذر هو جندب بن جنادة (بضم الجيمين) من غفار التي تنتمي إلى كنانة[1]، وهو خامس من دخلوا في الإسلام في العهد النبوي. وروى أحاديث كثيرة عن الرسول (ص). وانتقل إلى الشام عند تولية أبي بكر، وقيل إن عبد الله بن سبأ اتصل به ولفت نظره إلى ما يقوله معاوية عامل الشام من أن المال مال الله ولا يقول مال المسلمين كأنه يريد أن يستأثر بهذا المال دونهم ويتعلق بالسلطة الإلهية. ودخل أبو ذر على معاوية فأخذ عليه ذلك والتزم معاوية أن يقول إن المال مال المسلمين، ثم دعا أبو ذر بالشام إلى تنازل الأغنياء عن أموالهم للفقراء، ووجد هؤلاء في ندائه قوة تساعدهم على حمل الأغنياء على التخلي عن أموالهم للفئات غير المحظوظة. وأخيراً اضطر معاوية حفاظاً على سلطته أن يستأذن عثمان في ترحيله، فأمر بنقله إلى المدينة مع حسن معاملته.

ولما استقبله عثمان استفسره عما يشكو منه أغنياء الشام، فقال: لا ينبغي أن يقال مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً. فقال: يا أبا ذر، عليّ أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا ينبغي أن أجبرهم على الزهد، وأدعوهم إلى الاقتصاد. على أن أبا ذر واصل دعوته بالمدينة، ثم استأذن الخليفة في الاستقرار بضواحيها، وخصص له عثمان ما يقوم به فكان لا يترك شيئاً ويتصدق بما أخذ. أما معاوية فقد طرد أسرته التي التحقت به في الربذة من ضواحي المدينة. وجرى بينه وبين كعب الأحبار نقاش بمحضر عثمان، لأن أبا ذر قال: إن أداء الزكاة لا يكفي إذ لا بد أن يحسن الموسر إلى الجار والقريب والمحتاج، فقال كعب الأحبار إن من أدى الفريضة برئت ذمته، فشجه أبو ذر.

---

(١) الحافظ الذهبي: العبر ١/٣٣.

وكان أبو ذر يتردد على المدينة بطلب من الخليفة. وكانت وفاته سنة ٣٢. وقد اختبر كل من معاوية وعثمان صدق دعوته بالعطاء الكثير وتتبع مصيره فوجدوه لا يكاد يترك منه قوت يومه. وقد تكفل بأسرته بعد موته كل من صديقه عبد الله بن مسعود والخليفة عثمان. وكان إخراج أبي ذر من المدينة، من أهم المآخذ التي أخذت على عثمان خلال الثورة ضده، وفي خضم هذه الثورة كان صوت الفئات الفقيرة التي وصفت بالغوغاء في المصادر الإسلامية أقوى الأصوات التي هتفت ضد تبذير ثروات الأمة واستيلاء مجموعة من الانتهازيين على مقاليد الحكم[1].

وتعد نظرية أبي ذر في استفادة الجميع من ثروات المحظوظين أول دعوة اشتراكية ثورية في الإسلام. والتزام أبي ذر الصمت إلى عهد عثمان له أكثر من دلالة على التطور السلبي الذي حصل في إعادة توزيع الثروات بعد الخليفة عمر.

٢ ــ التشيع

هو مذهب القائلين بإمامة علي وخلافته (نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده). هكذا عرف الشهرستاني مذهب التشيع[2] الذي يختلف بين الاعتدال والتطرف.

على أن علياً إذا كان له مناصرون قبل توليه الخلافة، فإن دور

(١) راجع حول أبي ذر: الطبري: ٥/٦٦ و٨٠؛ ابن الأثير: الكامل ٣/٥٦ و٦٧؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة ١/٨٩؛ ابن خلدون: ٢/١٠٢٨؛ ووردت بعض أقواله في العقد الفريد، والبيان والتبيين للجاحظ وغيرهما؛ وانظر أيضاً: الزركلي: الأعلام (جندب).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٧٤.

بعض المتطرفين منهم إنما يبرز أكثر فأكثر بعد توليته. وهم الذين تزعمهم عبد الله بن سبأ الذي قال إن علياً حي لم يمت لأن الذات الإلهية حلت فيه وأنه سيظهر مرة أخرى لتطهير الأرض من الجور وأن تناسخ الطبيعة الإلهية تنتقل تباعاً إلى الأئمة بعده وذلك ما يسمى بالرجعة[1]. ومعلوم أن فكرة الرجعة موجودة في الديانة اليهودية بالنسبة لموسى وفي المسيحية بالنسبة لعيسى. ومن ثم فإن فكرة المهدي المنتظر وجدت سوقاً رائجة في الأوساط الشعبية بالعالم الإسلامي عبر القرون.

كذلك ظهر الإمامية في عهد علي، بزعامة علي بن إسمعيل بن هيثم التمَّار، وهم القائلون بإمامة علي بالنص ومن غير تعريض بالوصف. ومما استدلوا به من أقوال النبي (ص): أقضاكم علي. وقالوا إن الإمامة لا معنى لها إلّا أن يكون أقضى القضاة في كل حادثة. على أنهم لم يتفقوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين، وإن كانت هذه مرحلة لاحقة وليست مرحلة صدر الإسلام. وفيهم من طعنوا في كبار الصحابة واعتبروا الراشدين الثلاثة قبل علي مغتصبين للخلافة[2]. وقد تفرق الإمامية إلى فرق كثيرة لا يهم تفصيلها وآرؤ ها هذه الدراسة.

إن التنظيمات الشعبية قد تعددت بعد العصر الراشدي لعدة أسباب منها التعاطف مع أسرة معينة من أهل البيت، ومنها النفوذ الروحي لهذا الإمام أو ذاك، ودور التلاميذ والعاطفين. وفي جميع

---

(١) ن.م. وص؛ المقريزي: خطط ٣/٣١٠.

(٢) الشهرستاني. م.س. ص١٦٢؛ المقريزي: م.س. ص ٣٠٠.

الأحوال كان الغلاة أقوى نفوذاً وأكبر عدداً كما حدث بالشام والعراق وفارس، لأنهم في الغالب أحكم تنظيمًا وأميل إلى العمل المسلح مع تنسيق النشاط الدعائي.

٣ ـ المذهب الخارجي

ولنقل المذاهب الخارجية، لأن بعض اختلافاتهم الرئيسية ظهرت في العصر الراشدي. وقد مر الحديث عن نشأة الحركة الخارجية من الوجهة السياسية في عرض قضية التحكيم. وبالنسبة للعصر الراشدي على العموم، فإن هذه الحركة مرت بثلاث مراحل:

أولاً ـ مرحلة الطعن في التحكيم واعتزال علي وخصومه.
ثانياً ـ مرحلة الجدل مع علي وأنصاره.
ثالثاً ـ مرحلة التمرد وإنشاء إمامة تستظل الحركة بظلها.

ولقد فسّر الشهرستاني معنى الخارجي بأنه كل من خرج عن الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة، سواء في عهد الراشدين أو بعدهم[١]. وعلى هذا فتفسير الشهرستاني له مدلول سياسي وديني معاً، لأن الخروج عن السلطة القائمة يعني القيام بتحرك مضاد والتخلي عن التزام ببيعة المسؤول الأكبر في الأمة.

وبالرغم من كثرة الفرق الخارجية فإن أهمها هي الأزارقة والصفرية والإباضية وكلهم ظهروا تباعاً. وقد تميز العصر الراشدي بظهور أول طائفة سبقت هؤلاء وسموا بالمحكمة أو الحكمية، كما سموا بالحرورية. ومنهم تكوّنت مجموعة الأزارقة، ومن زعماء المحكمة عبد الله بن الكوّاء، وعبد الله بن وهب الراسبي وعروة بن جرير.

(١) الشهرستاني: م.س. ص ١١٤.

وطعن المحكمة في التحكيم الذي سبق عرضه في أحداث حرب صفين في خلافة علي، وقالوا بإمامة غير القرشي وبإمامة أي مسلم توفرت فيه الشروط المطلوبة لا سيما إقامة العدل، ولذلك كانوا لا يطعنون في خلافة العمرين ويطعنون في عثمان ثم في علي لمجرد قبوله التحكيم.

ولكي يطبق المحكمة مذهبهم سياسياً كما سيطبقونه عقائدياً، فقد بايعوا بالإمامة أحد زعمائهم وهو عبد الله الراسبي سنة ٣٧ هـ.

ولم يتصد علي لمحاربتهم على الفور، فقد جادلهم جدالاً عقائدياً إما مباشرة أو عن طريق عبد الله بن عباس(١) الذي يعد أبرز مفكري الإسلام في العصر الراشدي. وإذا كان العربي من طبيعته أن يجادل في مسائل الحكم كما دلت على ذلك أحداث بيعة أبي بكر وفتنة عثمان فإن قضيه التحكيم، وبالتالي ظهور الخوارج فتح المجال لأول مرة لجدل عقائدي لم يأت أبداً من أي تأثير أجنبي، بل هو جدل داخل المجتمع العربي بالذات. ثم إن الخوارج سينتقلون على الفور بعد وقائعهم مع علي والتي انهزموا فيها وقتل آلاف منهم إلى عمان وكرمان وسجستان والجزيرة واليمن(٢)، وهناك يحظى المذهب الخارجي بإقبال كبير لأنه يرضي طموحات العناصر غير القرشية وغير العربية في اختيار الإمام أو الأئمة حسب ميثاقها المناهض للأوليغارشية.

وإذا كان الاتجاه السياسي يجمع الخوارج على طريق واحد، فإن الاتجاه العقائدي المختلف، يفرّق بينهم، إلى حد يبدو فيه التناقض

---

(١) المبرد: الكامل ٣/١٠٣ و١٢٣؛ ابن عبد ربه: العقد ٢/٢٠٦ ــ ٢٠٧؛ وذكر ابن النديم في الفهرست ص ٢٧٢ مؤلفات متأخرة للخوارج.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/١١٧.

أحياناً. وبهذا الصدد يبدو الأزارقة كأول فرقة متطرفة بين الخوارج، وهم أنصار نافع بن الأزرق من تلاميذ عبد الله بن عباس وأصدقائه القدامى، ومن مذهبه[1]:

أولاً ــ جواز قتل الأطفال والقعدة أي المتخلفين عن القتال، ونساء من ليس على مذهبهم.

ثانياً ــ استحلال الأمانة، أي أمانة المخالفين للمذهب، على أن تكون فيئاً!

ثالثاً ــ إبطال رجم الزاني المحصن.

رابعاً ــ فرض الصلاة والصيام على الحائض.

خامساً ــ الحكم بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم.

سادساً ــ تكفير مرتكب الكبيرة مع خلوده في النار.

سابعاً ــ عدم جواز التقية قولاً وفعلاً.

ثامناً ــ تكفير علي.

على أن النشاط السياسي للأزارقة لا يبرز إلاّ ابتداء من ثورة عبد الله بن الزبير. وقد خالفهم النجدات، وهم أنصار نجدة ابن عويمر الحنفي الذي خرج باليمامة، وقد جادل نافع بن الأزرق، وأنشأ مذهباً جديداً انتشر في عهد ثورة عبد الله بن الزبير، وهم معتدلون بالقياس إلى الأزارقة[2].

---

(١) ابن حزم: الفصل ١٨٩/٤؛ المقريزي: خطط ٣٠٧/٣؛الشهرستاني: الملل والنحل ١١٨/١.

(٢) المبرد: الكامل ١٠٥/٣و١٢٤، ٩١، و١٧٠ــ١٧١؛ ابن عبد ربه: العقد ٢١٢/٢؛ المقريزي خطط ٣٠٧/٣.

ومن المخالفين الأولين لعبد الله بن وهب جماعة النخيلة الذين ظهروا بعد الحروريين وكانوا قد فضلوا التزام الحياد تجاه علي وخصومه، ولكنهم ما لبثوا أن تمرّدوا على علي، فقاتلهم ولم يبق منهم إلاّ أفراد قلائل(1).

وبالرغم من ظهور فرق كثيرة من الخوارج فقد انقرض معظمها بعد ظهورها بفترة تختلف من جيل إلى بضعة أجيال، فالأزارقة انتهى أمرهم بعد حوالي عشرين سنة من ظهورهم، وتحدث ابن حزم عن اختفاء جميع النزعات الخارجية في القرن الخامس (١١ م) باستثناء الصفرية والإباضية.

ويمكن القول دون مجازفة إن حركة الخوارج تعبير ذاتي وتلقائي عن اتجاهات المجتمع البدوي المتحمس للإيمان الصلب بقطع النظر عما تحمله الروح العقائدية من بعد عن الرأفة والحرية المذهبية، بينما تجد الشيعة أنصارها على الخصوص في المراكز الحضرية التي يمكن أن تحتضن الأسرار وتأخذ بالتقية أكثر مما هو الشأن لدى المجتمع البدوي الذي يميل إلى الوضوح والصراحة، وإن لم يكن هذا الحكم مطلقاً بالنسبة للمجتمعَين معاً.

وما من دعوة في الإسلام وجدت نصيراً قوياً في المرأة كدعوة الخوارج. إن المرأة تذكرنا هنا بأختها المتأخرة في الثورة الفرنسية والتي عبّرت أيما تعبير عن استيائها من الظلم والتجويع والهيمنة البورجوازية. وهكذا دفعت المرأة الخارجية بالرجل الخارجي انطلاقاً من العصر الراشدي إلى الثورة والمغامرة والتضحية بالنفس في سبيل

---

(1) المبرد: الكامل ٣/١٤٠.

العقيدة، وجادلت الحكام مثله، وخطبت وعبّرت بالشعر وبحضورها في المعامع عن نفس الطموحات التي دافع عنها الرجل[1].

الأدب

لقد يكون تجوزاً الحديث عن الأدب كمستوى معين للثقافة العامة يبرز الشعر والنثر فيهما بأوفر نصيب، فحتى العهد الأموي لن يحظى بهذا الصنف من المثقفين على نطاق واسع على الأقل. ومع ذلك فالشعر والنثر ما يزالان أقرب إلى الفطرة منهما إلى الصنعة، فهذا الشعر والنثر غير المصنوع أو المصنّع، مع وجود مثقفين يتوفرون على معارف عامة من مستوى عال هو الذي يجعلنا ندرك أن ثمة بوادر لوجود أدب فطري في صدر الإسلام كالذي يمثله زيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار والذين لقحوا مواهبهم في الشعر والنثر بثقافة مستمدة من الإسلام قرآناً وسنة واجتهاداً. ثم هناك في الصف الآخر شعراء كرّسوا حياتهم للشعر، بينما نجد في خطب الراشدين وعدد من قادة الجيوش والولاة وغيرهم نماذج جيدة للنثر المطبوع المتأثر بمصطلحات الدين شأن الشعر أيضاً في أغلب الأحوال. لقد كان العصر إذاً، عصر أدب إسلامي يستبعد الغزل والخمريات ويحتفظ بما عداها من فنون الشعر التقليدية، بل إن المدح لا يجد له مجالاً كافياً لدى حكام أغلبهم يمارس شعائر الدين بصرامة ولا يمكن أن ينقاد للمتملقين حيث يوجد رأي عام يرفع عقيدته ضد الإسراف وسوء التصرف في أموال الأمة. ومع ذلك فإن المدح لم يختف، ولا سيما ما كان إلى الصدق أقرب منه إلى التكسب.

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٧٥؛ المبرد: الكامل ٣/١٤٦.

وقد تعايش الشعر والنثر مع الأحداث السياسية وكانا لسانها المعبّر في عصر لم يوجه اهتمامه إلّا لتدوين القرآن وحده تقريباً. وهكذا فإن مقتل الهرمزان على يد عبيد الله بن عمر أثار جدلاً حقيقياً بين الذين اتهموه بقتل شخص لم يتأكد تآمره على قتل عمر، وبين عبيد الله وأنصاره. وفي ذلك يقول زياد بن لبيد الأنصاري يخاطب عبيد الله(١):

أصبحت دمـاً والله في غـير حـلـه
حـرامـاً وقـتـل الهـرمـزان لـه خـطر

وأسهم الخوارج بوفير حظ في إغناء الشعر السياسي بقصائدهم العفوية التي تعبر عن ثورتهم واسترخاصهم للدماء البشرية مهما كانت بريئة. فبعد مقتل علي الذي كان ضمن شروط صداق قطام لقاتله ابن ملجم قال أحدهم(٢):

فـلم أر مَـهْـراً سـاقـه ذو سـمـاحـة
كـمـهـر قـطام بيّـن غـير مـبـهـم:

ثـلاثـة آلاف وعـبـد وقـيـنـة
وقـتـل عـلـيٍّ بـالحـسـام المسـمَّـم

فـلا مـهـر أغـلى مـن عـلي وإن عـلا!
ولا فـتـك إلّا دون فـتـك ابـن مـلجـم!

وقال ابن أبي مياس المرادي الخارجي حول مقتل علي(٣):

---

(١) الطبري: ٥/ ٤١ ـ ٤٢؛ ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) المقدسي: البدء ٥/ ٢٣٣.
(٣) ابن الأثير: ٣/ ١٩٨.

ونحن خلعنا ملكه من نظامه
بضربة سيف إذ علا وتجبرا

ونحن كرام في الصباح أعزة
إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وكان أثرى فنون الشعر عطاء في هذا العصر هو الشعر الحربي الذي تناول حروب العرب الداخلية كحروب الردة وصفين والخارجية كحروب الشام والعراق. وكانت الانتصارات والأعمال البطولية مناسبة للتفاخر والتباهي بين الأوساط العربية، حيث تظل المؤثرات القبلية بعيدة عن أن يزحزحها الإسلام عملياً وإن حاربها شريعة وفكراً.

يقول الطاهر بن أبي هالة الذي مزق جموع قبيلة «الأخابث» وأنصارهم في حروب الردة بساحل تهامة[1]:

فلم تر عيني مثل يوم رأيته
بجنب صحار في جموع الأخابث

قتلناهم ما بين قنة خامر
إلى القيعة الحمراء ذات النبائث

وفئنا بأموال الأخابث عنوة
جهاراً ولم نحفل بتلك الهثاهث

ولم يكن الطاهر بن أبي هالة هو القائد الوحيد الذي أسهم في الشعر الحربي، بل لقد كانت موضة العصر أن يتولى القادة أنفسهم التعبير عن مفاخرهم الحربية، وهذا المثنى بن حارثة من أبرز القادة في

(١) ابن الأثير: ٢/٢٥٤ (مع تعليق محققه).

عهد أبي بكر وعمر، يقول مفاخراً بكَبْس سوق الخنافس قرب الأنبار بالعراق حيث استولى على أموال «بكر» النصرانية[1]:

صبَحْنا بالخنافس جمع بكر
وحيّاً من قضاعة غير ميل

بفتيان الوغى من كل حي
تُباري في الحوادث كل جيل

نسفنا سوقهم والخيل رود
من التطواف والشرب البخيل

ونحن لا نجد في مثل هذا الشعر ما يميزه عن مغامرات عنترة وأضرابه من شعراء الجاهلية.

وأعطت معارك القادسية فيضاً من الشعر جرى على لسان قواد من الجيش وغيرهم من المحاربين. وتميز هذا الشعر بنصه على أسماء من قادة الفرس البارزين الذين سقطوا صرعى على يد قائلي الشعر، يقول صليحة بن خويلد الأسدي[2]:

أنا ضربت الجالينوس ضربة
حين جياد الخيل وسط الكبّه

وأنشد زهير بن عبد شمس البجلي[3]:

أنا زهير وابن عبد شمس
أودّيت بالسيف عظيم الفرس

(1) ياقوت: معجم البلدان (مادة خنافس).
(2) البلاذري: فتوح، ص ٣٦٣.
(3) ن.م. وص.

رستم ذا النخوة والدمقس
أطعت ربي وشفيت نفسي

ونسبت لمحارب مجهول الاسم قصيدة افتتحها بالنسيب ثم وصف أهوال المعركة وذكر أسماء بعض الشهداء(١):

إذا برزت منهم إلينا كتيبة
أتونا بأخرى كالجبال تمور

فضاربتهم حتى تفرّق جمعهم
وطاعنتُ إني بالطعان مَهير

وعمرو أبو ثور شهيد، وهاشم
وقيس ونعمان الفتى وجرير

ويظهر أن هؤلاء الشهداء، كانوا من جماعة ذوي الرأي والفصاحة الذين طلب منهم أن يتولوا «تحريض الناس على القتال»(٢)، بل إن مما يثير الانتباه أن حضور الشعراء في حروب القادسية كان مطلوباً بصفة رسمية، حيث كان من بينهم الشماخ والحطيئة والعبدي وعبدة بن الطيب وآخرون(٣). وإذا عرفنا أن معارك القادسية كانت في عهد عمر بن الخطاب، تأكدنا من أن الشعر لم يحارب إلّا إذا كان للمجون والمتع المحرمة. وقد نالت مختلف المعارك ضد الفرس والروم والفئات التي حاربها العرب، نصيبها من الإنتاج الشعري الذي يظل مطبوعاً في جملته بطابع الفخر والارتياح لمصرع الآخرين، دون أن

---

(١) ياقوت: م.س. (مادة قادسية).
(٢) ابن خلدون: ٩٢٨/٢.
(٣) ن.م. وص.

يتدخل فيه الحس الديني بمؤثرات تستحق الذكر، خلافاً لأبواب أخرى من الشعر، بل إن أدب الخوارج الذين يقاتلون إخوانهم المسلمين أعرق في المؤثرات الدينية من أدب غيرهم.

واتخذ الشعر في حرب الجمل اتجاهاً خاصاً من حيث الشكل، فهو في أكثره رجز عادي أو مكون من ثلاثة أشطار. والشعر من هذا النوع أقرب منالاً وأكثر عفوية. أما من حيث المضمون، فهو إما تعبير عن التضامن مع عائشة وأنصارها وتنويه بعثمان، وإما وقوف بجانب علي وقضيته، مع هجاء عائشة كسيدة أولى للأمة، أقحمت نفسها في حرب إخوة. ولكنه في عدة نماذج يعطي للروح العشائرية الدفينة منعشاً لم تكن لتجده في الحروب التي قامت ضد عدو مشترك. وعلى كل فإن أدب «الجمل» يمثل نموذجاً لشراسة الحرب التي خاضها الفريقان ولتصلّب كل منهما في موقفه. قال حُكيم (بضم أوله) بن جبلة من أنصار علي وقد قطعت رجله وهو لا يزال مصمماً على القتال:

أقول لما جدّ بي زماعي
للرِّجْل: يا رِجْلِيَ لن تراعي
إنّ معي من نجدةٍ ذراعي!

ولنمران الهمذاني في نفس الموقعة[1]:

جودت نفسي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهد

---

(١) الطبري: ٥/٢٠٨.

وقال شخص يدعى الحارث من بني ضبة من أنصار عائشة[1]:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

الموت أحلى عندنا من العسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل

وأنشدت والدة شاب من أنصار علي تعرّض بموقف عائشة[2]:

لا هُمَّ إن مسلمًا دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهمُ

وأمهم قائمة تراهم
يأتمرون الغي لا تنهاهمُ

قد خُضبت من علق لحاهمُ

وقد سالت دماء المتحاربين غزيرة في حرب صفين التي تكشفت هي الأخرى عن أدب شعري له مميزات الأدب الحربي عامة في هذا العصر، ولكن الرجز فيه أقل تداولاً منه في حرب الجمل، فهل كان الجمل نفسه ملهمًا لا شعورياً لمنشدي الرجز الذي كان أول ما استعمل من الأوزان في الجاهلية لحداء الجمل نفسه؟

---

(1) ن.م. ص ٢٠٩.
(2) ن.م. ص ٢٠٦؛ وانظر ما يتعلق بأدب موقعة الجمل في ن.م. ص ١٧٧ ــ ٢٢٣.

ومن نسب إليهم إنتاج شعري في هذه المناسبة علي بن أبي طالب الذي قال في معرض التنويه بإحدى فرق جيشه[1]:

أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا
بأسيافنا حتى تولى وأحجما

جزى الله قوماً صابروا في لقائهم
لدى الموت قوماً ما أعف وأكرما!

وإذا كان هناك من شعر يتسم ضرورة بالصدق ونبل العاطفة بعيداً عن قعقعة الأوصاف البراقة فهو شعر الرثاء الذي تقدّم نماذجه المخصصة لتأبين الرسول عليه السلام صورة تطابق تماماً عواطف أنصار الإسلام ورسوله، ومن هذه النماذج ما قالته صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول[2] (ص):

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا برّاً ولم تك جافيا

وكنت رحيمًا هادياً ومعلما
ليبك عليك اليوم من كان باكيا

صدقت وبلغت الرسالة صادقاً
ومت صليب العود أبلج صافيا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٥٢/٣؛ وانظر بعض ما قيل في صفين في ن.م. ص ١٤١ ــ ١٦٥.

(٢) العمري: مهذب الروضة الفيحاء، ص ٩٤.

وشعر حسان بن ثابت أغزر شعر قيل في الرسول وقد كان لسان حاله تجاه خصوم النبي والإسلام. ومن رثائه(١):

وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

تقطع عنهم منزل الوحي والهدى
وقد كان ذا نور يغور وينجد

وليس أحسن تعبيراً عن فجيعة الجماهير في وفاة عمر من قول زوجته عاتكة(٢):

فجعتني المنون بالفارس المعـ
ـلم يوم الهياج والتأييب

قل لأهل الضراء والبؤس موتوا
قد سقته المنون كأس شعوب(٣)

وقد رثى عمر، الشاعر الشماخ وآخرون(٤).

وجمع حسان بين الدعوة الجاهلية في الأخذ بالثأر، والعاطفة الدينية، في رثائه لعثمان(٥):

من سره الموت صِرفاً لا مزاج له
فليأت مأسدة في دار عثمانَا

---

(١) المقدسي: البدء ٤/٦٩.
(٢) العمري: م.س. ص١٩٣.
(٣) يقارن بما في: الطبري: ٥/٢٨ ـ ٢٩؛ ابن الأثير: ٣/٣٢ ـ ٣٣.
(٤) المقدسي: البدء ٥/١٩٤.
(٥) ابن عبد ربه: العقد ٥/٤٥ ـ ٤٦.

لَتُسْمَعَنَّ وشيكاً في ديارهم
الله أكبر يا ثارات عثمانا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

وقد دخل الجدل بين أنصار عثمان وخصومه ميدان الرثاء الذي دعا إلى الأخذ بثأر عثمان على لسان الأولين ودافع عن قضية علي على لسان الآخرين(١). وكان أبو الأسود الدؤلي من أقرب الناس إلى علي، وكان يعتز بتشيعه له، وخاطب معاوية في معرض رثائه لعلي بقوله(٢):

ألا أبلغ معاوية بن حرب
فلا قرت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا
بخير الناس طرًّا أجمعينا؟

قتلتم خير من ركب المطايا
ورحّلها ومن ركب السفينا

أما الخوارج ومعاوية فقد هنأوا أنفسهم بمقتل علي الذي مزق جموعهم بعد محاولات غير ناجحة لإخضاعهم بالحجة والتفاوض(٣). ودافع بكر بن حسان الباهري عن شريعة الإسلام في شخص علي،

---

(١) الطبري: ٥/١٥٠ ـ ١٥١ و٦/٨٧؛ ابن الأثير: ٣/٩٦ ـ ٩٧.
(٢) الطبري: ٦/٨٧.
(٣) المقدسي: ٥/٢٣٤.

مهاجماً في ذات الوقت قاتله ابن ملجم. وهكـذا يجمع شعـر صدر الإسلام في هذا الباب بين شمائل الهالك وهجو أعدائه[1]:

قـل لابـن مـلجـم والأقـدار غـالـبـة
هـدمـت لـلديـن والإسـلام أركـانـا

قـتـلـت أفـضـل مـن يمـشـي عـلى قـدم
وأعـظم الـنـاس إسـلامـاً وإيمـانـا

وأعـلم الـنـاس بـالـقـرآن ثـم بمـا
سـن الـرسـول لـنـا شـرعـاً وتـبـيـانـا

صـهـر الـنـبـي ومـولاه ونـاصـره
أضـحـت مـنـاقـبـه نـوراً وبـرهـانـا

والحق أن المصطلحات والمعاني الإسلامية لم تنتظر العصر الراشدي لتبدأ في التأثير على الشعر العربي والإسلامي، بل إنها لتظهر بسرعة في العهد النبوي الذي يتواجه فيه أنصار الإسلام مع خصومه بالحرب اللسانية والميدانية معاً. وقد أوردت كتب السيرة والتاريخ الإسلامي عدة نماذج من هذا الشعر الذي يمكن أن نعده أول سجل تاريخي مباشر وجزئي للعهد النبوي.

أما ميدان الهجاء فقد توجه إلى أشخاص بذاتهم وهم في الأغلب الأعم من كبار الشخصيات. واستهدف الرسول عليه السلام لحملات ابن الزبعرى الذي أسلم فيما بعد[2]، كما تناول الهجو معاوية

---

(١) ابن الأثير: ٣/١٩٩؛ راجع نماذج من شعر الخوارج، خصوصاً الصفحات ٥ ـ ١٤، من كتاب شعر الخوارج لإحسان عباس.

(٢) هناك نماذج كثيرة من شعر ابن الزبعرى في السيرة النبوية لابن هشام، وكذا في تارخ الطبري.

وعائشة وعلياً وآخرين. وعلى العموم لم يكن هجواً فزيولوجياً بقدر ما كان انتقاد مواقف وتصرفات، ولا شك أن الحطيئة بما عرف عنه من بذاءة لسان وروح نفعية يعد سيد الهجائين والمدّاحين معاً، ومع ذلك لم يسعه وقد ارتد هو الآخر عن الإسلام إلّا أن ينتقد خلافة أبي بكر دون شخصه[1]:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا
فيا لعباد الله، ما لأبي بكر؟!

أيورثها بكر إذا مات بعده؟
وتلك، لعمر الله، قاصمة الظهر!

لقد ظل الشعر في عامته خلال صدر الإسلام شعر نضال ثم شعر قضايا يدافع عنها هذا الجانب أو ذاك في مختلف الفنون على قلتها حينئذ، وتأخذ القضية باهتمام الجميع وبإصرار، ودون تصنّع، ولذلك كان الأدب هنا تعبيراً جيداً عن أوضاع الجماهير وتطلعاتها السياسية والمذهبية، ولكنه يخضع لما تخضع له مظاهر الحياة العامة كلها وهو التوجيه الديني وأحكام الشريعة التي لا تداري المجون العلني كما لا ترتضي مجون الخفاء.

وأما النثر فقد استأثر بمعظمه المسؤولون من خلفاء وقادة جيوش وولاة، أو على الأقل فهو جل ما حفظه الرواة وأبقته المصادر، ومن نماذجه الخطب والمعاهدات والمراسلات خصوصاً التوجيهات الإدارية والسياسية، وكذا الوصايا وبعض الأقوال المبنية على صدق التجربة، وقد تذهب بعيداً في أغوار النفس البشرية. وما من شك في أن أثر القرآن والحديث قوي في نثر العهد الراشدي، لا سيما من حيث اقتباس آيات

---

(١) صالحاني: رنات المثالث والمثاني ٢/٣١٢.

القرآن وبعض الأحاديث. وعلى العموم فالخطب والوصايا والتعليمات تهتم بالدعوة إلى التقوى والإيمان والتزام العدل والتذكير بنعمة الإسلام ودوره في توحيد المجتمعات المؤمنة والتخويف من سوء المصير في الآخرة، وتحض المسؤولين في الأقاليم على العناية بالفئات الضعيفة وصرف أموال الأمة فيما استحقت له.

وفيما يلي بعض النماذج:

أولاً ــ من خطبة لعمر(١):

إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قَسْمكم كالذي أمر به. وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلّا ما أعان الله عز وجل. ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء...

ثانياً ــ عهد عياض بن غنم لأهل الرها من أراضي الروم المفتوحة(٢):

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عياض بن غنم، ومن معه من المسلمين لأهل الرها، إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذي عليهم: أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون...

ثالثاً ــ كتاب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم ضد خصومه:

---

(١) البلاذري: فتوح، ص ٢٤٠.

(٢) الطبري: ٥/١٠٥.

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، فبلّغ عن الله ما أمره به، ثم مضى وقد قضى الذي عليه، وخلف فينا كتابه، فيه حلاله وحرامه، وبيان الأمور التي قدّر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا، فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه.

ثم أُدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة. ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس، على غير طلب مني ولا محبة. فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، تابعاً غير مستتْبع، متبِعاً غير مبتدع، مقتدياً غير متكلف، فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله، بدت ضغائن وأهواء، على غير إجرام ولا تِرّة فيما مضى، إلّا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر، فعابوا عليَّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأٍ من أهل المدينة لا يصلح غيرها، فصبرت لهم نفسي، وكففتها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على الله جرأة، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله (ص) وحرمه وأرض الهجرة؛ وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد، إلّا ما يُظهرون. فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق».

رابعاً ــ فقر من كتاب عائشة زوجة الرسول (ص) إلى أهل الكوفة خلال استعدادها لمعركة «الجمل»[1]:

أما بعد، فإني أذكركم الله عز وجل والإسلام:

أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه. اتقوا الله واعتصموا بحبله، وكونوا مع كتابه. فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله

(١) ن.م. ص ١٨١.

بإقامة حدوده، فأجابنا الصالحون إلى ذلك، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لنتبعنكم عثمان، ليرتدوا الحدود تعطيلاً، فعاندوا، فشهدوا علينا بالكفر، وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم. فتركناهم وذلك، فلم يمنع ذلك من كان على رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي. . .

خامساً ــ فقر من وصية علي لأسرته، وقد كتبها أو بالأصح أملاها(١):

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي، ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين.

ثم أوصيك يا حسن، وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؛ فإني سمعت أبا القاسم (ص) يقول: إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يُهَوِّن الله عليكم الحساب. الله الله في الأيتام، فلا تعنوا أفواههم، ولا يضيعُنّ بحضرتكم. والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم (ص)، ما زال يوصي [به] حتى ظننا أنه سيورثـ[ـه]. والله الله في القرآن فلا يسبقنكم به إلى العمل به غيركم. . .

---

(١) ن.م. ج ٨٥/٦.

هذه بعض النماذج من نثر العهد الراشدي التي لو تم تجميعها لكوّنت مجلداً ضخماً يمثل قيمة خاصة في دراسة هذه الفترة لا من الناحية الأدبية فحسب، بل ومن النواحي السياسية والاجتماعية والاتجاهات المذهبية أيضاً. ومايقال في النثر يقال في الشعر أيضاً. وخلافاً للرأي الشائع بأن هذا العصر عصر مخضرمين فهو ليس كذلك إلّا بالنسبة لقسم من أحيائه، وإلّا فإن القسم الأكبر ممن يمثلهم جيل علي ولاحقوه، إنما فتحوا عيونهم في أحضان الإسلام وتأثروا به وأثروا في اتجاهاته بالرغم من بعض الجذور العميقة التي خلفتها الأفكار القبلية التي لا يختفي الكثير منها بسهولة في المجتمعات البدوية خاصة.

وأرجو أن تكون قراءة هذه الدراسة عن العصر الراشدي قد أوضحت للقارىء بعض المعالم التي كانت غامضة أو مجهولة عن هذا العصر الذي يمثل فيه التفاعل بين الدين والحياة بجميع مظاهرها دليلاً كافياً على التحول العجيب الذي أحدثه الإسلام في العقلية العربية وفي مردودها بالرغم من بعض السلبيات التي لا ترفع من الواقع التاريخي شيئاً. إن أهم حدث حضاري يمكن أن نستخلصه، هو أن الجماهير كانت تقول باستمرار: إننا هنا في الميدان نمد يدنا إلى المسؤولين بصدق ونبني معهم وننشىء، ولكن إذا ساء بهم ظننا فإن لنا في الإسلام مورداً للديموقراطية لا ينضب، وفي روحه الثورية مايتفق مع مزاجنا الطموح. والحق أنه لولا العصر الراشدي الذي يمثل دفعاً جديداً للعمل الإسلامي لكان هناك فراغ مخيف في حياة الإسلام والمجتمع الإسلامي بعد الرسول. ترى، ماذا كان يحدث، لو انتقلت الخلافة مباشرة بعد الرسول (ص) إلى الأسرة الأموية في ظروف كالتي حكمت فيها فعلاً؟

مصادر ومراجع

ابن الأثير علي بن محمد الجزري الشيباني، ٦٣٠ / ١٢٣٢ :
الكامل. تحقيق عبد الوهاب النجار، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨ .

ابن تغري بردى جمال الدين يوسف الأتابكي، ٨٧٤ / ١٤٦٩ :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة، القاهرة، نسخة مصورة عن م. د. الكُتب.

ابن حزم علي بن أحمد، ٤٥٦ / ١٠٦٣ :
الفصل في الملل والأهواء والنحل. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

ابن خرداذبة بن عبد الله، ٣٠٠؟ / ٩١٢ :
المسالك والممالك. برايل، هولندا، تحقيق دي خويه، ١٨٨٩م.

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨ / ١٤٠٥ :
تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر، الخ. . . تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب، بيروت، ١٩٥٦م.

ابن الزبير الرشيد أحمد بن الرشيد، ٨٠٩؟ / ١٤٠٦ :
الدخائر والتحف. تحقيق محمد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩م.

ابن طباطبا (المعروف ايضاً بابن الطقطقى) محمد بن علي، ٧٠٩ / ١٣٠٩ :
تاريخ الدول الإسلامية (المعروف بالفخري). دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٠ / ١٩٦٠م.

ابن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد، ٤٦٣ / ١٠٧٠:
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي البجّاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة.

ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري، ٢٥٧ / ٨٧١:
فتوح إفريقية والأندلس. تحقيق ألبر كَاتو، الجزائر، ١٩٤٨.

ابن عبد ربه أحمد بن محمد، ٣٢٨ / ٩٣٩:
العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٢ / ١٩٥٣.

ابن فرج القرطبي عبد الله بن محمد:
أقضية رسول الله (ص). مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٤٦هـ.

ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم، ٢٧٦ / ٨٨٩:
عيون الأخبار وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، نسخة مصورة عن دار الكتب، ١٣٨٣ / ١٩٦٣.

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، ٧١١ / ١٣١١:
لسان العرب. دار صادر ــ دار بيروت، لبنان، ١٣٧٤ / ١٩٥٥.

ابن النديم محمد بن إسحاق، ٣٨٥ / ٩٩٥:
الفهرست، الكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د. ت).

ابن هشام أبو محمد عبد الملك المعافري، ٢١٣ / ٨٢٨:
السيرة النبوية. تحقيق طه عبد الرؤوف، مكتبة شقرون، القاهرة، ١٣٩٨ / ١٩٧٨.

إحسان عباس:
شعر الخوارج. دار الثقافة، بيروت (د. ت).

الأزرقي محمد بن عبد الله بن أحمد (أواسط القرن ٤ / ١٠م):
أخبار مكة. تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، ١٣٨٩ / ١٩٦٩.

الاصطخري الكرخي أبو إسحق إبراهيم بن محمد (أواسط القرن ٤/ ١٠):
المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٣٨١ / ١٩٦١.

بروكلمان كارل:
تاريخ الشعوب الإسلامية. ج ١، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣م.

البلاذري أبو العباس أحمد بن يحيى ٢٧٩ / ٨٩٢:
فتوح البلدان. تحقيق عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٣٧٧ / ١٩٥٧.

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، ٢٥٥ / ٨٦٨:
البيان والتبيين. تحقيق السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٧٥ / ١٩٥٦.

دحلان أحمد بن زيني:
الفتوحات الإسلامية. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٤.

الذهبي (الحافظ) محمد بن أحمد، ٧٤٨ / ١٣٤٧:
العبر في خبر من غبر. تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠.

الزركلي خير الدين:
الأعلام. طبعة ثالثة، القاهرة، ١٣٧٦ / ١٩٥٦.

الشهرستاني محمد بن عبد الكريم ٥٤٨ / ١١٥٣:
الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٧ / ١٩٦٧.

صالحاني (الأب) أنطون اليسوعي:
رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني. ج ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٣م.

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، ٣١٠/ ٩٢٢:
ـ تاريخ الأمم والملوك. نسخة مصورة عن طبعة المطبعة الحسينية (بمصر)، بيروت.
ـ المنتخب من ذيل المذيل، ملحق بالمجلد الأخير من تاريخ الأمم والملوك.

علي حسن عبد القادر:
نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي. دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥م.

العمري ابن فضل الله أحمد بن يحيى، ٧٤٩/ ١٣٤٩:
المسالك والممالك. تحقيق أحمد ركي، ج ١. دار الكتب، القاهرة، ١٣٤٢ / ١٩٢٤.

العمري ياسين بن خير الله، ١٢٣٢ / ١٨١٦:
مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. تحقيق رجاء السامرائي، دار الجمهورية بغداد، ١٣٨٦ / ١٩٦٦.

الغلامي محمد بن مصطفى، ١١٨٦ / ١٧٧٢:
أصحاب بدر. بغداد.

فيليب حتي:
لبنان في التاريخ. دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.

القرطبي ابن فرج (انظر ابن فرج)

القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، [illegible] / ١٤١٨:
صبح الأعشى. نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير:
التراتيب الإدارية (يحمل أيضاً اسم نظام الحكومة النبوية). دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).

كحالة عمر رضا:
معجم قبائل العرب. دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨ / ١٩٦٨.

المبرد أبو العباس أحمد بن يزيد، ٢٨٥ / ٨٩٨:
الكامل. المبرد، تحقيق إبراهيم الدجموني، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٣٩هـ.

المقدسي مطهر بن مطهر (أواسط القرن٤ / ١٠).
البدء والتاريخ. نسخة مصورة عن طبعة باريز (المنشورة سنة ١٨٩٩).

المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، ٨٤٥/ ١٤٤١:
الخطط والآثار. دار العرفان، لبنان، ١٩٥٦م.

ياقوت شهاب الدين بن عبد الله الحموي، ٦٢٦/ ١٢٢٨:
معجم البلدان. دار صادر، بيروت، ١٣٧٦ / ١٩٥٧.

اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ٢٨٤ / ٨٩٧:
البلدان. المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، ١٣٧٧ / ١٩٥٧.

Cavaignac (Eugène), *Histoire de L'Antiquité*,
Cotit. Fontemoring, Paris, 1914.
De L'Andelyn (Ch.), *Histoire Universelle*, Payot,
Paris 1958.
Ostrogorsky (Georges), *Histoire de l'Etat Byzantin*,
Payot, Paris, 1956.

«وإن عهد الخلفاء الراشدين، الذين عززوا رسالة الإسلام، مع آلاف المؤمنين بالتضحية بدمائهم ونضالهم، لجدير بالدراسة واستخلاص العبر من مؤثراته ونجاحاته». هكذا يقدم المؤلف الدكتور ابراهيم حركات كتابه هذا. إنه دراسة جديدة عن الفترة الأولى من التاريخ الإسلامي، وهي الفترة التي شهدت بالإضافة إلى قيام الخلافة وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، تثبيت الفتح العربي في العراق والشام ومصر. ولا يقتصر المؤلف في دراسته على الفتوحات العسكرية بل يتطرق إلى قيام النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.